الدكتور
عبد الحليم محمود

المسيحية
نشأتها وتطورها

تأليف : شارل جينيبير
رئيس قسم تاريخ الأديان بجامعة باريس

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

المحتويات

التعريف بالمؤلف وبالكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

إن مؤلف هذا الكتاب مسيحى :

لقد نشأ مسيحيًّا من أب مسيحى وأم مسيحية ، ونشأ فى بيئة مسيحية صميمة ، هى البيئة الريفية الفرنسية ، بيئة كاثوليكية متعصبة ؛ ونشأ المؤلف كاثوليكيًّا صميماً . .

ليس فى المؤلف عرق يهودى ، وليس فيه عرق عربى . .

وتعلم المؤلف فى المدارس الفرنسية ، وانتهى به الأمر إلى نيل الدكتوراه . . وانتظم المؤلف فى هيئة التدريس الجامعى . .

لقد تخصص فى تاريخ الأديان على وجه العموم ، ولكنه أخذ شيئًا فشيئاً يتعمق فى المسيحية حتى أصبحت المسيحية تخصصه المتخصص .

ومن أجل المسيحية درس بعض اللغات كالعبرية واللاتينية ، ولكنه درس فى عمق الجو الذى نشأت فيه المسيحية ، وهو الجو الدينى العبرى : أى المجتمع العبرى والديانة اليهودية . . هذا المجتمع الذى نشأت فيه المسيحية ، ونشأ فيه السيد المسيح ، وقضى فيه حياته القصيرة نسبيًّا .

ولقد كتب المؤلف كتاباً عن الجو اليهودى الذى نشأ فيه السيد المسيح . كتب عنه روحيًّا واجتماعيًّا ، وهو كتاب ضخم يقرب من ستمائة صفحة بالخط الدقيق .

وأخذ المؤلف يرتقى فى المناصب الجامعية شيئًا فشيئاً حتى وصل إلى أستاذ تاريخ المسيحية فى أكبر جامعة فى فرنسا ، وهى جامعة باريس ، ثم وصل إلى رئيس قسم تاريخ الأديان فى الجامعة .

وكان اسمه يذيع عالميًّا ، فكان يدعى فى مختلف الأقطار ليحاضر فى المسيحية ، وفى آخر ما كشف عنه ، أو كشف فى تاريخ المسيحية .

وأخذت كتبه تتوالى ، وإنتاجه يروج ، وطبعات كتبه تستمر ، وكان قمة من قمم الفكر والتاريخ . .

ذلك هو « شارل جنيبير » الذى مات بعد الحرب الكبرى الثانية .

والكتاب الذى نقدمه الآن هو كتاب فى تاريخ المسيحية فى القرون الأولى من تاريخها .

ولقد كتب المؤلف كتاباً عن المسيحية فى العصور الوسطى ، وآخر فى تاريخ المسيحية فى العصور الحديثة .

وهذا الكتاب – إذن – هو حلقة فى كتاب عام .

وإذا كانت هذه الكتب ذات أهمية بالغة فإن الكتاب الذى بين أيدينا هو بالنسبة لنا أهمها ، لأنه يصور لنا المسيحية فى نشأتها :

كيف كانت ؟

كيف تطورت ؟

ما هى العوامل التى جعلتها تتطور ؟ . .

وهو – حينما يتكلم أو يبحث فى هذا الموضوع – إنما يتكلم فيه عالمًا من علماء التاريخ ، وليس عالمًا من علماء الدين : أى أنه لا يتكلم باسم الإيمان ، وإنما يتكلم باسم المؤرخ ، وفرق بين وجهتى النظر :

إن الذى يتكلم باسم الإيمان المسيحى يتكلم واقعاً تحت عقيدة معينة ، ألفها ، وتعوّدها ، وشربها مع ماء البيئة ، وتنفسها مع هوائها . .

إنها – إذن – التى توجهه ، وتتحكم فيه ، وتقوده . .

أما المؤرخ فإنه يتجرّد من كل ذلك ، ويدرس الموضوع بحسب الواقع التاريخى ، غير متأثر فى أحكامه بالعقيدة المسيحية .

ودرس « شارل جنيبير » المسيحية دراسة المؤرخ ، المؤرخ المتعمق الباحث فى الآثار وفى مختلف المنابع التى تقوده إلى الحق .

ووصل « شارل جنيبير » فى نهاية دراسة بلغت نصف قرن إلى نتائج اطمأن إليها .

هذه النتائج يتفق بعضها مع ما قرره القرآن . .

وإنه ليسعد المسلم أن يعلم أن المؤلف المسيحى قد وصل ببحثه المجرد إلى ما قرره الإسلام فى جوهر المسيحية وفى صميمها .

والواقع أن المسيحية – فى وضعها الراهن – قد انهارت انهيارا تامًّا تحت قلم الكاتب .

وأقصد بالمسيحية التى انهارت : المسيحية التى انفصلت عن مسيحية المسيح عليه السلام : لقد بيَّن المؤلف أن مسيحية السيد المسيح كانت فى غاية البساطة : لقد كان السيد المسيح يعلن التوحيد ، وكان يعلن أنه عبد الله ورسوله ، وكان يعلن أنه بعث لخراف بنى إسرائيل الضالة ، وكان يعلن أنه محدد

فى رسالته ببنى إسرائيل . كانت رسالته قائمة على التوحيد ، وكان همّ السيد المسيح – كل همه – أن يدعو إلى الخلق الكريم . إنه كان يدعو إلى الرحمة والمحبة والتعاطف ، ولم يدخل قط فى تفاصيل العقائد ، ولم يتحدث عن شريعة . وكان يؤمن أنه نبى من أنبياء إسرائيل ، وكان أنبياء بنى إسرائيل – فيما عدا موسى عليه السلام – لا شأن لهم بحديث عن عقيدة أو عن تشريع : التوحيد وخلق كريم ، فى ذلك يتلخص جوهر دعوة عيسى ، أما المسيحية الحاضرة بكل ما فيها من عقائد وطقوس وشعائر فإنها غريبة وبعيدة كل البعد عن رسالة السيد المسيح عليه السلام .

ولقد بيّن المؤلف أن المسيحية بدأت تنفصل منذ أن دخلها القديس بولص . وبين المؤلف أن عقيدة بنوة المسيح إنما هى عقيدة كانت أثرًا لخطأ فى ترجمة كلمة : إنها كانت أثرًا لخطأ فى ترجمة كلمة « عبد الله » التى كان يقولها السيد المسيح كثيرًا .

كيف تترجم : « عبد الله » ؟

وما كان أمام القديس بولص إلا أن يترجمها بكلمة « طفل » أو بكلمة : « خادم » .

أيترجمها بكلمة « طفل » أم يترجمها بكلمة « خادم » ؟

واختار « بولص » أن يترجمها بكلمة : « طفل » ، « طفل الله » . .

وكان لذلك تغيير هائل فى المسيحية ، وفى الفكرة الدينية عن صورة الإله فى الفلسفة عامة ، وفى الدين المسيحى خاصة .

إن الصورة عن الألوهية إنما هى الصورة التى تتسم اتساماً تامًّا بالكمال وهذه هى الصورة التى رسمها الفلاسفة المؤلهون : أفلاطون وأرسطو وغيرهما .

والكامل لا يكون له أولاد !

إنه لا يلد ، كما أنه لا يولد ، أو إنه ليس فى حاجة – لكماله – إلى ولد .

إن إرادة الولد – حتى لو لم يكن مولوداً وإنما هو مخلوق – إنما هى نقص فى الإله . هذه مسألة بالنسبة للوالد .

المسألة الثانية مسألة بالنسبة للابن : وهى أنه على أى وضع تصورته يكون إمّا مولودًا وإمّا مخلوقاً ، فهو لا مناص قد سبقه عدم ، وأنه وجد بعد عدم ، فلا يكون إلهاً .

لماذا ؟ . . لأنه حادث ، سواء أكان مولوداً أم كان مخلوقاً ؟

إنه – مهما حاولت – ليس كاملا . . ومهما أوتيت من عبقرية لتثبت أن المولود أو المخلوق كامل كمال الإله فسوف تخفق إخفاقاً كاملاً .

والصورة الكاملة لله هى الصورة الدينية الموحى بها فيما قبل المسيحية ، وهى الصورة الدينية التى صحّحها الإسلام ، فأعطى الصورة الصادقة التى أنزلها الله سبحانه على رسوله . والقرآن يتحدث عن عيسى عليه السلام باسم الواقع التاريخى الصادق ، ويتحدث عنه باسم المنطق .

أما عن الواقع التاريخى فإنه يقول : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضًا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . .

ويقول : « وله مَن فى السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا

برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين » .

ويقول : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئاً إدًّا . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » .

وأما وجهة النظر المنطقية فمنها :

« قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السماوات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » .

إنه سبحانه غنىّ ، إنه غنىّ غنًى مطلقاً ، وهذا الذى يسعى وراء الولد ، أو يتخذه ، أو يتبناه ، أو ، أو . . . إنما هو الفقير ، وهو المحتاج : فى العواطف ، فى الأعمال ، فى التصريف . .

ولكن الله هو الغنى سبحانه .

ويقول سبحانه : « ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » و « سبحانه » هنا فى غاية الجمال ، أى تنزه عن ذلك

وتعالى عنه ، فهو الله إذا أراد أمرًا كان ما أراد .

إنه سبحانه يريد فيكون ما أراد ، وهو لذلك فى غنًى عن مساعد معه أو معين .

وهكذا صحح الإسلام صورة الإله التى كادت المسيحية أن تطمس حقيقتها ، والتى مازالت تحاول طمسها .

ونفى المؤلف عن المسيح عليه السلام القول بالتثليث ، هذا القول الذى لا يفهمه المسيحيون أنفسهم ، ولا يفهمه كل من له عقل .

إن الثلاثة ليست واحدًا كما يقولون ، وإن الواحد ليس ثلاثة كما يقولون ، وأى عقل يمكنه أن يفهم أن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة . .

ولقد سمعت مرة – وكدت ألا أصدق أذنى – بطريرك أقباط مصر عند تتويجه يقول عن السيد المسيح عليه السلام : « يجلس عن يمين أبيه على العرش ، وهما واحد » . .

أهذا قول عاقل ؟

وسمعته فى حفلة تتويجه يقول عن السيد المسيح أيضاً : « مولود غير مخلوق » . .

أهذا أيضاً قول عاقل ؟

ويقول القديس أوغسطين مبرراً كل هذا اللا مفهوم بلا مفهوم جديد ، إنه يقول : « أومن بالمسيحية لأنها دين غير معقول » !

وإنه حقيقة دين غير معقول . .

أتعقل أن ينقلب الخبز إلى جسد المسيح ، والخمر إلى دم المسيح ، فإذا أكلت الخبز وشربت الخمر حل فيك جسد المسيح ودمه واتحدت به ؟

إن هذا غير معقول ، ولكنه عقيدة مسيحية . .

ويتحدث أناتول فرانس فى حكمته الساخرة عن هذه العقيدة المسيحية ، ثم يقول : إن أحد الرهبان ذهب إلى مخزن الدقيق ليحضر منه مقداراً يصنعه خبزًا استعدادًا لتوزيعه فى العشاء الربانى ، ونظر الراهب فى الدقيق فوجد فيه بعض الآثار الحمراء ، فأخذ يقدس الرب بصوت مرتفع ، وهو فرح مغتبط حيث ظهر دم السيد المسيح فى الدقيق قبل أن يصنع خبزاً ، والتف حوله القساوسة والرهبان ليشاهدوا المعجزة الربانية ، وأقاموا طقوسهم فرحين مستبشرين ، ولكن . . . دم الإله كان مجموعات من السوس تبينها الراهب من بعد ، فأخفى الأمر ، ولم يبح بسره إلا لأفراد انتشر منهم لغيرهم ، ثم عرف الأمر وذاع . .

ولقد نفى المؤلف عن السيد المسيح الاعتقاد بأن رسالته ستتطور هذا التطور الذى أصبحت له طقوس وشعائر وكنيسة وقساوسة ورهبان . وكل ذلك يتحدث عنه بقلم المؤرخ الذى لا يرى إلا النصوص والوثائق . .

وإذا انتفت عقيدة البنوة ، وعقيدة التثليث ، عن المسيحية الحاضرة فقد انتهت تماماً .

ولقد طبع هذا الكتاب فى فرنسا ، ونشر بها .

بل لقد كان المؤلف يدرّسه فى جامعة السوربون ، ويؤدّى فيه الطلبة امتحانًا .

والغريب فى أمر الناس أن ديناً كهذا يستمر ويبقى وينتشر ويجد من يقوم بالتبشير به ، ولكنه الإلف والعادة والتشبع بهذا الدين مع اللبن من ثدى الأم ، ومع الأم ذاهبة ، بالطفل إلى الكنيسة وعائدة به منها . .

ولكنك إذا تحدثت عن عقائد هذا الدين لعاقل ما كان يعرفها من قبل ، ثم

دعوته للإيمان به ، قال لك من غير شك : انتظر حتى ألغى عقلى ، ثم أنت وما تريد !

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون » .

« وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » .

والآن ننقل للقارئ الكريم بعض النصوص عن المؤلف ، حتى نقدمها إليه من الأول مباشرة ، ثم يقرؤها فى الكتاب فى مكانها السابق بها واللاحق .

« وتصفُّح الأناجيل وحده يكفى لإقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى (تركيبات) واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث ، مما يتحتم معه القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ، ولم يستلهموا تاريخاً ثابتاً يفرض تسلسل حوادثه عليهم ، بل على العكس من ذلك : اتبع كل هواه وخطته الخاصة فى تنسيق وترتيب مؤلفه .

« ولا شك أيضاً فى أنه لم يعتمد أحد منهم على سلسلة كاملة مترابطة من الوقائع تسمح له بأن يضع صورة واضحة لحياة المسيح : فلم يكن عملهم إذن سوى أن يربطوا – فى كثير أو قليل من المهارة – بين أطراف من المرويات ، وأن يشكلوا منها سيرة افتقرت إلى الوحدة الحقيقية ، كما أن عناصرها تبدو مجموعة فى إطار مصطنع .

« وإننا لنلحظ فى ثنايا هذه السيرة الإنجيلية نقصًا كثيرًا وفجوات خطيرة ، نلحظها حتى فى إنجيل مرقس الذى بلغ به الحرص أن تحاشى الحديث عن مولد عيسى وطفولته » .

« إن عيسى بدعوته إنما كان يجدد تلك السلسلة من أنبياء بنى إسرائيل التى انقطعت بعد العودة من المنفى ، والتى حاول أن يصل خلقاتها – من قبله – أنبياء آخرون منهم المعمدان .

« فقيامه بالدعوة – مهما بدا أول الأمر أصيلا مبتكرًا – ليس فى الواقع ظاهرة استثنائية أو غريبة من ناحية الشكل » .

ويقول : « ولم يقل عن نفسه إنه (ابن الله) ، وذلك تعبير لم يكن فى الواقع يمثل – بالنسبة إلى اليهود – سوى خطأ لغوى فاحش ، وضرب من ضروب السفه فى الدين .

«كذلك لا يسمح لنا أى نص من نصوص الأناجيل بإطلاق تعبير [ابن الله] على عيسى ، فتلك لغة لم يبدأ فى استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، إنها اللغة التى استخدمها القديس بولس ، كما استخدمها مؤلف الإنجيل الرابع ، وقد وجدا فيها معانى عميقة ، وعلى قدر كاف من الوضوح بالنسبة إليهما » [1] .

ويقول : « وهكذا فإن النصوص لا تقدم إلينا الخبر اليقين فيما يتعلق بتفكير عيسى الخاص بمبادئ رسالته ، وبصفات شخصيته ، وبمدى دوره الذى لعبه . إلا أننا لابد أن نقرّ واقعًا واضحاً للعيان ، وهو : أنه لم ينجح فى دعوته ، وأن مواطنيه من أهل فلسطين لم يصدقوا بالرسالة التى نسبها إلى نفسه ، ولم يسيروا

---

(١) يمكن أن يعتبر اليهودىّ نفسه « عبداً ليهوه « لا » ابناً ليهوه ، ونعتقد أنه من المحتمل أن يكون عيسى قد تصور نفسه « عبد الله » وتقدم للناس بهذه الصفة .

والكلمة العبرية « عبد » كثيراً ما تترجم إلى اليونانية بكلمة تعنى « خادماً » و « طفلاً » على حدّ سواء .

وتطور كلمة « طفل » إلى كلمة « ابن » ليس بالأمر العسير ، ولكن مفهوم « ابن الله » نبع من العالم الفكرى اليونانى .

(المؤلف)

على نهج الأخلاق التى أراد أن يوحى بها إليهم . .

« لقد راقبوا مروره بينهم خلال الفترة الوجيزة التى أتيح له أن يظهر فيها [1] راقبوه فى شىء من الفضول ، أو من اللامبالاة ، ولكنهم لم يتبعوه .

« ولعله – وهذا أكثر ما يمكن أن يقدر له من نصيب فى النجاح – قد جذب إلى دعوته بضع مئات من أهل الجليل السذج ، فالأناجيل عندما تصف لنا جماهير الشعب ، وهى تقتفى خطاه فى تلهف ، وتنصت إلى أحاديثه فى إعجاب بالغ ، هذه الأناجيل لا تنسينا ما ترسمه صفحاتها الأخرى – فى صورة لا شك أنها أقرب إلى الحقيقة – من قسوة قلوب اليهود وتعنتهم الشديد .

« والواقع أن عيسى نفسه قد يئس ، فيما يبدو ، من محاولة إقناعهم . وأسباب إخفاقه واضحة للعيان » .

ويقول : « لذلك كله نستطيع وصف بولس بأنه كان : (منشئ المستقبل) » .

ويقول : « إن موت عيسى فى نظر الاثنى عشر : ليس بالتضحية التفكيرية ، أما عند بولس فنعم ، وفى عقيدته : أن المسيح مات من أجل خطايا البشر .

« ولم يكن الاثنا عشر ليوافقوا على نعت عيسى بـ (ابن الله) مكتفين بتعبير (خادم الله) ، أما عند بولس فلقب (ابن الله) لقب كثير الاستعمال بالنسبة إلى عيسى » .

---

(١) يجب ألا نعتمد فى حسابنا لحياة عيسى كثيراً على التقديرات التى يوحى بها الإنجيل الرابع ، والتى بمقتضاها تكون حياته العامة قد امتدت ثلاث سنوات . إن فترة الدعوة فى حياة عيسى اقتصرت بالتأكيد على بضعة أشهر ، أو حتى على بضعة أسابيع ، والتقديرات الدقيقة غير متوافرة .

(المؤلف) .

« إذا تأملنا الكنيسة المسيحية فى مقتبل القرن الرابع ، فإنه يتعذر علينا أن نجد فيها صورة من صور مجتمع الحواريين ، أو – إذا أردنا الحق يستحيل علينا ذلك » .

ويقول : « إن المسيح لم ينشئ الكنيسة ولم يردها .

« ولعل هذه القضية أكثر الأمور المحققة ثبوتاً لدى أى باحث يدرس النصوص الإنجيلية فى غير ما تحيّز ، بل إننا نؤكد أيضا أن الفرض العكسى لا يمكن أن يوجد له سند تاريخى مقبول » .

ويقول : « ولنتأمل قليلا فى أمر مسيحية القرون الوسطى :

« كانت ديناً يبغى العالمية ، ويتخذ الحرب وسيلة لها ، ديناً متعصباً ، شديد التعصب ، لا يقبل – بالنسبة إلى العالم الخارجى – أنصاف الحلول ، ويخشاه اليهود خاصة .

« وكانت ملتقى لعدد كثير من العقائد التى لا يستسيغها المنطق ، ومن الطقوس الدقيقة المتشعبة التى حملت قدرًا وافراً من رموز السرية والفعالية » . .

ويقول : « المسيحية فى القرون الوسطى ، عندما نتأملها ، ثم نقارن حالها بدين نبى إقليم الجليل ، ذلك النبى المتواضع ، الرقيق الخلق ، الذى زعم أن رسالته هى فقط تبشير إخوته فى الله بالنبأ الطيب : نبأ حلول مملكة الله ، وحثهم على إعداد العدة لها بمكارم الأخلاق ، دين عيسى الذى تسامت تقواه إلى إله أجداده فى تطلع بنوى مطمئن » .

لا نجد رابطة تذكر بين هذا وذاك .

فباسم المسيح يبدو أن حياة الوثنية كلها ، سواء فى ميدان الفلسفة أو الدين ، وبكل ما انطوت عليه من تناقضات وفوضى ، قد دبت فيها الحياة من

جديد ، فنشطت وانتصرت على دين الروح والحق الذى بشر به وعاشه الأستاذ اليهودى . .

ويقول : « ومع ذلك ، فالحقيقة الثابتة التى لا جدال فيها هى أن الكنيسة لم تتمكن من الانتصار خلال القرن الرابع إلا بفضل انهزام الإيمان الأول الذى يمكن أن نسميه إيمان الاثنى عشر » .

ويقول : « انهزمت المسيحية الأولى فى الصراع الروحى الذى خاضته مع الحياة ، وقبلت الكنيسة ، فى الواقع ، هذا الانهزام ، واعتمدته ، مكتفية بأن تحول إلى موضوع للتأمل الدينى لدى المؤمنين تلك المثل التى كانت تنطوى فى البداية على جوهر الإيمان ، والتى كانت هى علة الإيمان الأولى » . .

وفى نهاية الكتاب – كتعبير عن جوهره – يقول المؤلف : « نستطيع القول – دون أن نتهم بالبحث عن المتناقضات أو السير وراء كل غريب من الآراء – إن الغربيين لم يفهموا العقائد المسيحية فى العصور اللاحقة ، وإن الديانة التى أنشئوها على أساس منها – باجتهادهم الخاص – كانت ديانة مختلفة تمام الاختلاف فى روحها وجوهرها ، عن المسيحية الشرقية . . ديانة مختلفة نبعت قبل كل شىء من رصيدهم الفكرى والروحى ، متمشية مع عواطفهم ونزعاتهم ، وإن صبت فى قوالب تعبيرية لا توافقها تمام الموافقة . .

خلاصة القول : أن الغربيين لم يكونوا قط مسيحيين فى يوم من الأيام » . .

وفى نهاية هذه المقدمة نقول مع القرآن الكريم :

« ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

عبد الحليم محمود

تمهيد

(ا) لماذا لم تحقق دراسة تاريخ المسيحية التقدم المرجو لها – أسباب خارجية وعلل ذاتية – النقص فى مصادر التحقيق والخطأ القديم فى عرض المسائل – الفوضى التى جلبها أهل الجدل والمتعصبون – نظريات حديثة .

(ب) صورة عامة للمسيحية من وجهة نظر المؤرخ .

(١)

نستطيع اليوم أن نسجل الدراسات النقدية لأصول المسيحية ولتطور الكنيسة فى سجل العلوم التاريخية . ولكن هذه الدراسات لم تحرز من التقدم ما قد يخيل إلينا أنها أحرزته إن اكتفينا بإحصاء الكتب التى ألفت والتى يزداد عددها يوماً بعد يوم . وهى كذلك لم تصل فى بعض نتائج تحقيقاتها إلى تلك المرتبة من النجاح والوثوق ، التى ارتفعت إليها بعض العلوم التاريخية الأخرى . وكان هذا سبباً من الأسباب التى مازالت تدفع بالكثير من المثقفين وبجمهور القراء أو المستمعين ، إلى مواجهتها بقدر موفور من الريب ، بل تدفعهم إلى ما هو أخطر من ذلك ، إلى اللا مبالاة .

وإذا كان هذا الموقف – موقف الريب أو اللا مبالاة – عديم الأهمية أو يكاد فى البلاد البروتستانتيّة الغربية ، الجرمانية الثقافة ، فإنه فى البلاد ذات التقاليد الكاثوليكية والروح اللاتينى ، يشكل عقبة كئودًا صمّاء ، يعسر التغلب عليها ، ويتلاشى أمامها كالهباء الكثير من الجهد والوقت .

ولكننا برغم ذلك نستطيع أن نؤكد أن علم تاريخ المسيحية ليس مسئولا وحده عن تأخره ، وأنه بذل جهداً كبيرًا ليلحق بركب التطور ، وأنه اليوم قد وصل إلى نتائج هامة فى سائر المجالات ، وإلى براهين أصيلة فى المواضيع الأساسية .

ولقد ظل المدخل إلى معرفة المسيحية الأولى – حتى منتصف القرن التاسع عشر – محرمًا تحريمًا باتًا على العلماء المنزهين عن الغرض ، أى على هؤلاء الذين

لا يعنيهم استغلال الحقيقة لمصلحة مذهب معين ، بل يبغونها خالصة لوجهها . وكان الرأى العام يؤمن بأن دراسة تاريخ المسيحية إنما هى الساحة التى لا يجول فيها إلا رجال الكنيسة وأهل اللاهوت . وكان يؤمن بأنها لازمة من لوازم الدفاع عن المسيحية ، أو – فى تعبير أكثر دقة – صورة من صور هذا الدفاع ، ولم يخرج الرأى العام فى إيمانه هذا عن جادة الصواب ، فتاريخ المسيحية لم يكن سوى هذا أو ذاك [1] . وقد خبر الناس ، منذ عصر الإصلاح الدينى ، أساليب فقهاء الجدل من البروتستانت أو الكاثوليك : يغترفون اغترافاً من موارد النصوص القديمة التى لا تنفد ، والتى يجد فيها كل فريق ما يروقه من الأدلة والبراهين .

وفى القرن الثامن عشر نرى أعداء الكنيسة الكاثوليكية ، من رجال السياسة ومن الفلاسفة ، الذين يحكمون على عقائدها بالتهافت ، يتأسون بخطى أهل الجدل البروتستانتى فى نقدها ، وينهجون مناهجهم الجدلية أحياناً ، ولكنهم فى نقدهم – فى كلتا الحالتين – لم يتنزهوا عن الغرض ، ولم تتميز كتب أولئك عن رسائل هؤلاء إلا فى المزاج والأهداف .

وخلاصة القول أن المفكر المنصف فى بداية القرن التاسع عشر لم يكن يرى ، فى غالب الأمر بين الباحثين فى تاريخ المسيحية إلا شادياً بالكنيسة المسيحية ، مثنياً عليها ، أو ساعيًا لهدمها ؛ ولم يكن له ، فى غالب الأمر أيضاً ،

---

(١) مهدت دراسات الفحول من بحاثة القرنين السادس عشر والسابع عشر أمثال توماسان وتيومون ومابيون وروينار وريشار سيمون – لكتابة تاريخ المسيحية الصحيح ، إذ فرضت مبادئ للبحث وحققت أمثلة معينة من المسائل المختلف عليها . ولكنها فى حد ذاتها لا تكون تاريخاً كاملا صحيحاً للمسيحية . (المؤلف)

سوى أن يحكم على دراسة تاريخ المسيحية بأنها لا تفيد إلا فى تحقيق غرض من هذين . ومن تلك الفكرة نشأت مواقف دينية ثلاثة اتسمت جميعاً بروح الحذر الشديد تجاه هذه الدراسات ، وإن اختلفت باختلاف العقائد السابقة لكل فريق :

١ – فريق يمثل الجهلاء والبسطاء ، ويبقى تحت التأثير الأول للتربية المسيحية التى قبلها ، أو اضطر إليها بادئ ذى بدء ، لا يجادل فيها ولا يشغل فكره بها ، خاضعًا فى سذاجة ساذجة لما افترض من محرمات ، متجنباً تلك الأحداث التى رأى أن تعاليم الكنيسة تغنى عنها وتنهى عن قراءتها ، مؤمناً بأن الإقدام عليها رجس من عمل الشيطان يؤدى بالنفس إلى التهلكة .

٢ – وفريق اتجه إلى الشك ، لطبع فى النفس ، أو اتجه إلى الشك حيث دفعه إليه منطق سطحى متهافت ، فجدّد قول شيشرون من : أن الدين حاجة لازمة للشعوب ، تقمع جماح الشهوات ، وتضمن حياة الأخلاق ، وأن المساس بأسس الكنيسة إنما هو مساس بأسس المجتمع القويم ، وراح يعلن هذه الفكرة كمبدأ فرض لا جدال فيه .

٣ – وفريق ثالث أخير من أصحاب الفكر الكسلان ، أو المتعلق بتبسيط الأمور ، ينزعون إلى تصوّر الأديان جميعًا فى صورة تنظيم متشعب الأطراف للدجل والاستغلال ، يديره دهاة الكنائس من القسس . وهؤلاء لا يرون فى المسيحية شيئاً يستحق أكثر من الهزء والسخرية .

لمَ لا نعترف بالواقع ؟ . . إن جمهور الناس فى البلاد اللاتينية لا يزال يعلل بهذه النظريات أغراضه عن دراسة أصول المسيحية والكنيسة ، وجهله بمناهجها وبالمسائل التى تثيرها والنتائج التى تحققها . ولا يزال موقف الهيئات المشرفة على

التعليم يقوم حافزاً على سوء الظن بهذه الدراسات . ففى فرنسا – مثلا – لا نجد سوى جامعات ثلاث فيها كراسى لتدريس التاريخ المسيحى . ولا يغرنا كثرة المستمعين إلى الأساتذة المعينين لها ، فالطلاب المنتظمون أقلية قليلة . ولا يمكن أن يتطور الأمر إلا بتطور الأفكار السائدة فى التعليم الثانوى ، فشبابنا يصل إلى المرحلة الجامعية ولم ينبه تنبيهاً كافيًا إلى أهمية تلك المسائل التى وإن كانت تفرضها البرامج الدراسية ويحتمها الحياد العلمى فإن اتجاهات السلطات الرسمية والرغبات العامة لدى الأساتذة تؤدى إلى محاولة التستر عليها ، لا إلى بحثها .

والحق يقال : إن الواقع الذى تنطوى عليه دراسة تاريخ المسيحية مسئول هو الآخر عن تأخرها . فهى لا تنتظم إلا بالتغلب على عقبات كثيرة تقتضى بذل جهود مضنية من شأنها أن تدفع بالكثيرين إلى اليأس ، وهى – فضلا عن ذلك – لا تغرى المبتدئين بمظهر شائق خلاب ، بل إن عبوس أساليبها ، وتردّدها وشكوكها فى مواضيع كثيرة ، ثم حذرها الشديد من البراهين والنتائج ، كل ذلك يدفع إلى تجنبها ، ويبعد عنها هؤلاء الذين تبهرهم الأحكام الوضعية للعلوم المادية ، وعلى رسلهم أولئك الذين لا يصبرون على الجد وعمق البحث .

وأول الصعاب التى تعترضها نجدها فى النصوص نفسها التى تمتاز من سائر النصوص الأخرى بضعف السند وبالاضطراب وعسر التحقيق . وأقدم هذه النصوص وأهمها – لأنها تتناول حياة المسيح والزمن الأول للعقيدة – هى تلك التى احتواها « العهد الجديد » ، والتى استلزمت ، قبل إمكان الاعتماد عليها ، تحقيقاً نقديًّا دقيقاً مطولا لم يوشك أن ينتهى . ولم يكن فى المقدور ، لفترة طويلة من الزمن ، أن نستخرج العناصر والأسانيد إلا منها ، بحيث اضطر المفسرون –

من أجل تفهمها – إلى ترتيب المعانى وتهيئة الحواشى والتعليقات ، ولجأوا – حينما أرادوا التسامى بالفكر فوق النصوص – إلى النظريات والفروض . ويا لها من ضرورة مؤسفة ما زال هؤلاء المفسرون يخضعون لامتحانها فى الكثير من الظروف ، بل نرى فئة كبيرة منهم تقبلها راضية قارة العين ! . . . وقد يحدث أحياناً ، والتحقيق النقدى فى طريقه إلى الإثمار ، أن تكشف وثائق قاطعة فى المعانى المختلف عليها ، أو تظهر نظريات وآراء جديدة لها وجاهتها ، فيعود الباحث من حيث بدأ ، مقيماً عمله النقدى على أسس مختلفة . فلا نستطيع أن نقول إن العرض النظرى العام للمشكلات الكثيرة الخاصة بالأناجيل الثلاثة الأولى ، قد تغيرت اتجاهاته منذ خمسة عشر عاماً على التقريب . وتجددت مشكلة القديس بولس . والإنجيل الرابع نفسه الذى ظن أن مشكلته حلّت نهائيًا ، قد تغيرت وجهات النظر المتعلقة به . إن هذا التردد ، وهذا التخبط النقدى الذى يسهل أن نأتى منه بأمثلة لا حصر لها ، ثم هذا التطور المستمر لوجهات النظر والمذاهب ، ليس له من مرجع سوى علة واحدة ، وهى أننا لا يمكن أن نخلص من الوثائق وحدها إلى تاريخ متكامل منسجم لأصول المسيحية . فمن هذه الوثائق لم يتبق لنا إلا فتات يكثر الشك فى البناء المؤسس عليه .

وإن خرجنا من الأجيال الأولى للإيمان ، فإننا نجد أنفسنا أمام عهد قد أظلم الكثير من جوانبه : ذلك هو الذى يشمل القرون الثانى والثالث والرابع للمسيحية ، والذى تكونت فيه العقيدة الأرثوذكسية ، واستقرت النظم الكنسية ، وانتظمت الطقوس الدينية . إن النصوص التى تتعلق به تبعد فى غالب الأمر عن الحياد والموضوعية ، وهى على أى حال ليست من الكثرة بحيث

تسمح بالمقارنة والمقابلة إلا فيما ندر من المسائل .

وفى القرن الرابع ، وهو عصر انتصار الكنيسة ، كتب الكثير عنها أو ضدها ، كتبه أعداؤها من المشركين أو من أنصار الفرق المختلفة . ولكن أغلب هذه التآليف قد اندثر وضاع ، ولم يبق منها سوى النذر اليسير الذى لا يدل إلا على عظم الخدمات التى كان يمكن أن تؤديها لو حفظت لنا .

إن التاريخ المسيحى خلال القرون الثلاث التى تكونت فيها الكنيسة – إذا قورن بأى فرع من فروع التاريخ العام فى الفترة عينها – لا يحظى إلا بأدنى نصيب من الأسس المكتوبة الثابتة ، فهو يقتصر فى غالب الأمر على دراسة مؤلفات أهل الجدل أو الأنصار المتعصبين معتمدًا على تصحيحها بروايات مشكوك فى أمرها ، تريد أن تكون تاريخية ، ولكنها فى الواقع قد حررت فى عهود تبعد كثيرًا عن الأحداث التى تتناولها ، والتى لا يكاد الناس يفهمون تسلسلها .

وهو أيضاً إذا ما تحول إلى البحوث الدينية لا يجد سوى تلك الرسائل التى تعبر عن رأى الأقلية من الفقهاء لا عن روح العقيدة الحية لدى الطبقات المختلفة من المؤمنين البسطاء . ثم هو ، عندما يريد أن يلجأ إلى الآثار ، لا يجد من النصوص المنقوشة إلا ما غمضت معانيه وافتقرت دلائله إلى المزيد من الإثبات ، وكأن أصحاب هذه النقوش قد تفننوا فى الغموض والإيجاز . يجب علينا أن نذكر كل هذه الحقائق دائماً إن أردنا الإنصاف . بل إن ذكرها أمر محتم علينا ، فتاريخ المسيحية القديمة لا يشكو فحسب من الصعوبات التى يعانيها مثله تاريخ العصور الرومانية والإغريقية ، بل هو بالإضافة إليها كلها يتعثر أمام عقبات أخرى كثيرة خاصة به .

ومن ناحية أخرى يجب علينا الإقرار بأن فقهاء ومؤرخى المسيحية الأولى كثيراً ما أضاعوا الوقت والجهد فى بحث مسائل تفتقر أولا إلى العرض الصحيح. وبلغ منهم الخيال مبلغاً مثيرًا ، فظنوا مثلا أنه يمكنهم أن يستخلصوا من مجموعات النصوص المسيحية وحدها كل ما يحتاج إليه الكاتب لتصوير عصور الكنيسة الأولى تصويراً كاملا دقيقاً . والواقع الذى قد يدركه هؤلاء العلماء ، أو قد يسهون عنه ، هو أن تلك المحاولة للاعتماد على النصوص المسيحية وحدها نشأت من أصول عقائدية راسخة فى نفوسهم ، فهم لم يصلوا إلى حمل عقولهم على النظر إلى المسيحية باعتبارها إحدى الديانات الإنسانية ، بل أرادوا أن يحتفظوا لها بميزة أصيلة تفرق بينها وبين تلك الديانات . وتعليل إرادتهم هذه يعود بنا فى نواح كثيرة منه إلى الغرض الدينى للوحى .

والرأى المتفق عليه عامة هو أنه للوصول إلى فهم مبدأ المسيحية و « جوهرها » ، وإلى إدراك الأسباب التى نشأت منها ، لا يكفى استيعاب المراجع المسيحية والتحقيق المدقق فى التفكير الدينى والأخلاقى الاجتماعى بين أرجاء العالم اليونانى الرومانى ، حيث انبثق الإيمان ونما وتطور ، بل إن سر نشأة هذا الدين وطبيعته الأولى يجب الرجوع فى دراسة جوانب كثيرة منها إلى حضارات سوريا وآسيا الصغرى ومصر ، وكذلك بلاد ما بين النهرين ، وكل هذه البيئة الشرقية التى ظهر فيها بادئ ذى بدء ثم وجد العناصر الأولى للحياة والانتشار .

والدراسات الوافية التى تتم فى أيامنا هذه للنصوص المنقوشة وللوثائق التى يحملها إلينا الخزف أو أوراق البردى ، أصبحت تضىء جوانب كانت مجهولة من فقه « العهد الجديد » ، ومن أخلاق وتقاليد وعادات دينية اختصت بها تلك الشعوب التى كتب الكتاب (العهد الجديد) بواسطتها وكتب من أجلها .

وإن تقدم علوم الآثار الشرقية ليؤدى إلى النتيجة عينها .

ومن جانب آخر نرى المتعصبين وأهل الجدل لا ينفكون عن النضال . فالفريق الأول لم يكتف بأن يبذل قصارى جهده لكى يبث وينمى فى أذهان المستمعين إلى حججه – وهم جمع غفير – الإيمان بأن الباحثين الأحرار إنما هم أعداء الدين الذين يزداد خطرهم كلما ازداد ادعاؤهم الإخلاص وعدم التحزب – لم يكتف الفريق الأول بهذا ، بل أنشأ أهله ، فى المدارس التى يشرفون عليها وفى الكتب التى يصدرونها ، تاريخاً جديداً للمسيحية يقاومون به النقد الموجه إليها ، أى أنهم يتظاهرون بتبنى مناهج النقد العلمى دون تحفظ ، ولكنهم يطبقونها بوسائلهم الخاصة ، وبحيث تؤدى بهم دائماً – ويا للمعجزة ! – إلى نتائج لا تخرج عن فروض السنن الموروثة ، والغافل عن الحقيقة لا يميز فى الأمر شيئاً . وكذلك أهل الجدل المعادين للكنيسة يفسرون لمصلحتهم تحقيقات العلماء ، ولا سبيل إلى دفعهم عن ذلك . والجانب الخاسر فى كلتا الحالتين هو علم المسيحية نفسه ، الذى يفقد تقدير الجمهور ، بل يتعرض لفتن كثيرة خطيرة . ولا أدل على ذلك من تردد التعبير الشعبى القديم الذى يقول فى غير ما اهتمام : « كل هذا من شأن القسس وحدهم » ، أو : « من شأن أعداء القسس » . ولكن الحكيم لا يعجب لهذه الظاهرة أكثر مما يجب ، فهو يعلم أن القضاء على القشور الكاذبة لا سبيل إليه فى طرفة عين ، بل يستلزم الصبر والجهد .

إن ما سبق توضيحه ينطبق أكثر ما ينطبق على دراسة تاريخ المسيحية القديم . بيد أن تاريخ الكنيسة ، سواء فى العصر الوسيط أو فى الازمنة الحديثة والفترة الحاضرة ، يتعرض لعقبات لا تقل عن تلك خطورة ، وإن كانت تختلف

عنها شيئاً ما . فالنصوص ، برغم وفرتها ووضوحها النسبي فى غالب الأمر ، يتعذر جمعها لتشتيتها فى جهات لا حصر لها . والملاحظ أنه كلما احتوت هذه النصوص على مفهوم يهم الباحث ، أو كلما وجد فيها العالم ما من شأنه أن يطور الرأى الذى يحاول تكوينه عن الكنيسة المعاصرة – سواء كان فى ذلك خيراً لها أو هدماً – ثارت الأهواء وسارعت الأحزاب تحاول استخدام هذه النصوص فى أغراضها ، بحيث يتعذر أحياناً ، بعد فترة قصيرة ، أن نميز ونحدد مغزاها الحقيقى ومدى ما يحمله من مفاهيم . ويكفى لتوضيح هذا أن نتأمل قليلا فى الجدل الذى ثار حول الكثير من الموضوعات الهامة ، التى نذكر منها على سبيل المثال وفى غير ما ترتيب : مسألة الرهبنة ، محاكم التفتيش ، أسباب الإصلاح الدينى ، شخصية لوثر ، روح وسلوك البابوات فى عصور مختلفة ، التفسير النسبى للذنوب ، جماعة اليسوعيين ، قائمة الخطايا التى وضعها البابا بيوس التاسع ، نظرية تنزيه البابا عن الخطأ ، سياسة البابا بيوس العاشر . . .

إلا أن الزمن ، مع مثابرة العلماء ، كفيل بإزالة كل هذه الصعاب التى تعترض طريق التحقيق الصحيح . والحقيقة تتكشف شيئاً فشيئاً وتنجلى عنها عواصف الجدل ، فتفرض نفسها على الناس جميعا . .

ولكن دراسة تاريخ المسيحية لم تصل بعد إلى تلك المرحلة الخصبة التى تتسم بالروح العلمية البحتة ، والتى لا يرجو فيها الباحث سوى الوصول إلى الحقائق وتحليلها التحليل الصحيح ، ولا يهدف من ورائها إلى غرض سوى إضافة شيء جديد إلى علمه . وهناك ظاهرتان ما زالتا واضحتين فيما يختص بتلك الدراسات ، وهما : البطء الشديد الذى تسير به فى تشييد الصرح العلمى لتاريخ المسيحية ، ثم ذلك الروح العام من اللامبالاة أو الشك الذى نجده .

تجاهها ، وبخاصة فى البلاد اللاتينية حيث يجهلها أكثر المثقفين جهلا مطبقاً يؤسف له .
فإذا ما بحثنا عن الأسباب المتآزرة فى خلق وتثبيت هاتين الظاهرتين ، وجدناها فى عوامل نستطيع أن نحصى منها الكثير : فمن أفكار ثابتة موروثة تضع نطاقاً من التحريم حول الكثير من المسائل الدينية الهامة ؛ ومن أغراض ومصالح مختلفة ، سواء منها الدينية أو الأخلاقية والسياسية والاجتماعية ، تقف حجر عثرة أمام رغبات الباحثين ؛ إلى خوف طبيعى من الانزلاق فى خضم الجدل السقيم ، ذلك الجدل الذى لا يمكن وصفه بالإخلاص ؛ ثم العجز والشك الذى يعترف به كل عالم يستحق هذا الاسم فى كثير من اليأس والمرارة ؛ والطمع العلمى الخطر ؛ والآراء السابقة لأوانها والقائمة على غير أسس سديدة ، مثل تلك التى تريد إثبات أن المسيح شخصية خيالية لم توجد بالمرة ، وتعارض النظريات ، وخصومات المفكرين ، وأخيراً ضرورة الجهد المضنى المستمر ، للوصول إلى إدراك وتتبع كل تلك الأبحاث المعقدة والبراهين الملتوية . .

وبرغم هذا فالقارئ المنصف إن أراد تحقيق الأمر ، لا يجد مناصاً من الاعتراف بأن جهود الأجيال المختلفة من الباحثين لم تذهب سدى ، وبأنهم – على أقل تقدير – استطاعوا أن يصلوا بكل المشاكل إلى بساط البحث العلمى الوضعى ، وبأن عدد المشاكل التى انتهوا فيها إلى حلول يسمح منذ الآن باستخلاص بعض النتائج العامة على أساس قوى سليم .

إنا لم نحط بكل شىء علماً ، وإننا لا نستطيع حتى ادعاء تفسير كل النقاط الجوهرية فى كثير من المسائل الخاصة بعلمنا . ولكنه أصبح فى الإمكان أن نحدد على الأقل الاتجاهات الأساسية فى تطور المسيحية ، وأن نبين المراحل الهامة من هذا التطور ، ونحلل العوامل الأصيلة فيه ، وأصبح فى إمكاننا أيضاً ، برغم

تعذر الاعتماد على الحقائق الإيجابية – أن ننفى – فى غير تردد – الكثير من الأساطير المتوارثة التى أجهدت المؤرخين زمنا طويلا معلنين بطلانها .

وليست هذه النتائج بالتى يستهان بها .

(ب)

إذا ما نظرنا فى غير تحزب إلى نشأة المسيحية وتطورها ، تاركين جانباً كل ما يتعلق بعلمى اللاهوت وما وراء الطبيعة ، بل منصرفين تماماً عن كل اتجاه إلى إدراك مفاهيم اللاهوت وما وراء الطبيعة ، وجدنا فى هذه النشأة وذلك التطور ظاهرة تاريخية جماعية يمكن تحليلها فيما يلى :

ظهر بإقليم الجليل ، خلال حكم الإمبراطور تيبريوس ، شخص يدعى بيسوع الناصرى ، وصار يتحدث ويعمل حديث وعمل الرسل اليهود ، معلناً قرب قيام مملكة الله ، وناصحًا الناس بالخير حتى يجدوا لأنفسهم إلى هذه المملكة سبيلا وفى هذه المملكة مكاناً . وقد جمع من حوله بعض الأنصار المخلصين . ولكن حادثاً عنيفاً أنهى حياته فجأة . غير أن عمله لم ينته بانتهائه ، بل سار أتباعه على هداه . ثم نجده بعد فترة وجيزة يوضع فى مكان الصدارة من مفهوم دين حقيقى كامل يمتد إلى العالم اليونانى والرومانى ، وينفصل فى الوقت نفسه عن الديانة اليهودية .

وتقوى دعائم هذا الدين الجديد شيئًا فشيئًا ، فيضم العدد العديد من الأتباع ، وينتهى إلى إقلاق بال القائمين بأمر الإمبراطورية الرومانية ، فيضطهدونه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقفوا فى سبيل انتشاره ، وينتظم الدين الجديد بعد ذلك فى كنيسة تفرض سلطانها على مرّ الزمن ، فتحمل

الإمبراطورية – خلال حكم قسطنطين – على التسامح فيما يختص بشئونها ، ثم تكسب الأباطرة إلى جانبها ، ثم تحملهم على محاربة الوثنية . ونراها فى نهاية القرن الرابع تسود – رسميًا على الأقل – فى الدولة الرومانية كلها . وانتصرت العقيدة المسيحية بعد ذلك فى أوروبا وانتشرت فى الأرض جميعها .

وتلك النتائج التى حققها الدين الجديد ، تبدو لأول وهلة من الضخامة بمكان إذا قارناها بالحدود المتواضعة التى ظن أن يسوع أراد وضعها لرسالته . وهى أيضاً تبدو من الضخامة بحيث لا يستطيع المسيحيون تفسيرها إلا بردها إلى إرادة الله الذى يبغى خلاص أبناء آدم . وبما أن يسوع هو الله – فيما ترى العقائد المسيحية – فالنتيجة الحتمية لذلك : أنه أراد ، وأنه – برغم تضارب الاحداث الظاهرة – نظّم مضمون الدين الكامل خلال وجوده على هذه الأرض ، وأن الحياة المسيحية كلها ليست إلا نمّوًا ضروريًا للمبادئ التى وضعها . وهكذا ، فإن الكنيسة المسيحية ، وتأسيس وتطور المسيحية على مر الأجيال ، ينبعان خالصين من إرادته . أما السبب فى اتخاذه صورة البشر ، وتحمله للآلام ، ثم موته ، فهو – فيما ترى الكنيسة – إنشاء العقيدة الصحيحة .

هذا إذا اقتصرنا على الظاهر ولم نتعرض لسر الفداء .

ولن نتعرض هنا للحذر الذى لابد أن يعرب عنه كل مراقب غير متحيز إزاء أحداث هذا التاريخ ، هذا الحذر الذى يتلخص فى أن التردد والتغيير والإصلاحات – طفيفة كانت أم متعمقة إلى الأصول – ثم الجدل والتفرق والانقسامات ، كل تلك الظواهر التى اتسم بها تاريخ الكنيسة المسيحية ، لا تتفق كثيرًا مع النظرية القائلة بوجود خطة محددة وضعها المؤسس الأول منذ البداية ، وسار عليها التاريخ دون انحراف .

فالعرض العام الذى خططناه بشأن نشأة ونمو وانتصار المسيحية لم يحسب من حساب الأحداث إلا ظاهرها ، ولم يهدف إلى تحليل كيانها الذاتى وإلى تفسيرها حقيقة . إنه لم يبين منها سوى تسلسلها وترابطها من الناحية الزمنية . غير مبال كثيراً بالتسلسل والترابط المنطقى .

وهناك مسائل كثيرة يجب وضعها على بساط البحث بشأن هذه الأحداث أو بشأن ترابطها وتسلسلها . وهى مسائل أساسية تتعلق بمبدأ وجوهر المسيحية وبمعنى وتدبير التطور المسيحى . وتلك المسائل هى المادة الحقيقية التى تغذى تاريخ الكنيسة القديمة .

الفصل الأول

قيام عيسى بالدعوة

(ا) الأصول اليهودية للمسيحية – عيسى الناصرى : نقص المعلومات عنه – كيف ولماذا حلت أسطورته محل تاريخه – أصول الأناجيل – كيف وضعت هذه الأناجيل – كيف استطاع الإيمان أن يتكفل بمواضع النقص فيها – كيف تبحث مشكلة قيام عيسى بالدعوة .

(ب) البيئة التى خرج منها عيسى – البلد اليهودى والبلدان المجاورة : مادة دينية ضخمة متوافرة أمام الاتجاهات التأليفية المجددة – التربية اليهودية الكاملة لعيسى – العالم الفلسطينى فى عهد هيرودوس الأكبر – « القسس » والعبادة – « الكتبة » والتشريعات الدينية – الشعب والدين الحىّ – ترقب المسيح خصائص اليهودية فى إقليم الجليل .

(جـ) أساس قيام عيسى بالدعوة : الأمل فى ظهور المسيح – علاقة عيسى بالمعمدان – موضوع أحاديثه : ظهور مملكة الله والتوبة – هل ظن أنه هو المسيح ؟ – معنى ومدى الأسماء التى تطلقها عليه الأناجيل : ابن الله ، ابن داود ، ابن الإنسان – عقبات مختلفة ومسائل تبدو صحيحة : عيسى النبى اليهودى .

(١)

المسيحية إذن تنبع أساساً من حركة يهودية . وهى تبدو أولا – وعلى وجه التخصيص كظاهرة تهم الحياة الدينية لليهود ، وتتميز بها البيئة الفلسطينية – ولا يمكن تصور قيامها خارج نطاق العالم اليهودى . وقد بدأ بهذه الحركة – التى تعددت آثارها فيما بعد فأبانت عن خصوبتها – عيسى الناصرى . ولا تعنى كلمة الناصرى فى غالب الظن « رجل الناصرة » ولكن « الناظر » أى : « قديس الله » .

ولا أعتقد أنه يمكن التشكيك فى وجوده على غرار ما يحاوله البعض حتى أيامنا هذه . ولكننا متى ما أثبتنا وجوده التاريخى ، فإننا بذلك نضع أنفسنا مباشرة فى تيه من التاريخ كله ظلمات وشكوك . ولا أدل على ذلك من أن البحث الدقيق الذى دار فى السنوات الأخيرة على أساس من الوثائق الأصيلة ، لم يثبت سوى استحالة تصوير حياة عيسى فى شىء من اليقين والتثبت . ويجب علينا أن ننظر إلى الكتب التى تدعى سرد سيرته على أنها مؤلفات تستند إلى الكثير من التحكم والنزعات الذاتية . ونستطيع إدراك السبب فى هذا الغموض من تخيل أحاسيس هؤلاء الرجال الذين استمعوا إلى دعوة عيسى وآمنوا بها ، ثم هالهم وأيأسهم تعذيبه وصلبه ، وأعلنوا بعد ذلك بعثه . هؤلاء لم يشعروا البتة بالحاجة إلى تدوين ذكرياتهم أو رسم شعورهم عنه . إنهم لم يفكروا فى أن يكتبوا إلى أجيال قادمة كانوا على يقين من أنها لن تأتى . فالعالم – عالم الظلم والخطايا ولذّات الجسد – كان فى عقيدتهم وشيك النهاية . وكانوا يترقبون بين لحظة

وأخرى بتوقف الحياة البشرية وظهور المسيح المنتصر فى السماء .

ومن ناحية أخرى كان لابد أن ينعكس إيمانهم القوى على ذكرياتهم فيؤثر فى صورها :

كانوا على يقين من أن عيسى الناصرى هو المسيح الذى وُعدت به إسرائيل ، وأنه يجلس إلى جانب الرب فى السماء ، مرتقباً الساعة . ودفعهم هذا اليقين إلى البحث عن معان عميقة لمراحل حياته المتواضعة ، ونجاح دعوته المحدودة ، وطريقة تعذيبه الوضيعة . ودفعهم كذلك إلى أن يستخرجوا التعاليم والتنبؤات من أقل الحوادث والأحاديث شأناً ، وأن يطبقوا على أستاذهم كل نصوص التوراة التى قيل إنها تتعلق برسول يهوه المبارك الموعود ، فيجدوا فى حياته مصداق ما أنبأت به هذه النصوص ، وهكذا كان خيالهم ، بدافع التقوى ، يزين الأحداث ويصبغها فى إطار من التعليقات والإضافات التى يفرضها إيمانهم – بطريقة ما – وكأنها من لوازم سيرة عيسى ، وكأنها حقيقة لا شك فيها ، تبرز وتحدد طبيعته وعمله بوصفه النبى المنتظر . واسترسلوا فى سذاجتهم وبساطة مشاعرهم ، فأصبحوا لا يفرقون بين الخيال والذكريات الحقيقية . ولقد خلطوا بينها فى تلك التعاليم التى نشروها من حولهم . وأصبح أتباعهم لا يستطيعون التمييز – حتى لو أرادوا – بين واقع الأحداث وما أضفاه عليها الإيمان من صور شتى . وكان تحمسهم للعقيدة لا يدع لهم مجالا لمقاومة ما توحى به الرؤى والتهيئوات الفردية (فكل ما يمليه اتصال الواحد منهم اتصالاً خياليًّا مباشراً بالروح القدس يؤخذ قضية مسلمة وفرضاً ضروريًّا على الجميع ، يؤمنون به إيماناً لا يعلو عليه – بل لا يدانيه – إيمانهم بالواقع المباشر الذى يمليه التاريخ) .

فتلك التعاليم مثلا التى قال القديس بولس إن عيسى أوحى بها إليه روحيًا ، كانت تبدو له أكثر ثقة ويقيناً من كل ما كان يحكيه له صاحبا المسيح ، بطرس ويعقوب .

وإذن فمنذ الجيل المسيحى الأول تكونت التقاليد التى أيقن المؤمنون بأنها التاريخ الصحيح لأستاذهم ، تكونت من عناصر متباينة تختلف درجات الحقيقة فيها كثيراً . ولم تظهر بذور الشك فى قرب العودة المأمولة للمسيح إلا عندما انتهى أجل هذا الجيل الأول من المؤمنين ، وبانتهائه لم يعد هناك شهود « مباشرون » لحياة المسيح . ثم رأى الحريصون من المسيحيين أنه قد يكون من المصلحة أن يثبتوا بالتدوين تلك الذكريات التى افترضوا صحتها فى الأخبار المتوارثة شفاهاً .

وغالب الظن أنه قد ألفت فى هذه الفترة كتيبات سجل فيها محرروها ما رأوه جديراً بالعناية من مجموعات حكم منسوبة إلى أستاذهم ، أو حكايات عن مراحل حياته وجدوا فيها عبرة وتمييزاً لشخصيته ، أو وصفاً لـ « آياته » ، أى لتلك المعجزات التى قام بها فى سبيل إقناع الجهلاء . . ولم يعنَ أحد بما نسميه اليوم بـ « التحقيق التاريخى » ، ذلك المنهج الذى يفترض الشك ، والذى يتنافى مع دوافع الإيمان المطلق لدى هؤلاء الكتاب الذين افتقروا كل الافتقار إلى روح النقد ، موجهين الاهتمام ، قدر استطاعتهم ، إلى اثبات صحة الآمال المسيحية وإقناع المترددين ووعظ المؤمنين .

وكانت هذه الكتيبات – وأهمها مجموعة الأحاديث المنسوبة إلى متّى والروايات المنسوبة إلى مرقس – المصادر الأولى لأناجيلنا ، إلا أنها لم تكن لتضم سوى عناصر شتى مشوشة من حياة عيسى كما تصورها المسيحيون عندما أوشك

جيل أصحابه أن ينقرض وقد حاول المحررون المتتابعون لتلك الأناجيل ، خلال الثلث الأخير من القرن الأول المسيحى أن ينسقوا رواياتهم ويدخلوا عليها شيئاً من الانسجام . ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام مادة يصعب مراسها ، فضلا عن شبه استحالة تحقيق الواقع وتخليصه من الإضافات الخيالية التى كانت فى طيات الروايات المتوارثة . ولقد كان من العسير التمييز بين الأحداث التاريخية وبين تلك التى فرض الإيمان وقوعها من أجل أن « تكتمل كلمة الكتاب » أى بين الذكريات الحقيقية الحية وبين وحى الروح . ولم يكن هناك إلى جانب ذلك دافع يدفعهم إلى الجد فى طلب هذا التحقيق وهذا التمييز .

لقد وجدوا أنفسهم أمام مادة يصعب مراسها : فمجموعات الحكم لم تكن تلتزم فى دقة دقيقة بالظروف والأحداث التى أنطقت المسيح بها . واختلف سردها -- الذى لم يقم على أى أساس طبيعى -- من كتيب إلى آخر ، وكذلك كان الأمر فيما يتعلق بالروايات الخاصة بالسيرة نفسها . فهى لا تحكى سوى فصول ومقتطفات من حياة المسيح لارابط بينها ، وتختلف تفاصيلها باختلاف الرواة . فكان على محررى الأناجيل أن يغربلوا ثم يختاروا ، ثم ينسقوا ، سيرة متكاملة من هذه المتناثرات المشوشة .

وتصفح الأناجيل وحده يكفى لإقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى « تركيبات » واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث ، مما يتحتم معه القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ولم يستلهموا تاريخاً ثابتاً يفرض تسلسل حوادثه عليهم ، بل على العكس من ذلك اتبع كل هواه وخطته الخاصة فى تنسيق وترتيب مؤلفه . ولاشك أيضاً فى أنه لم يعتمد أحد منهم على سلسلة كاملة مترابطة من الوقائع تسمح له بأن يضع صورة واضحة لحياة المسيح ، فلم يكن

عملهم إذن سوى أن يربطوا – فى كثير أو قليل من المهارة – بين أطراف من المرويات ، وأن يشكلوا منها سيرة افتقرت إلى الوحدة الحقيقية ، كما أن عناصرها تبدو مجموعة فى إطار مصطنع . وإننا لنلحظ فى ثنايا هذه السيرة الإنجيلية نقصاً كثيراً وفجوات خطيرة نلحظها حتى فى إنجيل مرقس الذى يلغ به الحرص أن تحاشى الحديث عن مولد عيسى وطفولته .

ولكن الإيمان لا يرضيه التجاهل ، بل إنه يتوصل دائماً إلى معرفة ما هو بحاجة إلى معرفته ، وخيال الأتقياء يخدمه دائماً . لذلك نرى الإنجيل الأول ، ثم الإنجيلين الثالث والرابع ، يحاول كل على طريقته أن يسد هذا النقص ويملأ تلك الفجوات ، فيروى لنا – فيما يتعلق بالفترة التى تجاهلها الانجيل الثانى – حوادث قد تختلف وقد تتعارض . ولكنها تتشابه جميعاً فى تعلقها بالمعجزات ورغبتها فى الوعظ والإرشاد ومن الواضح أنه لا يربط أيًّا منها بالواقع التاريخى علاقة تذكر .

ومن المرجح كذلك أن الأحداث الخاصة بالصَّلب كانت قد فقدت الكثير من وضوحها فى ذاكرة المؤمنين قبل تحرير الأناجيل ، وأنها تأثرت فى مخيلتهم بالأساطير المختلفة الشائعة فى الشرق ثم إنها فسرت تفسيرات غُيرت وجُدّدت فى جوانب كثيرة أساسية منها . وكيف – من ناحية أخرى – لا ينسبون إلى إرادة الأستاذ الأول وإلى تعاليمه وسنته كل الأفكار الخصبة التى تمخضت عنها دفعة الإيمان الحى لدى أتباعه وقد اضطروا اضطراراً ، بسبب موته ثم بعثه ، إلى أن ينظروا إلى الماضى والمستقبل من خلال صورة المنقذ المنتظر كيف – مثلا – لا يجعلونه الداعى الأول إلى طقوس التعميد وإلى عقيدة تحول الخبز والخمر المقدسين إلى لحم ودم المسيح ؟ كيف لا يكون هذا بعد أن أصبح التعميد – منذ

جيل الدعاة الأول – خاتماً للإيمان ، وأصبحت عقيدة التحول هى الصلة المباشرة بين الإخوة فى الدين وبينهم وبين المسيح ، حسب تفسيرات القديس بولس ؟

وهكذا لم نعد نستطيع أن نميز فى وضوح الجوانب التاريخية لشخصية عيسى ، ولم نعد نملك المراجع اللازمة لتحديد أحداث حياته فى دقة .

وخلاصة القول فيما يتعلق بشخصيته أنه يمكن التكهن ببعض ملامحها من خلال الروايات الإنجيلية ، أما سيرته فليس لنا سوى الأمل فى التعرف على شيء من مراحلها . والأمر فى كلتا الحالتين لا يختلف عما قلناه فيما يختص بكل ما نسب إلى عيسى من تعاليم : يجدر بنا عند بحثها ألا نؤكد شيئاً منها إلا فى حرص شديد .

بيد أننا نعلم أن عيسى هذا ترك عائلته فى يوم من الأيام وخرج إلى إقليم الجليل مبشراً وواعظاً . فلماذا ؟ . . . هل سلك هذا المسلك لأنه شعر بحاجة نفسه إليه ، ودفعته عاطفة لا تقبل مقاومة . . . عاطفة نشأت بالفطرة بين جوانحه ولا نستطيع لها تفسيراً ؟ . . . لا شك أنه كان للدافع النفسى أثره فى هذا السلوك ، وإن كنا لا نستطيع تصوره إلا على أنه نتيجة عوامل وظروف بيئة معينة . .

ومسألة قيام عيسى بالدعوة تعود بنا إذن –تاريخيًا– إلى تفهم البيئة التى خرج منها .

(ب)

لسنا اليوم على معرفة تامة بتلك البيئة التى نشأ فيها عيسى ، ولكننا خطونا بعض الخطوات فى سبيل معرفتها ، ونلمح لها وجهين مختلفين بل هى تبدو مزدوجة فى تركيبها :

فالمسيح قد ولد يهوديًّا ، ثم نشأ فى بيئة يهودية استعار منها وحدها – حسب ما نعلم – عناصر ثقافته الفكرية والدينية .

بيد أن أمة إسرائيل لم تكن قد وصلت من الانعزال عن العالم الخارجى إلى ما تستطيع به أن تتجنب تماماً تأثيرات الشعوب السريانية والكلدانية التى عاشت بجوارها . كما أنها تأثرت ولا شك بصلاتها المستمرة بالفاتحين الإغريق ، سواء منهم من جاء من ملك البطالسة بمصر ، أو من إمارات السلوقيين بالشام يضاف إلى هذا تأثير وفود الحجيج المتفاوتة العدد إلى القدس -- فى المواسم والأعياد – من أبناء الجالية اليونانية التى هاجرت إلى بلاد اليونان واستقرت بها .

كل ذلك أدّى إلى تشرب بنى إسرائيل بالكثير من الأفكار الخارجية ، خلال القرون الثلاثة السابقة للتاريخ المسيحى .

ومن ناحية أخرى نجد -- حول العالم اليهودى الفلسطينى -- بيئة ثانية مشركة وهذه البيئة إن لم تؤثر مباشرة على عيسى فإنها جذبت إليها أتباعه عقب موته : تلك هى البيئة السورية والفينيقية التى كانت تحد فلسطين فى الشمال والغرب والجنوب الغربى ، والتى لا ترتسم معالمها اليوم بوضوح فى أذهاننا ، وإن كانت آنئذ مصبًّا لروافد كثير من التيارات الفكرية والعقائدية وللخرافات والأساطير

أو آثار ديانات القرون الماضية إلى جانب الديانات المعاصرة . وتلك هى أيضاً بيئة ما بين النهرين فى الشرق ، تتفاعل فيها التيارات الدينية النابعة من الهند وفارس والمنتهية إلى أرض بابل ، الأرض التى تعدّ مصدراً للكثير من الأساطير القديمة ، المنتشرة بين كل الشعوب السامية وللنظريات التى يمتزج فيها علما الفلك وما وراء الطبيعة لتفسير سير الكون والخليقة . ثم كانت هناك البيئة المصرية من ناحية الجنوب ، حيث تطورت العبادات المحلية ونمت ونحت نحو آفاق أوسع وأشمل بتأثير الفكر اليونانى الخصب . وأخيراً نجد البيئة الإغريقية من ناحية الشمال ، فى الإقليم الذى نسميه اليوم بآسيا الصغرى نجدها أكثر تعقيداً واختلاطاً فى الفكر ، ولكنها أيضاً أكثر خصوبة وإثماراً بسبب وضعها كمركز هام للديانات . فإلى جانب العبادات القومية – وكان بعضها ما يزال حيًّا قوى التأثير – وأساطير الديانة الأوليمبية ، وتأملات الفلاسفة اليونانيين وعقائدهم – وقد انتهى بها الأمر إلى التبسيط حتى تكون فى متناول عامة الناس – إلى جانب كل هذا ، نجد فى تلك البيئة مؤثرات من سائر البيئات الأخرى التى ذكرناها ، بما فيها البيئة اليهودية .

كانت هناك إذن مادة دينية ضخمة ، خاملة فى بعض نواحيها ، وإن كانت عناصرها قد بدأت تتداخل وتنتظم فى تركيبات مختلفة ترمى إلى تأليف المذاهب وتبلغ فى ذلك درجات متفاوتة من الإغراب . كانت هناك مادة دينية ضخمة قابلة لأن تتشكل وتتطور فى سهولة حسب رغبات من يريد استغلالها ، فكانت بالتالى مصدراً يكاد لا يفنى لمستقبل المسيحية ولكننا نكرر هنا أن المسيح نفسه – حسب ما تؤكده سائر الدلائل – نشأ وتكون فى بيئة يهودية بحتة . وإنه لمن ضروب التخمين الذى لا يقوم على أساس ملموس أن يقال بتأثير مباشر للبوذية

على عيسى . ولقد انتشرت المسيحية أول ما انتشرت خارج فلسطين ، على أيدى اليهود أنفسهم ، فلنلق نظرة ، بادئ ذى بدء ، على العالم اليهودى ولسوف نتطرق فيما بعد إلى محاولة تحليل الجوانب الدينية للبيئات الأخرى عند حديثنا عن انتشار الدعوة المسيحية فيها .

ومن الجدير بالذكر : أن البيئة اليهودية فى عصر هيرودوس الأكبر (المتوفى عام ٤ قبل الميلاد) كانت غاية فى التعقيد ، ظاهرها وحدة الجنس والعادات والتقاليد والدين ، وباطنها فرقة أصيلة فى صفوف أهل فلسطين الذين انقسموا شعبين يختلفان اختلافاً كبيراً فى الاتجاهات الفكرية والنزعات الدينية .

والعلّة الأولى لهذا الانقسام ترجع إلى عهد بعيد : إنها ترجع إلى العهد الذى رأى فيه ملك بابل أن يُهَجِّر نحو ضفاف الفرات طوائف من اليهود الذين انهزموا أمام جنده . ولكنه فى تنفيذ خطته هذه ، لم يهتم إلا بالعائلات المعروفة التى كان لها قدر من السطوة ، أما أهل الريف وعامة الشعب فقد ظلوا فى ديارهم يمارسون دين إسرائيل القديم ، بتقوى أكيدة وإخلاص لـ « يهوه » ، ولكن مع شىء من التحرر الذى لا يرفض التعامل والاتفاق مع الآلهة المجاورين أو مع المؤمنين بهم . وكان هؤلاء الفلاحون الفلسطينيون البسطاء يؤمنون بأن اليهودية دين رجال ، فلا يتهربون من الزيجات المختلطة التى تجلب إلى عروق الشعب المختار دماء جديدة من بنات الشعوب الأخرى . أما أهل المهجر – إذا استثنينا منهم تلك الفئة التى دفعها اليأس إلى عبادة أصنام المنتصرين – فقد تطوروا فى سرعة سريعة : وجدوا أنفسهم مضطرين اضطراراً إلى إعمال الفكر فى صلتهم بـ « يهوه » ، وفى العهد القائم بينه وبين شعبه ، وفى أسباب محنتهم . ثم راحوا يتخيلون لأنفسهم سبيلا إلى مستقبل أفضل ووسيلة للخلاص من مثل تلك

الكوارث التى حلت بهم . واعتقدوا أن المحن التى مرت بها إسرائيل كان سببها عدم الوفاء بالعهد ، وأن الطريق إلى إرضاء الإله هو الخضوع فى عبادته لحرفية النصوص والتمسك بالشعائر المفروضة فى غير ما لين أو تحرر ، أى فى الواقع : اتباع شعائر غاية فى الدقة والحرص ، تمنع تسرب أدنى نزعة إلى الوثنية . ويعود الفضل فى تثبيت هذه الشعائر ، وفى تدعيم الاتجاه نحو شرع محدد -- وقد قنن فى صورة سايرت الرغبات الجديدة -- إلى أنبياء المهجر ، وعلى الأخص منهم إزكيال . فلما سمح قورش للمنفيين بالعودة إلى أوطانهم (عام ٥٣٨) ، لم يغتنم الجميع تلك الفرصة ولكن العائدين منهم إلى فلسطين جلبوا معهم الشرع الجديد والروح الجديدة ثم إنهم فضلا عن ذلك ، ظلوا على اتصال وثيق بإخوانهم الذين استقروا بمملكة بابل ، والذين أيدوهم بأموالهم ودعاياتهم ونفوذهم فى بلاط ملك الفرس ، حتى يفرضوا أنفسهم على أهل فلسطين ممن لم يعرفوا المنفى . وكان الرجال الذين أصلحوا المعبد والعبادات -- وعلى الأخص منهم إسدراس ونحيميا -- من اليهود الوافدين من مملكة بابل ، وكانوا يرفضون رفضاً قاطعاً الزيجات المختلطة ، ولا يقبلون أى تنازل تجاه الديانات الخارجية . وكانوا «كتبة» أى رجالا تخصصوا فى دراسة الشرع وتفسيره ، فراحوا ينشئون إلى جانبه مجموعة وافية من الشروح الشرعية للإفتاء فى المسائل الدينية التى لم يكن لها بدّ من التكاثر بعد أن فرضت الطهارة المطلقة شرطاً أساسيًّا للتقوى .

وإذن ففى الفترة التى تمتد من عودة يهود المهجر حتى مولد عيسى ، نرى أولا طبقة كبيرة من رجال الدين -- طبقة إكليروس -- تنشأ من جديد حول المعبد الأعظم ، وتعمل على انتظام العبادة فيه ، ولكنها لا تختص بدراسة أو تعليم الشرع ، بل تتجه بطبيعتها إلى الطقوس والنصوص فحسب ؛ ثم نرى ثانياً نمو

طبقة أخرى هى طبقة « الكتبة » ، أى فقهاء الشرع ، يتنافس أعضاؤها على تحليل أوجه الكتاب المقدس المختلفة ، يكثرون عليها بالشروح والتعليقات وينتهون فى كثير من الأحيان - برغم تقواهم الشخصية المخلصة العميقة - إلى إغراق إيمان الروح الحرة الفطرية تحت ركام المسائل الشكلية ، فيجادل بعضهم مثلا فيما إذا كانت البيضة التى تضعها الدجاجة فى يوم سبت تعدّ بيضة طاهرة أو فيما إذا كان الماء الذى يسكب فى إناء مدنس يعتبر مدنساً حتى منبعه . .

ولا نشك فى أن بعض هؤلاء الفقهاء تأثروا - دون أن يشعروا - بالنظريات اليونانية فى الإله والكون والإنسان فراحوا يتسامون ويبالغون فى التصوير القديم لـ « يهوه » ، ويوسعون من مفهومــه بحيث أصبح هو : الإله بالذات ، الإله الذى لا يحدّ والذى لا يكاد الإنسان يجد له اسماً ، كما نزعوا إلى تبنى مذهب كونى ومذهب إنسانى يتميزان بالثنائية ، حيث تتعارض فيهما الروح والمادة ، أو النفس والجسد ومن هنا بدأت الديانة القومية لبنى إسرائيل تتخذ صبغة عالمية وإنسانية ، على عكس ما خطه لها التشدّد الدينى فيما سبق من اتجاهات . وإن هذه الصبغة لتظهر سريعاً وفى عمق بين الجاليات اليهودية بالمهجر - وسوف نعود إلى الحديث عن ذلك - ولكنها فى أول عهد المسيحية ، كانت أيضاً قد انتشرت وأثمرت فى فلسطين منذ سنوات كثيرة .

كان الشعب إذن يطيع رجال الدين ، لأنهم مرشدوه القوميون : فالحبر الأكبر هو وحده المنوط به تمثيل إسرائيل أمام الأسياد من فرس أو إغريق ، وأصبحت فلسطين بذلك دولة يستمد حكامها ولايتهم من الله ، وظلت على ذلك فى عهد المكابيين الذى ظن فيه اليهود أنهم حققوا استقلالهم . ففى ذلك العهد كان الحاكم ملكاً وقسًّا أكبر فى آن واحد .

ومن ناحية أخرى نرى هذا الشعب يبدى إعجابا بالكتبة ، هؤلاء العلماء المدققين .

والواقع أن الطقوس التى كان يتمسك بها رجال الدين فى غير ما اقتناع ، والعلم المتصنع المترفع لدى الكتبة ، لم يؤثر أى منهما تأثيراً ذا شأن فى روح الشعب ، ولم يروظمأه إلى التقوى ، بل نرى هذا الشعب يسير بالتدريج فى السبل التى يخطها له التشدّد الدينى ، فيقاوم المؤثرات الخارجية قدر ما يستطيع وقد يبدى غضبه لميل القادة بشكل ملحوظ إلى الأخذ بأطراف التيارات الثقافية اليونانية . إلا أنه باق على حبه لـ « يهوه » قلباً وروحاً ، يصلى له فى أيام الشدة بحرارة تنبع من تقوى العهود القديمة ، لا تحدها الأشكال الجديدة للعبادات ، أى أن دينه – بعبارة أخرى – كان يحيا وينمو ، بل إنه كان يرتبط بعقائد غير يهودية الأصل أتت إليه من الشرق ، مثل تلك المتعلقة بدور الملائكة والشياطين ، أو بالحياة الأخرى ويوم القيامة ، وفى الوقت نفسه كان يستقى من المحن التى مر بها اليهود فى هذا العصر – فقد عانوا كثيراً من ظلم المصريين والسوريين والرومان ، ومن ظلم أنفسهم ، خلال القرون الأربع التى سبقت مولد عيسى – كان يستقى من هذه المحن تأييداً لأمل قديم : أنه يترقب ويأمل بكل جوارحه مجىء المسيح الموعود الذى سوف تسترجع به أمة إسرائيل ما عرفته من مجد أيام داود ، بل أكثر منه .

وانتهى الكتبة أنفسهم إلى تقبل هذه الاتجاهات فى العقيدة الشعبية وإلى شرحها والتعليق عليها ، وبالتالى إلى اعتمادها وتأمينها . وكلما أتت الأحداث بما يخالف الأمل المنشود ، وازداد عنف الطغيان الأجنبى ، كلما قوى هذا الأمل فى صدور السذج والبسطاء واحتلّ مكاناً أكبر من عقيدتهم الدينية .

ويجب ألاّ يغيب عن بالنا أن اليهود - مثلهم مثل غيرهم من شعوب العالم فى هذا العصر - لم يكونوا على علم بشىء مما نسميه اليوم بـ « القوانين الطبيعية » ، أى الترابط المحدد اللازم بين العلة والمعلول . وكانوا يؤمنون بأن الإله قادر على كل شيء فلا يفرقون بين الظواهر الطبيعية وبين المعجزات ، بل كانوا حقًا يعيشون حياتهم كلها فى إطار من المعجزات فكل ما يثير لديهم الدهشة والحيرة لا يفسرونه إلا بالتدخل المباشر للإله أو للشيطان . لذلك اقتنعوا فى يسر بأن تلك الثورة الكبرى التى يأملونها لابد لها من أن تقوم متى شاءها « يهوه » فظلوا يترقبون بوادرها فى قلق يزداد عاماً بعد عام وكانوا ينتظرون منها إصلاح أمرهم واستعادة مجدهم والانتقام لمذلتهم .

وإن هذا الأمل كان من شأنه - على نقيض ذلك - أن يدفعهم إلى مغامرات جرت عليهم أقسى البلاء والكوارث . فقد شرعوا فى هذه المغامرات فى عنف : مؤمنين بقرب اليوم المشرق الموعود وبأن إله السماوات لابد أن يكون لهم ناصراً إن بادروا بنصرته . والعلة الأولى للحروب العنيفة التى قامت فى القرنين الأول والثانى المسيحيين . والتى قضت على العدد العديد من اليهود وختمت مأساة أمتهم تلك العلة هى اقتناعهم بأن العالم الدنيوى على وشك الفناء ، وبأن العهد الذى قطعه رسل « يهوه » على أنفسهم فى قديم الأزمان سوف يوفى به عاجلا .

وفى إقليم الجليل - وهو الجزء الشمالى من فلسطين حيث ولد عيسى - لم تشارك غالبية الشعب من السذج البسطاء فى حياة اليهود الجديدة إلا إبان عهد المكابيين ولم تختلط كثيراً بالطبقات العليا من الكهان . أما « الكتبة » ، فلم يخل منهم الإقليم تماماً ، إلا أنهم لم يبلغوا فيه من الانتشار ما بلغوه فى القدس أو فى

الأقاليم الوسطى من فلسطين وكذلك لم يصلوا فيه إلى تلك المرتبة الرفيعة من الشهرة والنفوذ التى كان يعتدّ بها غيرهم من أساتذة المدارس اليهودية . وكان المثل الشائع يقول : إن أهل الجليل يتميزون بالعناد وصلابة الرأى . ولعل مرجع ذلك أن جبالهم كانت فى أول عهد الاستعمار اليونانى ملجأ لعصابات من الثوار القوميين ذوى البأس الشديد والمثابرة فى مقاومتهم الرومان . وكان الناس يسخرون أيضاً من لهجتهم الريفية فى الحديث ، إلا أنهم كانوا قد احتفظوا ، فيما يبدو ، بنوع من التقوى التلقائية المتحمسة فى عمق عميق يدل على قوة الحيوية الدينية ، ولا تقيده دقة المراسيم والطقوس التى اختص بها الفريسيون فى ريائهم الدينى .

إذن ، فقد ولد عيسى ونشأ فى بلد يهتم معظم الناس فيه بالمسائل الدينية أولا . وخرج من بيئة شعبية يعين أفرادها على الأمل الساذج ترقبهم القلق لتلك **المعجزة الباهرة التى سوف يثاب بها اليهود على تقواهم ، والتى سوف تجعلهم ملوكاً** فى الأرض ولكن هذا الشعب لا يجد لدى حكامه من القساوسة مشاركة فى أمله ، بل يجدهم على حذر من المشاكل التى قد تترتب عليه فيما يتعلق بصلاتهم بالمستعمر الأجنبى ؛ بل نستطيع القول بأن إطارات العلماء التى كانت تسوس الشعب لم ترحب كثيراً بأى حركة نابعة من أعماق الجماهير وقد أكد أحد هؤلاء العلماء أن : « لا تقوى لدى الجهلاء » .

(حـ)

فإذا وجد فى هذه البيئة إنسان يتصف بالتقوى العميقة المخلصة مع بساطة التفكير ، ولم تؤثر على حيوية روحه نظريات الكتبة ، بل نشأ متشبعاً بالقضايا

التى تشغل أهله ، والتى تطبع حياته الفكرية والدينية والخلقية بطابعها الخاص - إذا وجد هذا الإنسان ثم إذا أعطى القدرة الخارقة على أن يركز فى نفسه كل شتات الأفكار السارية فى الهواء الذى يتنسمه ، على أن يعيد تشكيلها من جديد فى تأملاته (كدأب الملهمين) فلا غرابة فى أن نراه يقوم بترجمة عقيدته من عالم الفكر إلى دنيا العمل[1] . ولم يكن للأنبياء من إقليم الجليل فى ذلك العصر سوى التبشير فى أساليب تتفاوت أصالة وابتكاراً - بقرب تحقيق الآمال . ويبدو ، فى الواقع أن هذا الوضع كان مبدأ لقيام عيسى بالدعوة .

وإننا لنفتقر إلى الوثائق التى تسمح بالنفاذ فى تفصيل ظروف تكوينه الفكرى ، وفى حقيقة الأسباب التى دفعته إلى هذا الاتجاه . ولكننا لا نؤمن فى كلا المجالين بجدوى البحث عن علل وشروح بالغة التعقيد .

إن سائر أناجيلنا تشير إلى رابطة معينة بين بدء حياته العامة ، وبين دعوة نبى آخر كان يحثّ على التوبة ، ويقول بقرب اليوم الموعود ، والأناجيل تؤكد هذه الرابطة صراحة ، وإن لم تفصلها فى وضوح . والنبى المذكور هو يوحنا المعمدان . ولربما عرفه عيسى ، واتصل به ، وامتثل قدوته عندما تملكت أقطار نفسه تلك الحماسة القاهرة التى سرت فى أعماقه حتى سيطرت على إرادته ، واندفع يبشر بدعوته لما جاء النبأ بأن هيرودوس أمر بسجن يوحنا ، وذلك حتى لا يخلو ملكوت الله من نبى .

وخلاصة القول أن عيسى بدعوته إنما كان يجدد تلك السلسلة من أنبياء بنى إسرائيل التى انقطعت بعد العودة من المنفى والتى حاول أن يصل حلقاتها - من

---

(١) هذا ما يقوله المؤلف المسيحى ، أما نحن المسلمين فإننا نؤمن بأن عيسى عليه السلام : عبد الله ورسوله .

قبله – أنبياء آخرون منهم المعمدان . فقيامه بالدعوى – مهما بدا اول الأمر أصيلا مبتكراً – ليس فى الواقع ظاهرة استثنائية أو غريبة من ناحية الشكل .

وهو يحل لنا الشك فى أمر معرفته منذ البداية للهدف الذى سعى إليه بالتحديد ، وتقديره لما مثله من دعوة . لقد كان يختلف عن المعمدان فى أسلوب التبشير ، إذ تخلى تماماً عن حياة الزهد وعنف الخطابة ، ولكنه لم يخرج عن المبادئ الأساسية التى كان يفسرها يوحنا :

« مملكة الله وشيكة ترقبوا الانقلاب العظيم الذى سوف يطهر العالم من الظلم والشر ، توبوا إن أردتم أن تحتلوا مكاناً بين صفوف المختارين » .

فما الدافع إلى دعوته هذه ؟ ألأنه أحس بقوة خفية تدفعه إليها ؟ ألأنه أحس بالرب فى أعماق صدره ، كما أحس به سائر الأنبياء اليهود من قبل ؟ وما معنى كلامه ؟ ثم كيف كان يتصور مملكة الله وساعتها ؟ إننا لسنا على علم بشىء من ذلك ، فالنصوص التى نستطيع الاعتماد عليها تعود كلها إلى عصر تغيرت خلاله فى أذهان المسيحيين ملامح مملكة الله ، بعد أن تأخرت عنهم ساعتها . غالب الأمر أنه كان يتصور تلك المملكة على النمط الذى تحدث الناس به من حوله[1] : مثال ذلك حلول عهد الفرج المادى بالنسبة إلى إسرائيل والإشراق المبين لبركة « يهوه » فى صورة لم يحددها خيال العامة قط تحديداً واضحاً . ولعل عيسى كذلك لم يتبين تلك الصورة ملموسة الملامح وما يدرينا . . لعله بدأ دعوته بالإشارة إلى عنف يوم البعث ، وإلى تلك الحرب الهائلة التى لم يكن الرأى الشائع يشك فى أنها سوف تطحن الأرض عند مجىء المسيح المرتقب .

---

(١) نعود فنقول : إننا كمسلمين نؤمن بأن عيسى عليه السلام إنما كانّ يتلقى الوحى من الله سبحانه الذى اختاره للنبوة والرسالة .

وأناجيلنا تحمل بعض آثار هذه العقيدة وإن كانت أغلب الدلائل عليها قد انمحت أوكادت – ولا عجب – من مثل تلك النصوص التي أريد بها أولا إثبات أن المنقذ المنتظر هو نفسه عيسى . . مثال الحلم والسلام . .

وهل ظنّ عيسى أنه هو نفسه المسيح المنتظر؟ لقد شك الناس فى ذلك وما زالوا يشكون ، مستندين إلى أدلة قوية : فهو لم يصف نفسه قط بأنه المسيح (وهى كلمة تعادل كلمة «كريستوس اليونانية ») . والبحث الدقيق فى أصل النصوص الإنجيلية التى تظهر فيها هذه الكلمة يؤكد أنها لا تنتمى بصلة إلى المنبعين الأساسيين للأناجيل وهما : مجموعة الحكم المسماة بـ « اللوجيا » ، ثم إنجيل مرقس . وأكثر النصوص صراحة فى نسبة صفة المسيح إلى عيسى هى أقلها صموداً أمام النقد . ونضرب على ذلك مثلا بالتصريح المعروف الذى يُروى أنه أدلى به أمام الكاهن قيافا (مرقس : ٦١/١٤) ، وهو نص لا يعتمد على سند ما ، ويغلب على الظن أنه لا يتجاوب مع واقع التاريخ .

بيد أن العصر الذى تم فيه تدوين الأناجيل على صورتها التى وصلت بها إلينا ، هذا العصر قد فرض على العقيدة الخاصة ببعث عيسى – تلك التى أصبحت الأساس الأول للمسيحية – أن تبرز للناس فى إطار قوى ، مدعمة بأحاديث عيسى نفسه ، ولكن الفقهاء ما زالوا يميزون فى مدارج اليقين التاريخى بين «كلمة الإنجيل » ، وبين «كلمة عيسى » .

والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين ، هى : أن عيسى لم يدَّع قط أنه هو المسيح المنتظر ، (ولم يقل عن نفسه إنه « ابن الله » ، وذلك تعبير لم يكن فى الواقع يمثل – بالنسبة إلى اليهود – سوى خطأ لغوى فاحش ، وضرب من ضروب السفه فى الدين . كذلك لا يسمح لنا أى نص من نصوص الأناجيل بإطلاق

تعبير « ابن الله » على عيسى ، فتلك لغة لم يبدأ فى استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، إنها اللغة التى استخدمها القديس بولس كما استخدمها مؤلف الإنجيل الرابع ، وقد وجدا فيها معانى عميقة وعلى قدر كاف من الوضوح بالنسبة إليها[1] .

ولو أراد أن يتخذ لقباً لا تخذ لقب « ابن داود » المعروف بين بنى إسرائيل ، والذى كانوا يعتبرونه لقب المنقذ المنتظر ولكنه لم يفعل . وهو لم يتخذ كذلك اللقب الذى يبدو أن أناجيلنا ترى فيه أخص خصائص شخصيته ورسالته ألا وهو : « ابن الإنسان » . أو على الأقل لم يستخدمه فى معنى « المنقذ المنتظر » ، فاليهود فى هذا العصر كانوا يجهلون هذا المعنى لتعبير « ابن الانسان » ، وإن كان النص المشهور من كتاب دانيال يقول (١٣/٧ - ١٤) :

«كنت أتأمل فى رؤى الليل فإذا بى أرى ، قادمة على سحب السماء ، صورة كصورة ابن الانسان » .

لم يكن هذا النص قد استخدمه كهنة اليهود بعد فى تصوير مجىء المسيح المنتظر ، ولم يدخل معابدهم بهذا المعنى إلا فى عصر متأخر تحت تأثير المسيحية التى أذاعته .

ولقد اختلط الأمر فى فترة من الفترات على بعض المؤمنين الذين لم يكونوا

---

(١) يمكن أن يعتبر اليهودى نفسه « عبداً ليهوه » ، لا « ابناً ليهوه » . ونعتقد أنه من المحتمل أن يكون عيسى قد تصور نفسه « عبد الله » ، وتقدم للناس بهذه الصفة . والكلمة العبرية « عبد » كثيراً ما تترجم إلى اليونانية بكلمة تعنى « خادماً » و « طفلا » على حد سواء . وتطور كلمة « طفل » إلى كلمة « ابن » ليس بالأمر العسير . ولكن مفهوم « ابن الله » نبع من العالم الفكرى اليونانى .

(المؤلف)

على معرفة كبيرة باللغة الآرامية ، إذ إن تعبير « ابن الانسان » فى هذه اللغة يعنى فقط : « إنساناً » أو « رجلاً » ، فتهيأ لهؤلاء المؤمنين أن هذا التعبير الذى يلقونه أيضاً فى مجموعة الحكم المعروفة بـ « اللوجيا » لابد أن يحتوى على سر عميق . وقد ربطوا بينه وبين النص المماثل من كتاب دانيال – وهو النص الذى لم يفهموه أيضاً – فقرروا : أن « ابن الإنسان » مرادف مسيحى خاص لكلمة : « مسيح » . وتحليل النصوص يؤكد خطأ الذين ذهبوا هذا المذهب فى تأويل التعبير المذكور ، بل أن أغلب الفقرات التى يظهر فيها من الأناجيل يبدو أنها صدرت عن محررى هذه الأناجيل ، لا عن عيسى .

أما تلك التى يرجح أنها مبنية على حديث صحيح له . فلا تعدو الأربع أو الخمس [1] ، ولا يمكن أن نصفها بأقل من أنها خاطئة أساساً فى ترجمتها للنص الأصلى ، ويجب إبدال تعبير « ابن الإنسان » فيها بكلمة « إنسان » مثال ذلك الفقرتين التاليتين :

« ابن آوى يلجأ إلى جحره . . الإنسان لا يجد موضعاً يريح فيه رأسه » .

« وإذا ذكر أحدٌ الإنسان بسوء ، فسوف يغفر له . أما من تحدث بسوء عن الروح القدس فلن يغفر له فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة » .

فمن المؤكد إذن أن الروايات الأصيلة لم تجهر صراحة بأن عيسى قد أعلن نفسه مسيحاً . وإننا لنجد نفس الشك تجاه ما يسمى بـ « سر البعث » ، أى تلك الوصية التى يروى إنجيل مرقس أن عيسى أوصى بها تلاميذه فى مناسبات

---

(١) وهى : متى ٨ / ٢٠ (لوقا ٩ / ٥٠) ، و ١١ – ١٩ (لوقا ٧ – ٣٤) ، و ١٢ – ٣٢ (لوقا ١٢ – ١٠) ، و ٩ – ٦ (لوقا ٥ – ٣٤ ومرقس ٢ / ١٠) و ١٢ / ٨ (لوقا ٦ – ٣ ومرقس ٢ – ٢٨) .

مختلفة مع كثير من التشدد والإلحاح : بألا يفشوا شيئا مما قد يتخيلونه أو يكشف لهم عنه من حقيقة مكانته . فما هو الهدف الذى كان يبغيه من إخفاء حقيقة شخصيته والتكتم على رسالته ، فى الوقت الذى كانت فيه دعوته بحاجة ملحة إلى إعلان سرهما لتحقيق مغزاها ؟

ومن ناحية أخرى فإن المؤرخ يواجه مشكلة شائكة إذا ما أراد إثبات أن فلاحاً من إقليم الجليل قد طور المثل الأعلى للبطل الذى تعلقت به آمال الشعب حتى أصبح الرسول الإلهى المرتقب يُصور على شاكلة الشهيد المتواضع المستسلم ، بعد أن كان فى خيال الناس ملكاً جباراً منتصراً . وحاول بعض الفقهاء أن يتغلبوا على هذه العقبات وهذا التعارض ، فتقدموا باعتبارات مختلفة ترمى إلى إثبات القول بأن عيسى ، وإن لم يعلن عن نفسه أنه هو المسيح المنتظر ، قد ظن ذلك وآمن به ، ولم ينه تلاميذه عن ظنه والإيمان به ، وصُلب لأن بيلاطس ظن ذلك أيضاً . ولم ينهه عيسى عن ظنه ، ولو لم يؤمن الجميع بالأمر لما قُدِّر للحواريين أن يقتنعوا ببعث المصلوب من بين الأموات .

وما زال من الطبيعى أن نعجب من عدم توضيح عيسى لهذه المسألة الأساسية . ومازال فى الإمكان أن ننظر إلى التصريحات الغامضة أو الإشارات التى تنسبها إليه النصوص ، على أنها من صنع المحررين ، لا تعترف بها الروايات الأصلية ، كما يمكننا القول بأن الحاكم الرومانى لم يحتج إلى تصريح عيسى بأنه المسيح المرتقب حتى يسعى إلى التخلص من رجل فوضوى يبشر بقرب حلول مملكة الله ، أى بقرب نهاية السيطرة الرومانية .

وأخيراً لعلنا لا نغرق فى الظن إن قلنا : إن حب الحواريين لأستاذهم وثقتهم به كانا كفيلين بإحداث التهيؤات التى أدت إلى غرس الإيمان الأكيد ببعثه فى

نفوسهم . وقد جاء الاعتقاد بأنه أصبح « مسيحاً بإرادة الله » (على حد التعبير المنسوب إلى القديس بطرس فى « أعمال الرسل » ٣٦/٢) لتفسير معجزة بعثه .

فهناك إذن فى الواقع ، حجج لها قدر كبير من المنطق والقوة ، تدفع إلى الاعتقاد بأن عيسى قد اعتبر نفسه رسولا تحثه روح « يهوه » على إعلان قرب تحقيق الأمل الأكبر وضرورة التمهيد له ، وبأنه قد سلك مسلكا يتمشى مع هذا الإيمان . ولكنه حتى فى تلك الحالة قد نتساءل : هل كان عيسى قد آمن بأن مكانة مختارة سوف تخصص له فى « مملكة المستقبل » مكانة لابد لها من أن تلتقى وتتشابه مع مكانة المسيح نفسه ؟ وأجاب الكثير من فطاحل الفقهاء -- أمثال لوازى - بالإيجاب عن هذا السؤال . . ومن العسير أن نأتى بالبراهين الأكيدة لهدم رأيهم ، ولكنه من العسير على حد سواء أن نسايرهم فى هذا الرأى دون تحفظ .

فالوصول إلى اليقين فى مثل هذه الحال أمر بعيد المنال .

الفصل الثانى

إخفاق عيسى

(ا) تأكد هذا الإخفاق – أسبابه : عيسى لا يتحدث إلى الشعب ولا إلى العلماء والقساوسة حديثاً مقنعاً – الرحلة إلى القدس وموت عيسى – هل تنبأ بهذه الميتة ؟

(ب) تشتت الحواريين – كيف أحيا من قواهم الإيمان ببعث عيسى ؟ – المصادر التى نبع منها الإيمان ببعث عيسى – أثر هذا الإيمان فى تكوين التفكير المسيحى الأول ونشأة المسيحية .

(حـ) إعادة تنظيم إيمان الأتباع – فكرة العودة القريبة للمسيح عيسى – ضعف حظ عقيدة الحواريين من النجاح – سبب استمرار هذه العقيدة : نقلها إلى التربة الفكرية اليونانية .

(١)

هكذا لا تقدم إلينا النصوص الخبر اليقين فيما يتعلق بتفكير عيسى الخاص بمبادئ رسالته وبصفات شخصيته ، وبمدى دوره الذى لعبه ، إلا أننا لابد أن نقرّ واقعاً واضحاً للعيان ، هو : أنه لم ينجح فى دعوته ، وأن مواطنيه من أهل فلسطين لم يصدقوا بالرسالة التى نسبها إلى نفسه ، ولم يسيروا على نهج الأخلاق التى أراد أن يوحى بها إليهم . . لقد راقبوا مروره بينهم خلال الفترة الوجيزة التى أتيح له أن يظهر فيها[١] ، راقبوه فى شيء من الفضول أو من اللامبالاة ، ولكنهم لم يتبعوه . ولعله – وهذا أكثر ما يمكن أن يقدر له من نصيب فى النجاح – قد جذب إلى دعوته بضع مئات من أهل الجليل السذج ، فالأناجيل عندما تصف لنا جماهير الشعب وهى تقتفى خطاه فى تلهف ، وتنصت إلى أحاديثه فى إعجاب بالغ هذه الأناجيل لا تنسينا ما ترسمه صفحاتها الأخرى – فى صورة لا شك أنها أقرب إلى الحقيقة – من قسوة قلوب اليهود وتعنتهم الشديد . والواقع أن عيسى نفسه قد يئس ، فيما يبدو ، من محاولة إقناعهم . وأسباب إخفاقه واضحة للعيان .

فهو لم يتحدث إلى الشعب باللغة التى كان ينتظرها منه : كان يدعو إلى

(١) يجب ألا نعتمد فى حسابنا لحياة عيسى كثيراً على التقديرات التى يوحى بها الإنجيل الرابع ، والتى بمقتضاها تكون حياته العامة قد امتدت ثلاث سنوات . إن فترة الدعوة فى حياة عيسى اقتصرت بالتأكيد على بضعة أشهر أو حتى على بضعة أسابيع . والتقديرات الدقيقة غير متوافرة .

(المؤلف)

التأمل فى النفس وحب الغير، وإلى التواضع والإيمان العميق بالله، فى حين كان الناس يترقبون دعوة إلى الصراع المسلح وإعلانا للجهاد الأكبر والأخير قبل الانتصار الخالد. إنه لم يقل لهم: « قوموا ! . . فالمسيح الذى اختاره « يهوه » معكم بل قال: « مهدوا – بالتوبة – ليوم الحساب القريب ». لم يطلب منهم العمل والكفاح، بل رجاهم الصبر، واتخاذ موقف أخلاقى ودينى من شأنه أن يحول هذا الصبر إلى نوع من الفروض الحتمية، فيه ما فيه من القسوة على النفس. كان من أبناء إسرائيل، ولكنه لم يتعصب لقومه، ولم يتخذهم وحدهم فى غالب الأمر موضوعاً لدعوته: فقد كان يستوى فى نظره الجندى الرومانى التقى المؤمن، أو المرأة الكنعانية المخلصة، واليهودى الأصيل الذى يأتى إليه معلناً تصديقه له، بل إن الكافر الذى يتحول قلبه إلى الإيمان كان يفضل بكثير فى نظره من لم يصدق من اليهود.

كان عيسى يتحدث كثيراً عن العدل، وعن السلام، وعن شوق النفس إلى الوصول إلى سماء الأب، كما كان يتحدث عن التوكل والصبر . . . ولم يصرح قط بوجوب الثورة، أو بقرب انتصار شعب الله المختار على سائر الأمم، وفى ذلك كله نجد نحن أصالته وجاذبيته الكبرى، إلا أن حديثه لم يكن ليثير صدى أهل فلسطين المتلهفين إلى يوم الانتصار الموعود.

أما علماء الدين فقد رأوا فيه رجلا جاهلا يتطاول عليهم، ويعتقد فى سذاجته أن الحكمة يمكن أن تحل محل العلم، وأن البصيرة يمكن أن تغنى عن المنطق. وكان يتحدث إليهم فى ثقة وقوة، لأنه كان يشعر بتأييد من الله فى نفسه. ولم يكن ليعجبه منطقهم، ولم يكن توثب عاطفته الدينية الفطرية إلا ليتصادم مع تفكيرهم المتشبث بالتدقيق إلى أقصى الحدود فى الأمور الدينية

فكان من الطبيعى أن تنشأ العداوة بين الطرفين .

وعلينا أن لا ننسى ظروف العصر الذى كتبت فيه الأناجيل وما تعكسه من عدم اهتمام المسيحيين بالشريعة اليهودية ، مما جعلهم ينسبون إلى عيسى ذلك الاحتقار الذى كانوا يشعرون به تجاهها . إلا أننا إذا حللنا النصوص العديدة التى يعارض فيها المسيح علماء فلسطين ، وتلك التى تصف كيف كانوا يحاولون استدراجه بالأسئلة الماكرة ، لا نجد بدًّا من الاعتقاد بأن نزاعاً خفيًّا مستمرًّا كان يسود علاقته بهم . وعلى أى حال فقد كان يحترم الشرع ويبدى تمسكاً به ، ولكنه لم يجعل منه همه الأول ، بل أظهر استعداداً لأن يعطى إلهام التقوى المكانة الأولى قبل تعليمات رجال الدين .

أما قساوسة القدس والطبقة الممتازة من اليهود ، فقد كانوا يعدّونه أكثر الفوضويين خطورة وأضرهم بمصالحهم : كان فى نظرهم خطراً عليهم ، لأن دعوته من شأنها أن تثير فى نهاية الأمر ، بين جموع الشعب ، حركة من تلك الحركات العنيفة الحمقاء التى يتشدد الرومان دائماً فى قمعها ، والتى تقلق فتنتها من راحة بال أهل المعبد . وكان خطراً عليهم أيضاً لأنه يحدث الطبقات الدنيا من الناس ، فى غير ما تحفظ بقصص ومقارنات لا يمكن أن يؤدى مغزاها إلا إلى إظهار عيوب طبقة رجال الدين وإضعاف مركزهم .

وأما الشعب فكان شعوره بالتردّد تجاه دعوة « النبى » أقوى من ميله إلى مقاومتها . لقد أذيع أن عيسى أكثر فى ربوع فلسطين من « الإشارات » ، أى المعجزات ، بشفائه المرضى والعجزة ، ولعل الناس بدءوا ينسبون إليه إحياء بعض الموتى – تلك المعجزة التى كانت تعتبر أسهل المعجزات فى ذاك الوقت وفى هاتيك البلاد . وراح أعداؤه ينشرون أن كل تلك الأعمال الخارقة مرجعها

الشيطان . ولكن البسطاء لم يصدقوا ادعاءهم ، وظلوا على حيرتهم ، إذ أن عيسى – وإن لم تثر دعوته حماستهم – ظل محل عطفهم . أما العلماء والقساوسة فقد كرهوه منذ عرفوه ، وكانت غلطة كبرى منه أن وضع نفسه بين أيديهم فيما بعد .

والأسباب التي دعت به إلى الرحيل إلى القدس غير واضحة . والأرجح أن الدافع له لم يكن فقط الاحتفال بعيد الفصح فى المدينة المقدسة .

لقد حرر مؤلفو أناجيلنا نصوصهم فى عصور أصبح فيها « سر » حياة عيسى يتلخص فى فترة واحدة هى فترة موته ، تلك الميتة التى ارتضاها ثمناً لإحياء وتخليص البشرية . وافترض هؤلاء المؤلفون أنه شرح منذ البداية ضرورة تعذيبه وصلبه ، لذلك لم يترددوا فى القول بأن عيسى أتى القدس لإتمام رسالته الإلهية على الصليب الذى ينتظره فيها .

أما المؤرخ فإنه لا يجد مناصاً من الوقوف أمام الغموض والإبهام اللذين يلحظهما فى التسلسل الواقعى لنفسية عيسى ولأغراضه الحقيقية من هذه الرحلة . هل أحس إحساسا مباشراً بإخفاقه ؟ إن الوقائع الصريحة تدعونا إلى الإيمان بذلك . والحق يقال إنه ليس من السهل علينا تصور إمكانية نجاحه فى ما كان يسعى إليه : فدعوته الأخلاقية لم تكن لتحمل مغزاها وتؤتى ثمارها إلا فى حالة تدعيمها ببعض الإشارات المنبئة بقرب ذلك اليوم العظيم الذى يعد به . ولم تكن هذه الدعوة لتجد سندها الطبيعى إلا فى تحقّق كلمته .

ولكن الإشارات لم تظهر ، ولم تتحقق كلمة النبى . فاضطر المؤمنون به إلى القول بأن الأتباع الأول لم يفهموا حديثه كل الفهم ، وأنه هو قد أبهم لهم الحديث وجعله رموزاً . ولو اعتمدنا على وصف دخوله مدينة القدس دخول

المنتصر بين هتافات الجماهير لظننا أنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بوصوله إلى الحق وبدعوته إليه ، وأنه أيقن أن هذا الحق لن ينجلى عنه النقاب إلا فى القدس حيث يقوم اليوم الموعود بجلاله ورهبته . غير أننا ، من جانبنا ، نشك كثيراً فى صحة هذا الوصف .

ومهما يكن الأمر من أغراض أو آمال عيسى ، فقد أخطأه التوفيق فى الانتقال إلى هذا المجتمع الذى لم يكن بمجتمعه والذى كان يسيطر عليه أعداؤه الطبيعيون .

هل قام فى المدينة ببعض الأعمال المثيرة ، مثل تحدى التجار الذين يبيعون ويشترون على أعتاب المعبد ؟ قد يكون ذلك . . على أى حال فإننا نعتقد أن الحاكم الرومانى كان يعرف « الملهمين » من اليهود من قبل ، ويعرف أيضاً أنه يجب عليه الاحتياط منهم . لذلك لم يكن من العسير على العلماء والقساوسة أن يقنعوه بخطر هذا الرجل من أهل الجليل الذى لا أصل له ، وبضرورة وضع حد للفوضى التى يثيرها ، حفاظاً على النظام . فأمر بيلاطس بالقبض على عيسى ، وحاكمه ، وصلبه[1] ، ولم يتدخل الشعب فى شىء .

والأرجح أن جهود محررى الأناجيل فى سبيل إبراء ذمة الحاكم الرومانى وإلقاء تبعة الجرم كله على كاهل اليهود ، لا ترجع إلى وحى الحقيقة وواقع التاريخ بل إلى الرغبة فى عدم إثارة السلطات الرومانية فى عصر لم يكن

(١) إن المؤلف نفى – فيما قبل – نفياً باتّاً قاطعاً أن يكون المسيح قد ادعى « البنوة » ، واعتبر ذلك من السفه الدينى ، وهنا يتحدث عن عقيدة الصلب فلا يحيطها بما يحيطها به المسيحيون من مغزى ، وإنما كانت لأن الحاكم رأى أن يحتاط للحكم ويخلص الإقليم من فوضوى ، فصلبه للأمن ، ولم يتحرك أحد من أتباعه لإنقاذه أو حتى للشفاعة من أجله ، على أن النصوص الصريحة لا تؤيد المؤلف . وإذا كان بعض المؤرخين يشك فى وجود المسيح – مجرد الوجود – فهل مع ذلك يمكن لإنسان أن يؤكد الصلب ؟

المسيحيون يجدون ملجأ سواها أمام كراهية أهل المعابد اليهودية .

ولم يكن عيسى قد توقع ما حدث له فى القدس . وارتباك أتباعه وهروبهم هو الدليل الواضح على ذلك . ولقد بدا وكأن حكم بيلاطس العنيف كان الضربة القاضية على أحلامه ، والقاصمة لدعوته ، ومن المرجح أن نفسه فى أواخر أيامه قد تملكها القلق فيما يتعلق بالمستقبل والحيرة فيما يتعلق بالحاضر ، ولعلها -- ولم لا ؟ قد تملكها أيضاً الشك فى ذاتها ، وأقضتها فكرة الموت الذى اقترب . غير أننا لا نجد من الأدلة ما يسمح لنا بالقول بأنه رأى حينئذ أن صلبه أمر ضرورى لإتمام رسالته ، بل كلها تشير إلى أنه لم يدَّع شيئاً من هذا . والحق يجب أن يقال : ما دامت المعجزة التى بشر بها لم تتحقق ، وما دام « يهوه » لم ينشر ظله على الأرض ، فما عسى أن يفعل سوى أن يلجأ مسرعاً إلى الجليل ، أو أن يحنى رأسه أمام قدره المحتوم ؟ ولعله فكر فى العودة إلى مسقط رأسه . وقد ظن البعض ذلك ، اعتماداً على إنجيل متى الذى يروى أنه ضرب لأتباعه موعداً بالجيل . وعلى أى حال ، فلم تتح له فسحة من الوقت كافية لتحقيق هذه الخطة إن كان قد اختطها .

(ب)

كان من شأن « فضيحة الصليب » -- وهذا التعبير يرجع إلى القديس بولس -- أن تضع ، فيما يبدو ، حدًّا لمحاولة عيسى . فلقد قام للتبشير بأحداث لم تتحقق ، ثم مات ، وتشتّت أتباعه فى ذعر شديد ، وذهبوا إلى حد التنكر للأمل الذى غرسه الأستاذ فى قلوبهم فندموا على الخطأ الذى وقعوا جميعا فيه ، أو لعنوه .

ويجب علينا أن لا ننسى أنه لم يؤسس شيئاً : لم يأت بدين جديد ، ولا حتى بأى طقس جديد من طقوس العبادة . لم يأت إلا بتصور شخصى فريد للتقوى فى إطار الديانة اليهودية ، تلك الديانة التى لم يزعم قط أنه يبغى التغيير من معتقداتها أو من شرعها وشعائرها . واعتمدت تعاليمه على فكرة حلول مملكة الله التى آمن بها هو كما آمن بها سائر مواطنيه ، إلا أنه فهمها وعبر عنها بطريقته الخاصة ، ويجدر بنا الإشارة إلى أن هذه الطريقة الخاصة نفسها قد لا تكون أصيلة لديه ، بل لعله أخذها عن غيره من سابقيه . أما أن تنسب إليه إرادة تأسيس كنيسة . . كنيسة تكون كنيسته هو . . كنيسة تختص بالعبادات، والطقوس التى يعينها لها والتى يظهر فيها رضاه عنها . . كنيسة يمهد لها فتح الأرض جميعا — فهذا قول لا يقره واقع الأحداث ، ولا صريح التسلسل التاريخى .

ولن نتعدى الحق إن أضفنا : أن كل ذلك لا يمكن اعتباره إلا تحريفاً[1] ، لفكرته وأنه لم يكن ليرضى عنه قط لو نمى إلى علمه منه شىء .

ولكن ماذا كان يبقى منه إذن . إن نحن استثينا بعض الحكم الأخلاقية ، وهى ولا شك مفيدة ، ولكنها أقل أصالة مما توصف به عادة ، ولم تتعرض لذكرى فضائله الرقيقة ولسحر شخصيته ؟ . . ماذا كان يبقى لنا من عيسى ؟

إن المنطق يجيب عن هذا التساؤل إجابة صريحة : لا شىء .

إلا أن تتابع الأحداث بعد ذلك بدا وكأنه لا يساير المنطق .

فقد انتصر الإيمان الوثيق لدى أصحاب المسيح على الموت نفسه . وهنا نصل إلى أكثر مشاكل التاريخ المسيحى غموضاً وإبهاماً : فقد تلاقى هؤلاء

(١) والمؤلف العالم المسيحى صاحب المركز العلمى الممتاز لا يعتبر المسيحية الحالية إلا تحريفا لفكرة السيد المسيح .

الحواريون بالجليل ، بين أحضان ذلك الإقليم الذى يعرفونه والذى عاشوا فيه مع أستاذهم ، وظنوا أنهم رأوه هناك ثم أيقنوا أنه بعث من بين الأموات .

تلك هى الوقائع . أما تفاصيلها ، فليس لدينا بها علم . ولم يكن للأساطير بدّ من أن تحاول تفسير الوقائع ، فصنعت منها نسيجاً بالغ التعقيد والغموض ، اختلط فيه العجب العجاب من الأحداث الخيالية المستحيلة ، وتعذر بعد ذلك استخلاص الحقيقة منه لتضارب النصوص وتباين رواياتها . وإن روايات الإنجيل التى وصلت إلينا ، والتى تتعلق ببعث عيسى ، لتبدو للمؤرخ الناقد نوعاً من الإنشاءات التى لا تنسجم عناصرها ، قد بنيت على ذكريات مبهمة وتفاصيل متعارضة ، ثم على « حكايات » قديمة من تلك التى تعودها العالم الشرقى . ولكن .. ما أساس هذه المسألة – إذ لا بد وأن يكون هناك شىء بالذات قد أثار الحديث عنها ؟

أساسها فيما يبدو ، على أرجح الاحتمالات : رؤيا رآها بطرس ، تلتها رؤى جماعية .

وتلك ظاهرة لها أمثلة أخرى فى تاريخ الأديان .

ويجب ألا ننسى أن أصحاب عيسى ، وإن رحلوا من القدس فى رعب وحيرة ، بعد أن خاب ما كانوا يتوقعونه ، وبعد أن نزلت بهم الضربة العنيفة المفاجئة القاصمة لآمالهم ، فلعلهم لم يستسلموا لليأس كل الاستسلام ، وكان إيمانهم بصدق عيسى مع ذلك أقوى من ترددهم . فلما انتهت الفترة الأولى من الاضطراب ورجعوا إلى تلك البيئة التى عاشوا فيها معه واستمعوا إليه ، عاد تأثير حديثه قويًّا ، بالغ القوة ، وخاصة بالنسبة إلى بطرس . كانت دعوة عيسى لديهم مرتبطة بشخص عيسى نفسه ، فإن هم أقروا باختفائه إلى الأبد ، كان

ذلك إقراراً بالتخلى عن كل أمل لهم فى تحقق كلمته . وتبلور إيمانهم وركز على فكرة واحدة ثابتة هى قولهم لأنفسهم : « لا يمكن أن يكون عيسى قد تنكر لنا ، ولا يمكن أن يكون موته أمراً نهائيًا » . وكانت النتيجة المحتومة لمثل هذا التبلور والتركيز – لدى أمثال هؤلاء السذج المتحمسين فى أملهم وترقبهم – أن يروا الرؤى ويصدقوا بها . وهكذا قدر لبطرس أن يرى عيسى ، ثم رآه من بعده حواريون آخرون فى الصورة نفسها التى وصفها لهم . وسواء أرجع الأمر إلى التهيؤات والأحلام أم إلى تفسير محموم لظواهر حسية معينة ، فالنتيجة واحدة : وهى أن الصيادين من أهل الجليل لم يكونوا ليستطيعوا تحليل ما حدث لهم ، بل استسلموا كل الاستسلام إلى ما ظنوه من وحى الله .

وأدت الرؤى بالحواريين إلى الاقتناع بأن عيسى « حى » أو – على الأقل بأنه حي « بروحه » التى مجدها الله . ولكن الاقتناع بأنه حي يقتضى الاقتناع بأنه لم يعد ميتاً . وإذا لم يكن بين الأموات ، فلا جدال – فى نظر يهودي هذا العصر – فى أنه قد بعث . ولا نقول قد بعث « بجسده الذى ووري فى الأرض » ولكن نقول أنه بعث « بجسد ما » . وإذا افترضنا أن أصحاب عيسى لم يؤمنوا بادئ ذى بدء إلا بالبعث « الروحى » فلا نشك فى أنهم لم يستطيعوا الحفاظ على هذا المفهوم فترة طويلة ، حيث إن التفكير الشعبى لا يمكنه أن يتمثل البعث إلا فى صورة العودة الكاملة للحياة [1] ، فضلا عن أن نصوصاً مختلفة من الكتب التى أرادوا أن يتقدموا بها تبريراً لفكرة بعث عيسى فرضت عليهم الإيمان

---

(١) هكذا مثلا نرى بعض الناس فى أثناء حياة عيسى ، يؤمنون بأنه ليس سوى يوحنا المعمدان بعث إلى الحياة من جديد (أنظر : إنجيل مرقس ، ٦ / ١٤) .

(المؤلف)

بأنه خرج من قبره بعد ثلاثة أيام من مواراته الأرض ، أو فى اليوم الثالث . وعلى أساس عقيدة أصحاب عيسى هذه رسخت أسطورة البعث ، ثم نمت وتطورت على الأخص فى ربوع اليونان .

ولن نزيد هذه المسألة الثانوية تفصيلا الآن ، مكتفين بالإشارة إلى أن دعامة عقيدة البعث هى تصريح الحواريين الذين قالوا : « لقد رأيناه ، لقد بعثه الله » . ولكن هذا التصريح كان يفترض نتيجة وخاتمة :

لماذا أخرج الله عيسى من عالم الأموات . . إن لم يكن قد خصه بدور أساسى فى حادث جلل يوشك أن يكون ؟ . .

أما الحادث الجلل فلا شك فى أنه هو حلول مملكة الله التى وعد بها عيسى .

وأما الدور الذى اختص به الأستاذ فلا جدال فى أنه هو دور المسيح المرتقب .

وهناك نصان من نصوص مجموعة « أعمال الرسل » يسمحان لنا حتى يومنا هذا بأن ننفذ إلى الشريان النابض لتفكير الحواريين فى هذا الصدد (٣٢/٢ ، ٣٦) :

يقول النص الأول : « هذا المسمى بعيسى ، لقد بعثه الله ، وإنا جميعاً على ذلك شهداء » . ويأتى الثانى بمغزى الحديث فيعلن : « ليعلم سائر بيت إسرائيل علم اليقين أن الله قد جعل من هذا المسمى بعيسى الذى اضطهدتموه سيداً ومسيحاً » ولا نجرؤ هنا بطبيعة الحال ، على التصريح بأن هذا التعبير المنسوب إلى القديس بطرس تعبير أصيل يرجع فعلا إلى من نسب إليه ، بل إننا نؤمن بعكس ذلك ، حيث إن استخدام كلمة سيد (كيريوس) توحى بأن الكاتب للنص كان ذا أصل يونانى أو ثقافة يونانية — أى أن التعبير ينتمى إلى

النصوص التى يتضح فيها أثر المجتمع اليونانى على المسيحية – غير أن تقابل النصين بما فيهما من تأكيد، يتجاوب مع واقع نفسانى محقق.

ولو لم يكن إيمان الحواريين ببعث أستاذهم، « لما كانت المسيحية »، وعلى أساس من هذه الفكرة قيل (انظر كتب ولهاوسن) : إن عيسى « لولا موته » لما دخل قط فى سجل التاريخ. ولكن هل يمكننا الدفاع عن النظرية العكسية، والقول بأن العقيدة الأساسية للمسيحية تعتمد على هذا البعث ؟

إن لفكرة البعث من وجهة النظر العقائدية أهمية قصوى، ولا يمكن أن تضفى عليها المبالغة شيئاً جديداً إلا بصعوبة، بل إنه ليبدو لنا من صراح الحق أن نتخذ عنواناً ثانويًّا لكل رسالة فى العقيدة المسيحية الأصيلة من تلك الكلمة التى قالها القديس بولس فى أول رسالة له إلى أهل كورينثيا (١٥، ١٧) : « إن لم يكن المسيح قد بعث، فإيماننا لا سبيل له ».

ومن جانب آخر فإن المفكر إن هو حلل ظهور عقيدة المسيحية وانتشارها من وجهة النظر التاريخية البحتة لن تبدو له فكرة بعث عيسى أقل شأناً وخطورة، فبسببها أصبح الإيمان بـ « السيد عيسى » أساس دين جديد لم يلبث أن انفصل عن اليهودية واتخذ فى نظر الناس صورة الطريق الإلهى نحو النجاة. وبسببها أيضاً تسربت آثار الأسطورة الشرقية القديمة التى تدور حول فكرة إله يموت ثم يبعث، ليسير بأتباعه نحو حياة الخلود، تسربت إلى ضمير المجتمعات المسيحية – أو على الأقل منها تلك المتأثرة بالفكر اليونانى – فلم يلبث عيسى أن تحول بها من مسيح يهودى وشخصية محلية لا أثر فيها للتراث اليونانى ولا يفهمها أهل اليونان إلى « عيسى المسيح، السيد والمنقذ، ابن الله وخليفته على

الأرض ، الذى يهتف باسمه سائر المؤمنين ، وتنحنى له الخليقة كلها إكباراً وإجلالا » - على حد تعبير القديس بولس .

وما دام الأتباع قد قبلوا مبدأ البعث فى إيمانهم ، فلم يكن لهم بد من أن يبادروا بإعلاء شأن هذا الإيمان وبإعاة تنظيمه .

(جـ)

ونقول هنا : « إعادة تنظيم الإيمان » ذلك أنه قد وضح للعيان استحالة استمراره معتمداً على حديث عيسى فحسب . لقد حول موته من مجرى العقيدة حيث فرض هذا الحادث أثره على الصورة المرسومة ليوم القيامة والعالم الآخر .

وعلى ذلك قيل أول الأمر : إن عيسى لم يمت إلا ليبعث . فالبعث هو الدلالة العظمى على التشريف الذى خص به .

ثم انتهى الأمر إلى أن أصبح هذا الموت : السر الأعظم ، والنهاية المحتومة والهدف الأول من حياة عيسى كلها ومن عمله . فقيل : « جاء عيسى الناصرى فى هيئة رجل ألهمه الله ، يكثر من المعجزات ويعمل الخير . وقتله الأشرار . إلا أنه كان هو المسيح المختار . وقد بين الله ذلك إذ بعثه من بين الأموات فى اليوم الثالث . وقريباً سوف يعود فى مجده السماوى ليقيم المملكة التى وعد بها » .

وكانت فكرة قرب حلول مملكة الله الفكرة الأساسية فى دعوة عيسى ، أما دعوة الحواريين فقد تحولت إلى فكرة مركزة هى : أن عيسى هو المسيح الموعود كما تحولت إلى قرب عودته لهذه الدنيا . وهذان هما الموضوعان اللذان توضح لنا مجموعة « أعمال الرسل » أن « الاثنى عشر » من الأصحاب سوف يعودون بهما إلى القدس لشرحهما وتنمية أسرارهما .

ولا مناص لنا من الاعتراف بأن هؤلاء الأصحاب كانوا يمتازون بخيال دافق يزيد على الحد ، إذ أن المنطق وواقع الأحوال كانا ينبئان فى صراحة بأنهم لن يلاقوا من النجاح أكثر مما لاقاه أستاذهم ، وبأنهم لابد سائرون إلى مثل ما سار إليه من مصير محتوم .

لم يؤمن اليهود بعيسى فى أثناء حياته ، فكيف يتعلقون به الآن وقد تجمعت الدلائل على أنه غرر حتى بنفسه ، فلم يستطع لها نجاة يوم التعذيب بل مات بائساً والناس تنظر إليه ؟

أيقولون إنه قد بعث ؟ ولكن من هم الشهود على ذلك ؟ إنهم هم الأتباع فحسب ، فما أضعفه من برهان . . .

والحق يقال إن الاثنى عشر لم يلاقوا فى القدس من النجاح سوى القدر اليسير الذى كان يمكن لأى رجل منصف أن يتوقعه : لقد كسبوا تأييد بضع عشرات من الناس مثلما هو الحال بالنسبة إلى كل فرقة دينية جديدة ، وحافظوا على صلات طيبة مع الشعب بفضل شدة تمسكهم بالتقاليد اليهودية ومواظبتهم على زيارة المعبد ولنشر هنا إلى أن تلك دلالة على عدم اهتمام أستاذهم بالانفصال عن عقيدة إسرائيل وعلى عدم رغبته فى ذلك .

ولكنهم أثاروا عداوة الكتبة والكهنة واحتقارهم ، ولاقوا منهم ألواناً من الاضطهاد . إلا أن تواضع أصلهم وخلقهم الجانح للسلم ، ثم أيضاً حسن علاقتهم بجمهور الشعب ، تلك المميزات أنجتهم من القتل ولم تكن هذه الفترة بالنسبة إلى الكثير منهم سوى فترة تأجيل النهاية المحتومة .

وقد انضم إليهم بعض الأتباع من المدن المجاورة للقدس ، بيد أنهم وصلوا سريعا إلى قمة ما كان مقدراً لهم من نجاح بين اليهود الأصلاء ، ولم يكن ذلك

بالشيء الكثير . . بل بدا للعيان ضعف أمرهم ، وأصبح مما لا جدال فيه أن هذه الفرقة سوف تفنى بفناء الجيل الذى نشأت فيه ، وأن ذكرى أتباع عيسى الناصرى سوف يطويها نسيان الزمن كما طوى ذكرى أتباع يوحنا المعمدان وغيره من الأنبياء .

لكن المقدر لم يكن وذلك بظهور عامل جديد فى القضية غيّر وجهتها تغييراً شاملا . . لم تستطع عقيدة أصحاب عيسى أن تشيد صرحها فى مهد اليهودية ، فانتقلت إلى ربوع اليونان .

وسوف نفصل فيما بعد الطريق الذى سلكته . وقد نمت وترعرعت فى مرتعها الجديد . ولابد لنا أن نبين أسباب ذلك : ففى العالم اليونانى يجب أن نبحث عن مدارج التطور الأول للمسيحية .

الفصل الثالث

عمل الحواريين

(ا) الحواريون فلسطينيون . ما هى وجهة نظرهم ؟ - هناك يهود خارج فلسطين : الأمة اليهودية فى المهجر - كيف تكونت هذه الأمة - تنظيم مجتمعاتها - دعوة معابدها - كيف وصلت هذه المعابد إلى وفاق مع الفكر اليونانى - روح رواد المعابد اليهودية فى العالم اليونانى : الخصائص التى جعلت هذه الروح على استعداد لقبول الدعوة المسيحية .

(ب) التأليف الدينى لدى الأمة اليهودية فى المهجر - المانداثيون - الناظوريون - الهبزستيون والسابازيون - كيف مهدت هذه الفرق للمسيحية .

(جـ) كيف عبرت عقيدة الحواريين الطريق إلى مجتمعات الأمة اليهودية بالمهجر ؟ روايات مجموعة « أعمال الرسل » - بارنابا فى أنطاكيا - غموض وضعف عمل الحواريين فى فلسطين .

(ا)

كان أصحاب عيسى وأتباعه الذين اطمأنوا إلى قوة إيمان القديس بطرس ، فتجمعوا — بعد فترة الرعب الأولى — ليحاولوا إعادة بناء الحلم الضائع واسترجاع الآمال التى غرسها أستاذهم فى القلوب ، كانوا يهوداً سذجاً بسطاء ليس لهم شأن فى قومهم ، ولا يمتازون بثقافة كبيرة وعلينا ألا ننسى ذلك ، فآفاقهم الفكرية لم تكن بأوسع أو أبعد حدوداً من أفق عيسى ، واقتصر طموحهم على الرغبة فى دفع « الخراف الضالة من بيت إسرائيل » نحو طريق النجاة . وجميع الدلائل تحملنا على الاعتقاد بأنهم كانوا شديدى التعصب لبنى جلدتهم من اليهود — على الأقل فى بدء الدعوة — وفاقوا فى ذلك عيسى نفسه ، وكانت فكرة تبشير الوثنيين بعيدة كل البعد عن عقولهم ، بل الواقع أنه كان من ضروب المستحيل أن يتصوروا إمكان انتشار الإنجيل بين رجال لم يؤمنوا بالعقيدة اليهودية قبل ذلك .

ولكن عدداً وفيراً من اليهود فى ذلك العصر كان يقيم خارج فلسطين وكان يحسب حسابهم عند البحث فى شئون بنى إسرائيل .

وهناك أسباب عديدة دفعت بأجداد هؤلاء اليهود المقيمين خارج فلسطين إلى الهجرة خلال القرون الأربعة السابقة للمسيحية . أول هذه الأسباب كان ما فرضته ظروف تاريخهم : فبلادهم التى تحدها مملكة البطالمة بمصر والمملكة السلوقية بسوريا كانت ميداناً للكثير من المعارك التى خاضها المصريون والسوريون . وفى أثناء الغزوات أسر أولئك وهؤلاء الكثير من الناس ، ولم يعد

الأسرى بعد ذلك إلى وطنهم . وتكرر الأمر كثيراً خلال ذلك النضال الطويل من أجل الاستقلال الذى كافح فيه المكابيون ضد ملوك سوريا . ثم تكرر بعد ذلك لمصلحة الرومان عندما قاتلوا نطاكيوس الأكبر ، وعندما تدخلوا فى الفتن المحلية التى ثارت بفلسطين فى فترات مختلفة . ومن ناحية أخرى أظهر اليهود ، عند حالة حسن معاملتهم ، قوة ودأباً على العمل وإخلاصاً له . لذلك حاول البطالمة والسلوقيون أن يستقدموا مجموعات كبيرة منهم ، ونجحوا فى ذلك ، فاستقر بعضهم فى دلتا النيل وفى ليبيا ، وبعضهم الآخر ببلاد الليديين بفريجيا . وأخيراً فإن فلسطين لم تكن بالبلد الذى يختص بموارد للثروة لا تنفد فى حين أن اليهود قوم يمتازون بالتكاثر السريع ؛ ودعا هذا الكثير منهم – بعد أن ضاقوا بالعيش فى موطنهم الفقير – إلى البحث عن رزق جديد فى مختلف الأقاليم التى يسيطر عليها أسيادهم الأجانب ، ووجد عدد غير قليل منهم الرخاء والثروة حيث حلوا . لذلك لم يكن إغراقا كبيراً فى المبالغة الشعرية أن يعلن يهودى من الإسكندرية محدثاً قومه قبل مولد المسيح بقرنين من الزمن : « الأرض جميعاً ملأى بكم وأيضا البحار » .

وكان يخيل كذلك إلى العالم الجغرافى « سترابون » الذى عاصر المسيح أن الإنسان يجد اليهود فى كل مكان . والواقع أنهم كانوا قد انتشروا حول حوض البحر المتوسط كله ، غير أنهم لم يلتقوا فى جماعات كثيفة إلا بالمدن الإغريقية الكبيرة وبربوع ما بين النهرين ، ثم بروما – تلك المدينة التى كان يقيم فيها ، فى عهد الإمبراطور أغسطس ، حوالى اثنى عشر ألفا من اليهود .

أينما حل اليهود فهم عامة لا ينسون أصلهم ولا دينهم ؛ لذلك نراهم يتكاتفون وينظمون صفوفهم ، ويسعون لدى سلطات البلاد التى يقيمون فيها

للحصول على حقوقهم الشرعية فى الحياة . وكانوا يتنظمون من الناحية الزمنية فى جماعات لها رؤساؤها وحكامها وقضاؤها وتقاليدها . أما من الناحية الروحية فكانت تجمعهم المعابد التى يقصدونها للاستماع إلى تلاوة النصوص المقدسة ، وللصلاة والتعبد الجماعى ، وكانت لهذه المعابد أيضاً حكوماتها الصغيرة ؛ وقد تعمد الجاليات اليهودية الكبرى -- مثل تلك التى كانت بروما -- إلى تقسيم أعضائها بين عدة معابد . وسمح الأمراء الإغريق والسوريون والمصريون لليهود المقيمين فى ممالكهم بكل ما طالبوا به من تنظيمات ، بل منحوهم امتيازات شتى . وسار الرومان على المنوال نفسه فأصبح بنو إسرائيل يتمتعون بدستور فعلى يحميهم فى سائر أرجاء الإمبراطورية . ولم يكن هذا الدستور يقتصر على السماح لهم بإقامة شعائر دينهم والتصريح لجماعاتهم بما تريد من نشاط ، بل ذهب فى العطف عليهم إلى حد مراعاة حساسيتهم الدينية ما أمكن مراعاتها ، ومحاولة إرضاء ميولهم ونزعاتهم فى كثير من الأحيان .

إلا أن أهل المدن التى كثر فيها اليهود كانوا ينظرون إليهم فى شىء غير قليل من الغضب ويناصبونهم العداء ، وذلك لأسباب عدة ، منها تلك الامتيازات العريضة التى ذكرناها والتى هيج تكبرهم الطبيعى من شعور الناس إزاءها ؛ ثم ذلك الاحتقار الذى كانوا يبدونه تجاه الديانات الوطنية والذى دفعهم إليه بالطبع ، فى كثير من الأحوال ، ما وجدوه من حماية السلطات ؛ كما كانت تؤخذ عليهم عيوب وتقاليد غير مألوفة ، نذكر منها على الأخص : غرابة الطقوس فى المعابد بالنسبة إلى عامة الوثنيين الذين لم يجدوا بها ما اعتادوه فى معابدهم ، وفرض الختان ، وتحريم بعض أنواع المأكولات التى أتت الشريعة الموسوية بتحريمها ، ثم كانت هناك فوق كل هذا افتراءات بالغة الأثر ضد اليهود

من تلك التى يؤمن بها عامة الشعب فى سهولة : أن طقوسهم الدينية تقتضى سفك الدم الآدمى ، أو أنهم يتجهون فى عبادتهم لرأس حمار .

وقد تميز العالم الإغريقى الرومانى بعداء محقق للسامية يكاد يصل إلى حد العنف والقسوة على اليهود ، ولولا مراقبة سلطات الأمن للأمر بشدة - وإن أفلت منها الزمام فى بعض الأحيان - لقاسى بنو إسرائيل الأمَرَّين من ذلك الشعور . ولهذه الظاهرة التى ذكرناها منذ بداية حديثنا أهمية قصوى : ذلك أن شعور العداء والبغض لدى الشعب بالنسبة إلى اليهود سوف يتحول فى سرعة سريعة إلى المسيحيين[1] .

إلا أن اليهود فى مقابل هذا الشعور الشعبى العدائى ، كانوا يتمتعون عادة برعاية الحكام ، بسبب روحهم الطيعة وإخلاصهم للعمل وصبرهم عليه ، وكانوا كذلك يستثيرون اهتمام وعطف هاتيك الفئة من الناس التى لم ترض عن العبادات الوثنية الشائعة لما تشتمل عليه من أساطير بالغة العقم وطقوس مرذولة ونظريات فيما وراء الطبيعة لاسند قوى لها . وفى هذا العصر الذى شوهد فيه بدء رواج الأديان الشرقية الزاخرة بالعاطفة ، بدت اليهودية لهؤلاء الذين تدفعهم طبيعتهم إلى تفهمها وكأنها أبسط الأديان قاطبة وأسماها وأرقها .

ومن ناحية أخرى نرى طوائف اليهود التى اتصفت فى بلادها الأصلية بالحذر والانطواء وإساءة استقبال الأجنبى ، تتخذ فى بلاد الوثنيين أخلاقاً أكثر ليونة وكرماً . فقد أصبحوا لا يغلقون معابدهم أمام المشركين ، بل يتسامحون فيستقبلونهم على أعتابها ، ولا يمتنعون عن تعريف الراغبين منهم بأحكام الشريعة

---

(١) جمع « ت . ريناك » الوثائق اليونانية الرومانية الخاصة باليهود ، وترجمها وحققها فى كتاب له صدر بباريس عام ١٨٩٥ : « نصوص من المؤلفين الإغريق والرومان » .

الموسوية . وقد ترجمت هذه الشريعة إلى اليونانية ، فصار فى استطاعة كل إنسان مثقف أن يدرسها .

وهكذا اجتمعت شيئاً فشيئاً حول كل معبد طائفة من المريدين الذين ذهب بعضهم إلى نهاية الشوط فى اعتناق اليهودية ، فأقيمت لهم طقوس الطهارة والختان ، وفرضت عليهم القرابين للمعبد المقدس ، وأصبحوا من بنى إسرائيل . أما بعضهم الآخر فلم يبلغ من التحمس هذا المبلغ ، مكتفياً بارتياد الحلقات التى كانت تقام على أعتاب المعابد ، بصفة منتظمة أو غير منتظمة ، وبالمساهمة المادية فى نفقات هذه المعابد ، ثم باعتناق الكثير أو القليل من العادات والتقاليد الخاصة بالحياة اليهودية ، على قدر ماكانت تسمح به مكانتهم الاجتماعية . وسموا من أجل ذلك بـ « المتقين الله » . ولاشك فى أنه قد تكونت منهم جموع غفيرة بجوار الطوائف اليهودية الكبرى فى الشرق وفى مصر . أما فى روما فمن المؤكد أن بعض أعضاء الطبقات الشريفة ، وبخاصة منهم النساء ، قد انضموا إليهم مع آخرين من مختلف الأوساط الاجتماعية .

ولم يكن يهود المهجر قد احتفظوا بالصورة الأصلية الكاملة لعادات وروح إخوانهم فى الدين من أهل فلسطين . فقد لانت تلك العادات وتلك التقاليد ، ولان معها تعصبهم وعداؤهم لـ « الأجنبى » فى ربوع هذه البلاد التى لم تكن لترضى بهم لولا ذلك ؛ وأقاموا صلات يومية مستمرة بمجتمعات « الكفرة » ، وتأثروا فى قوة وعمق بتيارات الثقافة اليونانية التى انغمسوا فيها شيئاً فشيئاً فإذا ما تركنا جانباً عقيدتهم الدينية وفروض طقوسها الأساسية ، وجدنا أن هؤلاء اليهود — بعد جيلين أو ثلاثة من الهجرة — لايفترقون فى لغتهم ومظهرهم وثقافتهم العامة ، عن الإغريق الذين يماثلونهم فى الظروف الاجتماعية . وأظهر الذين

ارتقوا منهم إلى أعلى مراتب التعليم إعجاباً عميقاً بأدب اليونان وفلسفتهم ، وامتزج فكرهم بهذا الأدب وهذه الفلسفة إلى حد الشعور بأنه لم يعد فى استطاعتهم التخلى عنهما لإرضاء الشريعة الموسوية ، كما لا يستطيعون التخلى عن تلك الشريعة فى سبيلهما . لهذا نرى فيلون – وهو المثل الواضح لهؤلاء اليهود الذين تشبعوا بالروح اليونانية – نراه فى الإسكندرية يحاول مخلصاً أن يبرهن على عدم التعارض بين الوحى الذى نزل على موسى والأحكام التى جاء بها وبين نظريات أفلاطون وزينون ، وعلى أن المرء لابد له من الاقتناع بذلك إذا أحسن فهم مقاصد الفيلسوفين[1] .

لهذا أيضاً رأينا بعض العقائد التى عدّها يهود فلسطين عقائد أساسية ، تضعف وتذوب لدى إخوانهم باليونان ، مثال ذلك عقيدة انتصار الأمة اليهودية ، فقد ابتعدت عن الصورة القديمة لها مع ما امتازت به من تعصب وعنف وضيق أفق ، وأصبحت تنحو نحواً آخر هو الدعوة إلى فتح العالم كله لأسرار الحقيقة .

ومقابل ذلك رأينا اتجاهات فكرية ، غريبة على بنى إسرائيل الأصلاء ، تفرض نفسها عليهم وتؤثر فى مذاهبهم . ونذكر ، على سبيل المثال : تشبعهم شيئاً فشيئاً بالفكرة اليونانية التى تقول بازدواج الشخصية الإنسانية . فلم يعودوا يعلقون أهمية كبيرة على مصير الأجساد فى العالم الآخـر ، وراحوا يبذلون العناية كلها للتفكير فى مستقبل أرواحهم وتلك مسألة لم يكن يهود فلسطين قد شغلوا أنفسهم قط بإنشاء عقيدة واضحة فيها .

---

(١) انظر كتاب إميل برهيه : « التفكير الفلسفى والدينى عند فيلون الإسكندرى » ، باريس ، ١٩٠٧ .

ولاغرابة إذن فى تلك الظاهرة التى نلاحظها لدى الأتباع الجدد للدين اليهودى ، من الاحتفاظ بمقومات الثقافة والفكر المنتشرة فى بيئتهم الأصلية ، فلم يكن ثمة ما يدعوهم إلى احتقار تلك الحضارة التى صورها لهم معلموهم الأول على أنها أجمل الحضارات قاطبة وأكرمها بالنسبة إلى الإنسان العاقل . فإذا ما اعتنقوا اليهودية على نحو ما ، لم يكن ذلك إلا على أساس تطويرها مع اتجاهاتهم الفكرية ، وعدم التخلى عن الآراء أو تقاليد الحياة التى نشئوا عليها ، إلا فى حدود ما بدا لهم أنه يتعارض تمام التعارض مع ما يأخذونه من الدين الجديد .

ولهذه الأسباب كانت طوائف اليهود فى المهجر ، وكذلك طوائف « المتقين الله » أكثر استعداداً من يهود فلسطين لمناقشة ما يدعيه الحواريون ، ثم للاقتناع به إن بدت لهم الحجة قوية ؛ وقد أظهر « المتقون الله » ميلا خاصًّا إلى ذلك .

ولهذا أيضاً كان الخطر كبيراً على العقيدة العيسوية – وهى العقيدة البسيطة غاية البساطة التى أثبتت التجربة مرونتها الكبيرة – عندما انتقلت إلى المعابد اليهودية فى بلاد اليونان : خطر الانحراف والتطبع بخصائص الفكر اليونانى .

(ب)

ويتضح لنا هذا الخطر إذا علمنا أن اليهود ، فى بعض مناطق المهجر ، لم يكتفوا بالتطور الاجتماعى وفقاً للبيئة التى يعيشون فيها ، ولم يكتفوا بإعادة تنظيم عقيدتهم الدينية أو – على الأقل – تفسيرها لأنفسهم بما يتفق وثقافتهم مع صيانة جوهرها كاملاً لم يكتفوا بذلك ، بل راحوا يخلطون باليهودية بعضاً من أفكار ومعتقدات المشركين الوثنيين المحيطين بهم ، فى الوقت الذى كانت فيه

طوائف من المشركين الوثنيين تعتنق الكثير من المعتقدات اليهودية الأساسية لتمزجها بأديانها المختلفة . ونحن لا نعلم شيئًا كثيراً عن التركيبات العديدة وتيارات التأليف[1] التى نشأت عن هذا التداخل ، إلا أن ما نلمحه منها خلال الوثائق يكفى للدلالة على أهميتها القصوى .

فإذا نظرنا مثلا إلى الجالية اليهودية ببلاد ما بين النهرين ، وجدناها تقيم فى مركز ممتاز بالنسبة إلى تأثيرات إيران وبابل ، وإن ظنت هذه الجالية أنها محصنة أمام كل تأثير أجنبى . وإيران وبابل هما البلدان اللذان نبعت منهما تآليف دينية بالغة فى الإغراب انتظمت فى مذاهب متفاوتة الانسجام لتفسير الوجود والحياة ، مذاهب للمعرفة الخاصة التى لا يرقى إليها سوى طليعة من الناس ، ولاتؤتى لهم إلا إلهاما أو بعد تدرج فى مراتب السلوك على أيدى العارفين . وعلينا أن نذكر على الأقل واحدة من التآليف الدينية التى نشأت فى هذه البيئة واتخذت من اليهودية عنصراً أساسيًّا من عناصرها : تلك هى المانداثية ، وهى نوع من التوحيد بين اليهودية وبين العقائد البابلية . ويبدو أنها كانت ، فيما بعد ، أساساً مبدئيًّا لإنشاءات دينية أخرى تهم تاريخ المسيحية .

وثمة جالية ثانية تهمنا كثيراً فى نفس المجال ، هى تلك التى كانت تقيم ببلاد الفريجيين . وقد امتازت هذه البلاد ، خلال كل العصور القديمة ، بحياة دينية نشيطة ، فلما جاء إليها اليهود شكلوا بادئ الأمر جماعة أو جماعات منعزلة عن مجتمعات الوثنيين ، ولكنهم لم ينجوا فى النهاية من تأثير هذه المجتمعات كما أثروا فيها بدورهم . ونتيجة لذلك رأينا المشركين يتبنون الكثير من المعتقدات الدينية

---

(١) Syncretisme وهو الاسم الذى تعارف الكتاب على إطلاقه على الإنشاءات الدينية التى تنتظم عناصر نابعة من أديان مختلفة .

اليهودية ويمزجونها بمعتقداتها المحلية . وكانت العبادة التى اختص بها الفريجيون فى ذلك العصر هى عبادة « الأم الكبرى سيبيل » ورفيقها « أتيس » . وقد لقب الأخير بلقب « هيزستيوس » ، أى : « الأعلى » ، وهو لقب يهودى الأصل ، يوازى فى معناه ما نجده فى عقيدة كلدانية أخرى تقول بأن مقام الآلهة « فوق الطبقات الكونية السبع والسماء بنجومها » كذلك إذا أردنا تقصى أصول الألفاظ ، فإنه يمكننا القول فى يسر بأن اسم « سابازيوس » وهو اسم الإله الفريجى الذى يعادل جوبيتير أو ديونيزيوس – ليس سوى « ساباوت » اليهودى ، وإننا لنلمح من خلال الوثائق الغامضة – ولشد ما نأسف لعدم وضوحها – فرقاً من أنصاف اليهود « الهيستيين » و « السبتيين » أو « السابازيين » تشارك جميعها فى أمل واحد هو : النجاة فى عالم خالد والحياة السعيدة إلى مالانهاية بعد الموت ، بواسطة شفاعة « منقذ إلهى » . وإن وحدة الروح بين أعضاء كل من هذه الفرق لتتمثل فى مشاركتهم فى مأدبة تقام حسب طقوس معينة وفى جو من التعبد والتقرب إلى الإله . ولعل أمثال هذه المآدب قد ارتقت منذ ذلك الحين إلى مرتبة أسرار القربان المقدس ، أى : أن من شأنها إفاضة العناية الإلهية على المشتركين فيها ، أو تأهيلهم خاصة لهذه العناية[1] .

ونشاهد نشأة تركيبات وامتزاجات مماثلة بين العقائد فى بلاد أخرى ، نخص بالذكر منها : مصر وسوريا . وسوف نحدد فيما بعد تأثيراتها المختلفة على التفكير الدينى لدى القديس بولس .

وإذن فقد تشكلت الفرق العديدة القائمة على أساس من اليهودية للتأليف بين العقائد وللمعرفة الباطنية ، وانتشرت خاصة حول فلسطين ، وليس من

(١) انظر كتاب كومون : « الديانات الشرقية فى العبادات الرومانية » باريس ، ١٩٠٩ .

المستبعد أن تكون قد تفرعت بين ربوعها ، فى العصور السابقة لمولد المسيح ، بفضل وفود الحجاج الكبيرة إلى القدس من يهود المهجر فى مواسم الاحتفال بأعيادهم السنوية .

وإنا لنقرأ عن فرقة من هذه الفرق – فرقة « الناظوريين » التى انتشرت على ضفاف نهر الأردن قبل مولد المسيح – نقرأ عنها فى كتابات أحد المؤلفين المسيحين من القرن الرابع هو القديس إيبفان . ولم يكن هذا الكاتب بالمنصف فى كل ماكتبه ، إلا أنه استطاع أن يجمع المعلومات الواردة عن أمثال تلك الفرق الشرقية . ويحدثنا ببعض التفصيل عن فرقة (الناظوريين) فيقول إن أتباعها لم يعترفوا بمعبد اليهود كمركز لطقوسهم ، ولكنهم ساروا على تقاليدهم الأخرى ، ولم يقبلوا الشريعة اليهودية على أنها شريعة إلهية ، متأثرين فى ذلك بالتيارات الفكرية الخارجية ، ثم إنهم كانوا يعدّون أنفسهم « قديسين » بالنسبة إلى بقية البشر – وكان هذا رأى المسيحيين الأول أيضاً فى بدء دعوتهم . ومن ناحية أخرى ، يمكن أن نفسر الأسم الذى اتخذوه لفرقتهم بالرجوع إلى كلمة « ناظر » العبرية ، التى ترجمها اليونان بكلمة « هاجيوس » ، أى : « قديس » وينطبق هذا التفسير أيضاً على اللقب الذى أطلق على عيسى . وكان هؤلاء الناظريون فى أغلب الظن شديدى التحمس لفكرة حلول مملكة الله .
ولعلهم كانوا السابقين إلى التفكير فى « المسيح المنتظر » ، وإلى القيام بطقوس معينة من أجله ، على غرار ماكانت تقوم به فرق أخرى أكثر إغراقا فى الشرك منهم بالنسبة إلى « الإله المنقذ » الذى تتهيأ له ، متأثرة فى ذلك باتجاهات دينية خارجية مختلفة .

وإن ما تجمع لدينا من معلومات لاتكفى لأن نقطع بالرأى فى كل ما يتعلق

بهذه الفرق اليهودية التى نزعت إلى تأليف وتطوير عناصر مختلفة من الأديان الموجودة حينذاك . غير أن مجرد وجودها يدل دلالة واضحة على اتصال الروابط بين اليهودية بمعناها الحقيق وبين الأديان الأخرى المختلفة فى غربى آسيا ، تلك الاديان التى شاركت اليهودية فى فكرة ترقب أو عبادة « منقذ إلهى » ، وإن تفاوتت أشكال هذا الترقب وتلك العبادة .

ونتيجة لهذا : يمكن القول إن انتشار فكرة حلول مملكة الله الفلسطينية الأصل خارج حدود فلسطين فى صورة مجددة ، ودراسة الكثير من معابد المهجر اليهودية لهذه الفكرة بعين الاعتبار ، ثم تسربها إلى المجتمع المحيط بالمعابد مثل رواد « حلقات العتبة » ، بل إلى مجتمعات قد تكون أقل صلة بالمعابد من هؤلاء يمكن القول إن كل ذلك ليس بالأمر الغريب بداهة .

ويدل وجود هذه الفرق أيضاً على أن عقيدة وتقاليد معابد المهجر كانت أكثر ليونة وتقبلا للتطور من مثيلاتها فى ربوع فلسطين ، وأنه كلما ابتعد اليهود عن المعبد الأكبر — معبد القدس — وكهنته ، أصبح تعصبهم للشريعة اليهودية ضعيفا أمام بعض العوامل الخارجية ، فينزعون فى بعض الأحوال إلى التعبير عن شعورهم الدينى فى صورة أقرب إلى الفطرة وأكثر انسجاماً مع المشاغل الدينية العامة للوسط الذى يعيشون فيه والذى لم يكن له بد فى النهاية من التأثير عليهم .

وبعبارة أخرى ، نستطيع القول بأن اليهود و « أنصاف اليهود » خاصة فى المهجر ، كانوا — فيما يبدو — أكثر استعداداً لقبول دعوة أصحاب عيسى من يهود القدس وفلسطين . هذا وإن كان الخطر كبيراً على هذه الدعوة أن تصبح عنصراً جديداً ومؤثراً لا يعرف مدى قوته ، يضاف إلى كل تلك العناصر

والمؤثرات الداخلة فى التركيبات الدينية المعقدة لدى الكثير من الطوائف التى ذكرناها .

(جـ)

مرت دعوة أصحاب عيسى فى عبورها من ربوع فلسطين إلى أراضى المهجر بأدوار غاية فى التسلسل ، وكأنها أدوار حتمية لامرد لها . فمجموعة « أعمال الرسل » تقص علينا أن الحواريين استمالوا إلى عقيدتهم بعض يهود اليونان الذين وفدوا إلى القدس فى الاحتفالات الخاصة ببعض الأعياد . وعادت فئة من الحجاج إلى ديارها فور انتهاء هذه الاحتفالات فى حين بقيت فئة أخرى بالمدينة المقدسة ، غير أنها لم تلبث أن طردت منها إثر مقتل الشماس إتيين على أيدى قضاة اليهود . وكان إتيين هذا قد تخصص فى شرح وإذاعة الانجيل بين رحاب القدس التى ينفق عليها يهود اليونان (انظر : « أعمال الرسل » ، ٦ / ٩ وما يليها و ٧ / ٥٧ ومايليها) .

ورحل الأنصار الجدد المطرودون . . رحلوا إلى فينيقيا وقبرص وأنطاكية ، حيث راحوا بدورهم يبشرون بعيسى فى المعابد (انظر : « أعمال الرسل » ، ١١ / ١٩ ومايليها) .

« وتحدثوا أيضاً إلى أهل اليونان » ، أى : إلى « المتقين الله » ، « وآمن الكثير من هؤلاء اليونانيين بالسيد المسيح » .

ولم يكن أصحاب عيسى هم السبب فى هذا النشاط ، بل لم يكن يدور فى خلدهم تدبيره ؛ فلما علموا بنتائجه ، بعثوا إلى انطاكية برسول مؤتمن ، يدعى برنابا ، ليدرس هذا الموقف الذى يبدو أنه أثار لديهم الشكوك والقلق . غير أن

حماس الأتباع الجدد لم يلبث أن انتقل إلى برنابا نفسه الذى رأى فى ظاهرة انتشار الدعوة نفحة إلهية فوقف كل جهوده فى إخلاص عميق لمواصلة هذه المبادأة المثمرة فى مجال العمل التبشيرى. ورحل إلى طرسوس حيث كان يقيم حينئذ بولس، وعاد به إلى انطاكية ليشركه فى عمله، وكان بولس هو الدعامة الكبرى للمسيحية المستقبلة.

إننا نعلم تماماً أن الحواريين الاثنى عشر والأتباع المباشرين لعيسى لم يكونوا ليستطيعوا القيام بنشاط يذكر فى القدس، بل كان موقفهم هو موقف أستاذهم فيما مضى، وكانت تتهددهم الأخطار التى هددته. وكانوا بدلا من تبشير الأستاذ بوشك « حلول مملكة الله » يبشرون بـ « عودة السيد المسيح »، إلا أن هذه وتلك صنفان من الادعاءات التى لابد أن تضعف أركانها إذا طال انتظار تحقيقها. لذلك كان من العسير أن نبين، على وجه التحديد، ماقام به أصحاب عيسى الأول من أعمال. لقد تجمعوا حول بطرس وحنا اللذين يبدو أنه قد انضم إليهما إخوة الأستاذ فى زمن مبكر، إذ أن بولس نفسه يقول عن أحدهم – وهو يعقوب الأصغر – إنه كان يعيش مع بطرس بين مجموعة من أتباع عيسى بالقدس.

وغالب الظن أن هؤلاء الأتباع عاشوا عيشة تمتاز بالحيوية خلال إقامتهم فى المدينة المقدسة، ولم يبتعدوا عنها كثيراً.

وتدعى بعض الأساطير اللاحقة أن أندريا قد ارتحل إلى بلاد السيخ، فى حين توجه يعقوب الأكبر إلى إسبانيا، وأخوه حنا إلى آسيا الصغرى. وتوماس إلى الهند والصين، وبطرس إلى كورينثيا وروما. وليست قصصهم جميعاً بالضاربة فى الخيال، إلا أن الجزم بصحة أى منها أمر محال.

وخلاصة القول أنه لم يتبق لدينا أى معلومات يمكن الاعتماد عليها عن حياة أصحاب عيسى المباشرين ، سوى الفصول الاولى من مجموعة « أعمال الرسل » . وحتى هذه الفصول لم تصل إلينا إلا فى نسخة تختلف كثيراً – وبصورة تدعو إلى الشك – عن النص الأول .

وإن هذا الصمت ليدعو إلى الاعتقاد بأنهم لم يقوموا بأعمال خارقة . والمرجح أنهم لم يكونوا ليستطيعوا ذلك .

ولعلنا نستطيع القول بأن بطرس ويعقوب الأكبر ويعقوب الأصغر وأيضاً – فى غالب الأمر – حنا ، ماتوا قتلى . وقد نستطيع أيضاً أن نتتبع – من خلال كتابات المؤلفين الذين تخصصوا فى الفرق الدينية [1] – تلك المجموعات الدينية الصغيرة التى أنشئوها على أساس من العقائد اليهودية ، والتى التجأت إلى الأراضى الواقعة جنوب نهر الأردن فى أثناء الثورة اليهودية الكبرى عام ١٦٦ . وبدت تلك المجموعات منذ وقت مبكر متأخرة كثيراً فى عقيدتها عما يؤمن به المسيحيون فى ربوع اليونان ، ولم يمض القرن الثانى للميلاد حتى أصبح هؤلاء المسيحيون ينظرون إليها نظرة استياء ، وأثرها المباشر على تاريخ المسيحية لا يكاد يذكر .

أما الروح الجديدة التى أحيت المسيحية فقد أتتها من بيئة أخرى .

---

(١) أمثال القديس إيرينيه فى القرن الثانى ، ومؤلف الـ « فيلوسوفومينا » المجهول فى القرن الثالث ، والقديس إبيفان فى القرن الرابع ، إلخ . .

الفصل الرابع

بيئة القديس بولس

(ا) طرسوس : مدارسها ومدى إشعاعها – التربية الفكرية للقديس بولس – كيف أصبح حواريًّا لعيسى – خلقه – مدى أصالته – عناصر عقيدته وأهمية البحث فيها .

(ب) الآلهة المنقذون فى الشرق اليونانى : مدى التشابه والامتزاج بينهم – أسطورة موتهم ثم بعثهم فى مواسم سنوية معينة – أصل هذه الأسطورة ومعناها الأول – أمثلة تطبيقية من العقائد الخاصة بميترا وأوزيريس وأدونيس وتموز – مأساة حياة وموت الآلهة .

(حـ) التفسير الميتافيزيقى لهذه القصص الإلهية – كيف ترمز إلى أسرار المصير الإنسانى – حتمية مشاركة الإنسان فى مصير الإله المنقذ من أجل أن يصل إلى عالم الخلود – كيف كانت تتم هذه المشاركة – التعميد بالدم ومأدبة القربان (مراسم التضحية بالثور عند المشركين والمأدبة الإلهية) – تشرب الإله – تشابه هذه الطقوس مع طقوس التعميد والقربان فى المسيحية – نظرية « المنقذ » فى الأسرار وفى تفكير القديس بولس .

(د) هل كان القديس بولس على معرفة بـ « الأسرار » ؟ – عقيدة طرسوس (بعل طرز وسندان) – « أسرار » أخرى – نظريات واحتمالات – أثر طرسوس الدينى على بولس – أثرها الفلسفى – خصائص العقيدة اليهودية فى طرسوس – بولس كان خليقاً بدوره كداعية للمسيحية بين الكفار بفضل الصفات الثلاث التى امتاز بها : الروح اليونانية ، الديانة اليهودية ، الجنسية الرومانية .

(١)

ذكرنا اسم القديس بولس فى سياق فصولنا السابقة . وعلينا هنا أن ندرس فى عناية البيئة التى نشأ فيها وآثارها عليه .

لقد ولد من عائلة يهودية أقامت بمدينة طرسوس فى سيليقيا ووجدت لها بها رزقاً . وكانت طرسوس مدينة نشيطة غاية فى النشاط ، تقع على نهاية حدود إقليم سيليقيا ، وتعد مفتتح سبل النفوذ إليه ، كانت حلقة الاتصال بين هضبة آسيا الصغرى والشام ، ومفرق الطرق التجارية الهامة التى تجلب إليها فى آن واحد ، من اليونان وايطاليا وفريجيا وكابا دوسيا والشام وقبرص وفينيقيا ومصر . سيلا لا ينقطع من الأفكار والعقائد والتأثيرات المختلفة . وحاول ملوك الشام — ونخص بالذكر منهم أنطاكيوس إبيفان (عام ١٧١ قبل الميلاد) — أن يصبغوها بالصبغة الإغريقية . غير أنها بقيت أساساً مدينة شرقية ، وذلك على الأقل فى مجال المعتقدات السائدة . وإن انتشرت فيها وازدهرت المدارس اليونانية ، وقام بين رحابها ما يمكن أن نسميه اليوم بـ « الجامعة » . ويقول المؤرخ الجغرافى سترابون عن تلك الجامعة : إنها كانت سبباً لشهرة المدينة فى العالم اليونانى الرومانى ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالدراسات الفلسفية .

وكان أساتذة هذه الدراسات ينتمون إلى المذهب الرواق . ويبدو أنهم لم يكتفوا بغرس تعاليم هذا المذهب فى أذهان الطلبة الذين يتابعون حلقاتهم ، بل راحوا ينشرون مبادئه الأساسية وقضاياه الأولى وشعاراته المثيرة وروحه ، على نطاق أوسع ، فى شبه « حملة تبشيرية » ذات طابع شعبى يتفق مع طرق تفكير

الجماهير . وهكذا نستطيع أن نجد تفسيراً للأمر الذى يهمنا بالدرجة الأولى ، وهو معرفة بولس للمبادئ الأولى فى الفلسفة الرواقية ، وللوسائل الشائعة فى الأساليب الخطابية لدى المفكرين اليونانيين ، وذلك مع ترجيحنا أنه لم يكن من رواد جامعة طرسوس ولا من دارسى الفلسفة الرواقية ، فقد كفاه أنه عاش سنى شبابه فى هذا الوسط الذى تشبع بالتراث اليونانى على أيدى أساتذة الفلسفة هؤلاء ، الذين جمعوا بين التفكير الفلسفى والأسلوب الخطابى .

وتزعم لنا مجموعة « أعمال الرسل » أن بولس نشأ بالقدس « بجوار جماليل » ، أى بمدرسة من ألمع المدارس اليهودية فى ذاك العصر . وليس فى وسعنا بطبيعة الحال نفى هذا الخبر بصورة قاطعة ، ولكننا نستطيع القول بأنه على أى حال لا يتفق كثيراً مع الصورة العامة التى تكونت لدينا من دلائل مختلفة : فلا نفهم مثلا أن تلميذاً من تلاميذ كهنة فلسطين تصل به الحال إلى تجاهل وإنكار أساتذته كما فعل بولس فى طور من أطوار حياته ، ونراه أحسن التعبير عن الروح اليهودية التى كانت تسود – على ما يبدو – فى معابد المهجر المتأثرة بالفكر اليونانى [1] . أغلب الظن فى رأينا أنه تلقى فعلا العلوم الخاصة بأصول اليهودية واستوفاها ، وتدرج فى الدراسات الدينية إلى أبعد حدودها ، ولكن فى غير القدس من المدن ، فلم تكن فلسطين هى الموطن الوحيد للعلماء اليهود . ونحن نعلم علم اليقين أن منهم من كان يقيم أيضاً بالإسكندرية وبأنطاكية ، والدلائل تشير إلى أن بولس قد أكمل دراساته بهذه المدينة الأخيرة .

وخلاصة القول أن صاحبنا ولد بأرض يونانية ، يتحدث بلغة اليونان

(١) انظر ، فيما يتعلق بهذه المسألة الهامة كتاب ك . ج . مونتيفيورى : « اليهودية والقديس بولس » ، لندن ، سنة ١٩١٤ .

ويكتبها منذ نشأته الأولى . وكان ينتمي إلى عائلة ذات شأن ، ويحمل لقب « مواطن رومانى » وراثة عن أبيه ؛ فكان بكل ذلك معدًّا إعداداً تامًّا لإدراك وتفهم التطلعات الدينية لدى يهود المهجر الذين يؤمنون بعيسى كما آمن به هو ، ولدى المتتلمذين عليهم من الطوائف الدينية المختلفة . وكان فى البدء على عداء عنيف للمسيحيين ، ثم تحول إلى صفهم على أثر أزمة نفسية لن نتعرض لها الآن بالتحليل التفصيلى ، بل نكتفى بالقول بأنها كانت نتيجة لصراع داخلى مبهم طويل . ولقد انتهت هذه الأزمة إلى رؤيا حاسمة ، حيث أيقن بولس أنه أبصر السيد المسيح أو تلقى منه كلمات واختص منه بالتشريف الأعظم : أن يكون من الحواريين ؛ وذلك خلال رحلة له قاصداً دمشق . ويجب أن نشير هنا إلى أن بولس لم يلتق بعيسى مدة حياته ؛ لذلك لم تكن تأملاته عن شخص الأستاذ وتعاليمه لتحدها آفاق الذكريات والواقع كما كان الحال بالنسبة إلى الاثنى عشر من الحواريين الذين بدءوا بالدعوة . ويجب أن نشير أيضاً إلى الصفات التى تميز بها بولس والتى كانت من أسباب نجاحه : الروح الحماسية الوثابة ، والمنطق البيِّن المدرب على المناقشة ، ثم التفكير العلمى الحى والعزيمة التى لا تقهر والتى تفرض فرضاً رسالة صاحبها وآراءه .

وإن هذه الآراء لتبدو لنا عميقة الأصالة ، إذا ما قورنت بتلك التى اكتفى بها إيمان الاثنى عشر – حتى بعد تطوراته الأولى . ولا أدل على ذلك من قراءة الفصول الأولى من « أعمال الرسل » بحذافيرها ، ثم قراءة « الرسالة إلى أهل روما » التى كتبها بولس . ويجب ألا تغرنا الظواهر ، فعبقرية بولس فى التفكير الدينى لا جدال فيها ، غير أننا إذا بحثنا هذا التفكير لديه ، وجدنا أنه ينطوى على آراء ومدركات ليست كلها من وحى عبقريته الخاصة ، بل تجمعت لديه

من مصادر مختلفة ، وإن كان له هو الفضل فى التعبير عنها ونقلها إلينا ، على غرار ما فعله فيلون الإسكندرى فى مؤلفاته التى انتظمت بين دفتيها جهود كثيرة لسابقيه من مفكرى اليهود .

والدراسة المفصلة لرسائل بولس الكبرى[1] تكشف لنا النقاب عن مزيج من الأفكار يبدو ، لأول وهلة ، غريباً حقًّا : مزيج من دعوى الاثنى عشر الأساسية ، ومن الأفكار اليهودية -- التى يرجع بعضها مباشرة إلى النصوص المقدسة القديمة ، ويرجع بعضها الآخر إلى اعتبارات دينية حديثة نسبيًّا -- ثم من المفاهيم المنتشرة فى الأوساط الوثنية اليونانية ومن الذكريات الإنجيلية والأساطير الدينية الشرقية .

وعلينا أن ندرس هذه المسألة فى شىء من التفصيل : فهى تتعلق بالأسس الأولى لأخطر جدال يثيره تاريخ العقائد المسيحية : الجدال حول تطور هذه العقائد ، من دعوة عيسى كما حددناها فى الفصول السابقة ، إلى دين يستهدف خلاص البشر أجمع .

والنظرة الأولى إلى الحياة فى الشرق الآسيوى -- من بحر إيجه إلى ما بين النهرين -- تبين أن عدداً معيناً من الآلهة كان يحتل مكان الصدارة فيها خلال العهد الأول لقيام المسيحية . وكانت بين هذه الآلهة أوجه شبه لا تحصى ، إلى درجة أنها امتزجت وتوحدت فى بعض الأحيان . وكان أهمها : أتيس فى بلاد الفريجيين ، وأدونيس فى الشام ، وملكارت فى فينيقيا ، ثم تموز ومردوك فى ربوع ما بين النهرين ، وأوزيريس بمصر . وعلينا أيضاً إذا أردنا الانصاف أن نذكر الإله الفارسى ميثرا ، الذى بدأت شهرته فى تلك العصور بين رحاب

---

(١) وأقصد بها الرسائل المعروفة التى يجمع أكثر النقاد اليوم على صحة نسبتها إليه .

الإمبراطورية الرومانية . وكان القوم الذين يرتحلون من إقليم إلى آخر ينقلون معهم عباداتهم وعقائدهم الدينية ، بل ينشرونها فى كثير من الأحيان خارج موطنهم ؛ ذلك أنهم كانوا يلقون ، أينما حلوا فى هذا العالم الآسيوى المتقارب ، مظاهر ومشاغل دينية شبيهة بتلك التى نشئوا عليها ، والتى عبروا عنها فى صور أسطورية واحدة ، وأرادوا تمجيدها بطقوس متقاربة كل التقارب فى غالب الأمر . وإننا لا نرجح نظرية نشوء هذه الأساطير وتلك الطقوس بعضها من بعض : إنها تشابهت لفيضها من نبع فكرى وروحى متشابه . وكانت هذه القرابة سبباً فى تسهيل المبادلات الكثيرة بين أصولها ، وفى الإسراع بالتداخل والتفاعل النشيط بين عناصرها ، فأصبحت تتسم بطابع « عائلى » قوى ، وإن ظلت هناك اختلافات بائنة بين القصص الإلهية التى تعتمد عليها جميعها . وقد نزع تيار الامتزاج هذا بين الأديان -- الذى يعرف بـ « التأليف » الدينى الشرقى -- إلى استخلاص بعض التصورات الهامة والشعائر الأساسية من ثنايا السيل الدافق لتفاصيل العقائد والطقوس التى تلاقت فيه وتفاعلت ، وتلك التصورات والشعائر هى التى نلمحها قبل كل شيء عند دراسة أى من العبادات التى ذكرناها آنفاً ، وهى تعتبر فى الواقع العلة الأولى الواضحة لوجود كل هذه العبادات بما تهدف إليه من هدى بنى البشر للإيمان وللسبيل الكفيل بتحقيق خلوده فى ديار السعادة .

وإن الخاصة التى تثير الانتباه أكبر من كل الخصائص الأخرى لآلهة المنطقة ، عند دراسة تاريخهم الأسطورى ، لهى تلك التى بمقتضاها يموتون فى موسم معين من السنة ، ثم يبعثون بعد ذلك فى موسم آخر ، فيشعلون فى نفوس المؤمنين بهم مشاعر الأسى العميق ، ثم يستثيرون لديهم مظاهر الفرح التى تكاد

تصل إلى حد الجنون . ونلاحظ ، إلى جانب هذا ، أن هؤلاء الآلهة ليسوا فى حد ذاتهم بالآلهة العظماء البالغين فى العظمة ، بل إنهم يشبهون البشر من قريب فى الكثير من أحوالهم – وذلك ، على الأقل ، إن نظرنا إلى تاريخهم الأول : فهم عرضة للفناء ، وبعضهم – أمثال أتيس الراعى ، أو أدونيس الذى يروى أنه ثمرة علاقات غير مشروعة بين أخ وأخت – لم يكونوا سوى رجالٍ ألهتهم إرادة الآلهة الآخرين ؛ ولم يرتفعوا شيئاً فشيئاً إلى مرتبة أعلى من مرتبتهم البشرية الأولى ، ولم يصلوا إلى مصاف الآلهة المهيمنة على الأرض ، إلا بفضل الأهمية الكبيرة التى أعطيت بالتدريج لوظائفهم بالنسبة إلى الإنس . وسوف نفصل فيما يلى السبل التى انتهت بهم إلى ذلك .

لقد ثارت مناقشات كثيرة مطوّلة حول أصل هذه الآلهة المختلفة ، وحول مبدأ ورموز الأساطير التى يمثلونها . والجدل ينحصر اليوم بين نظريتين فحسب ، وإن كانت الواحدة منها لاتلغى الأخرى : فإما القول بالآلهة « الشمسية » ، وإما التفسير بـ « المواسم الزراعية » . ولكن العلة الأولى فى كلتا الحالتين لايمكن أن تكون إلا تتابع الفصول المنتظم على مدار الزمن ، سواء نظرنا إليه من زاوية المدار الظاهرى للشمس أو من ناحية ظواهر نمو النباتات . وقد نبعت من انتظام الفصول تلك الأسطورة التى تزعم أن الإله يموت فى بدء الشتاء ، ثم يبعث على أبواب الربيع . وعلى هذا النهج يمكن القول بأن بعض الآلهة التى ذكرناها كانت ، فى الأصل ، آلهة «كوكبية » ، وكان بعضها الآخر ينتمى إلى فصيلة « آلهة الزراعة » . ولكن بمرور الزمن ، حدثت بين هذه الصور الأولى أنواع من التداخل الطبيعى ، فأصبحنا لانستطيع الوصول إلى اليقين دائما فى الأصل الأصيل أو الخصائص الأساسية للكثير منها .

والظـاهر أن ميثرا كان إلهاً شمسيًّا ، لذلك احتفل بمولده فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ، أى فى موعد الانقلاب الشتوى . ويبدو أن أوزيريس كان إلهاً قمريًّا ؛ ولعله لم يكن كذلك فى البدء . أما تموز ، فهو من آلهة الزراعة ، يقضى عليه قيظ الصيف وتحييه أول نسمات الربيع . وهكذا الحال بالنسبة إلى أدونيس ، وبالنسبة أيضاً – على ما نظن – إلى أغلب هؤلاء الآلهة الذين يموتون ثم يبعثون : فالعلاقة الواضحة بين حياة الشمس وحياة الأرض تفسر لنا فى يسر كيف تحول أرباب الزراعة إلى أرباب للكواكب . وعلى أى حال فإننا نلاحظ أيضاً أن أغلبهم على رابطة وثيقة بإلهة أم ، تتمثل فيها الأرض أو الطبيعة الخصبة ، وهى التى فى حجرها تربو أو التى منحتهم عطفها ورعايتها أو أحبتهم حب المرأة للرجل . . هكذا نجد « الأم الكبرى سيبيل » فى أسطورة أتيس ، وأفروديت بالنسبة إلى أدونيس ، وأشتار مع تموز ، وإيزيس إذا نظرنا إلى قصة أوزيريس . لذلك جمع الناس فى العبادة بين هؤلاء الأرباب وبين هاتيك الشخصيات الإلهية النسائية ، بل أقاموا لهم الشعائر فى معابدهن وكأنهم ضيوف لديهن .

ويهتم الدارسون إلى يومنا هذا بالطبيعة الأولى لبعض الآلهة ، ومازالت لهذه المسألة أهمية كبرى فى تاريخ الأديان . بيد أن الأمر الذى يهمنا فى المقام الأول هو الصورة التى رسمت والتفسير الذى أعطى للأساطير الخاصة بموت وبعث هؤلاء الآلهة . ونحن فى غالب الأمر نجد المعلومات التى نعتمد عليها متوافرة فى وصف الاحتفالات التى كانت تقام تكريماً لهم . وكل حفل منها يمكن أن يعتبر « مأساة » مسرحية فى موت الإله ثم بعثه . وقد تكون الطقوس مزدوجة ؛ وأقصد بذلك أنه كانت تقام احتفالات فى موسمين معينين من كل سنة . وفى

هذه الحالة يرتفع أحد الاحتفالين إلى مرتبة من الأهمية أعلى ، فى أعين الناس ، على حساب الثانى . هكذا كان الأمر مثلا بالنسبة الى الاحتفال الخاص بموت تموز فى تمام موعد الانقلاب الصيفى ، وكذلك الاحتفال بموت أدونيس ؛ وبين الإلهين المذكورين صفات مشتركة كثيرة تؤدى أحياناً إلى الخلط والاشتباه . أما بالنسبة إلى مردوك ، وإلى الآلهة الشمسية عامة ، فإن أهم الاحتفالين هو ذلك الخاص بانتصارهم أو بعثهم بعثاً جديداً . وعلى النقيض من ذلك قد نجد فى بعض الأحيان تجميعاً لعيدى الإله فى حفل واحد ، يقام فى الربيع أو فى الخريف ، ويبتدئ بنعى الإله الميت ، ثم لا يلبث الناس أن يمجدوا بعثه من جديد . ومثل ذلك الطقوس التى كانت تقام لموت وبعث أتيس فى النصف الثانى من شهر مارس مع حلول الاعتدال الربيعى .

(حـ)

تطورت أسطورة موت وبعث الإله هذه بتطور الشعور الدينى وإننا لانريد أن ندخل فى تفاصيل هذا التطور ، فمن شأنها – وإن حاولنا الاختصار قدر الإمكان – أن تخرجنا عن حدود الموضوع الذى يهمنا ، لذلك نكتفى بإثبات الصورة النهائية التى وصلت إليها .

وفيما يلى الخطوات المختلفة التى يسيرها الإله – فى مخيلة الناس إذ ذاك – للقيام بهذا الدور .

يتعذَّب الإله تماماً كما يتعذب الإنسان ؛ ثم يموت كما يموت الانسان ؛ ولكنه يتغلب على العذاب وعلى الموت ، إذ يبعث من جديد ، وأتباعه يمثلون

رمزاً ويجددون كل عام ، بشكل ما ، مأساة حياته على هذه الأرض ، وهم مع هذا يؤمنون بأنه يتمتع بحياة السعادة فى ديار الخلد الإلهية منذ ذلك اليوم الذى بعث فيه حقيقة فى الماضى السحيق . فمشكلة « النجاة » إذن بالنسبة إلى بنى البشر ، بعد أن شاركهم الإله فى ظروفهم الإنسانية بعذابه ثم بموته ، تتلخص فى الوصول إلى أعمق أعماق المشاركة المصيرية حتى تنتهى بهم أيضاً إلى البعث والحياة الأخرى فى ديار السعادة اللانهائية . والسبيل إلى ذلك وجدوه فى نوع من الطقوس المسرحية التى تنحو نحواً باطنيًا ، فيفرض فى المؤمن أنه يشارك فى الذات الإلهية بواسطة سلسلة من المراسم الدينية توصف بالفعالية . إنه يمر رمزيًا بمختلف مراحل التجارب التى مرّ بها الإله . وبهذه الوحدة مع الإله ، التى تغير كيانه الخاص ، يضمن الإنسان أن يصير إلى مصير الإله نفسه ، أى أن الخلود ينتظره بعد محن الحياة الدنيا وبعد الموت . وكان مصير « المنقذ الإلهى » – وتلك هى الصنعة التى يتخذها حينئذ آلهة الموت والبعث – كان مصيره فى آن واحد مثالا وضماناً لحياة المؤمن ، وقد وصف لنا « فرميكوس ماترنوس » – وهو أحد الكتاب المسيحيين من القرن الرابع – احتفالا ليليًا من الاحتفالات التى كانت تقام لمثل هؤلاء الآلهة ، « الآلهة المنقذين » ، قال : « يبكى الناس ، ويستسلمون للرعب من المصير المجهول الذى ينتظرهم فى المستقبل اللانهائى ويدخل الرجل الساحة ثم يمر بكل كاهن ، ليلمس صدره حسب شعائر معينة ، وهو يهمس إليه فى بطء بالكلمات القدسية التالية : » لتعد الثقة إلى نفسك ، فقد نجا الإله . ولسوف تصل أنت أيضا إلى النجاه فى نهاية طريق الآلام » .

ونحن لانعلم على وجه التحديد كيف كانت الوحدة تتم بين المؤمن و « المنقذ » فى عبادات مختلف الآلهة المنقذين . ولكننا على يقين من أن هذه

الوحدة كانت هى الهدف فى سائر تلك العبادات ، من وراء بعض الطقوس التى نخص منها بالذكر طقسين يثيران الانتباه عند أول وهلة ، وهما : التعميد بالدم ومأدبة القربان .

وإننا لنجد فى عبادة الفريجيين للإلهة سيبيل وللإلهة أتيس ، كما نجد فى بعض الديانات الآسيوية الأخرى المختلفة ، وفى تلك التى تؤمن بالإله ميثرا ، نوعاً غريباً من الطقوس ، يدخل ضمن مدارج المعرفة الباطنية التى يختص بها الأتباع المخلصون ، ويدعى بـ « التوروبول » ، أى : التضحية بالثور[1] . ويحفر من أجله خندق داخل أسوار المعبد ، فينزل فيه المريد ، ثم تسدل عليه شبكة يذبح عليها ثور – حسب شعائر معلومة – وينهمر الدم فى الحفرة ، فيتلقاه الذى بها ويحاول أن يغمس فيه سائر أعضاء جسده . وبعد إتمام هذا النوع من التعميد ، تنزع أعضاء الذكر من الأضحية ، وتوضع فى إناء مقدس ، ويتقدم بها السالك قرباناً للآلهة ، ثم تدفن تحت هيكل تذكارى .

ولم تكن هذه الطقوس تتعلق فى الأصل بحياة المؤمن المستقبلة ؛ بل هدفت أول الأمر إلى منحه بعضاً من روح سيبيل وأتيس ، وقد اختص الأخير فى العبادة السائدة بتنظيم الطبيعة . ولايختلف هذا عما كان عليه أهل اليونان فى عبادتهم للإله ديونيزيوس الذى افترضوا له طقوساً لاتقل غرابة اليوم فى نظرنا ، وكانت تهدف إلى مشاركة الأتباع فى روحه الخصبة عند دخولهم دينه .

ولكن ، مع بداية العصر المسيحى ، أثرت تيارات دينية وفكرية ، يصعب علينا تمييز معالمها وتحديدها ، على شعائر التضحية بالثور ، فطورتها فى نهاية الأمر إلى وسيلة فعالة لكسب الخلود فى الحياة الأخرى حياة السعادة . وموجز تفسير

(١) أو الـ « كريوبول » عندما تكون الأضحية كبشا .

هذا المذهب : أن الحفرة تمثل مملكة الأموات ، وإذا ما نزل إليها المريد فكأنه مات . والثور هو أتيس ؛ أما دماؤه فتمثل جوهر حياته الإلهية ، ينزف منه ، فيتلقاه المريد ويتشربه ويمتزج به ، حتى إذا خرج من الحفرة عُدَّ « مولوداً من جديد » فسقى اللبن كما يسقى الوليد[1] . ولكنه لم يولد من جديد بشراً كما كان بل هو قد تشرب بذات الإله فى جوهره ، وأصبح بدوره – حسب أدوار السر المقدس – إلهاً هو نفسه أتيس ، وتقدّم له الفروض على هذا الاعتبار . ثم عليه بعد ذلك أن يتحد مع الإلهة سيبيل كما فعل أتيس ، زوجها ، فى سيرته الإلهية ؛ والتقرب إليها بتقديم أعضاء الذكر من الثور يرمز إلى هذا الزواج الذى يتم روحيًّا فى حجرة العرس الخاصة بـ « الأم الكبرى » ؛ كما أن قطع الثور يرمز إلى ما فعله أتيس ، إذ يروى أنه خصى نفسه تحت شجرة فمات من ذلك .

وبهذا يضمن المؤمن – لفترة طويلة[2] مشاركته فى مصير أتيس ، بالموت الذى لا مناص منه ، ثم بالبعث فى ديار السعادة والخلود مع الآلهة .

وإن الكثير من ديانات هؤلاء الآلهة المنقذين الشفعاء – أمثال ميثرا ، وبعل السورى ، وسيبيل ، وغيرهم – كان يجدد الاتحاد المنجى المترتب على الشعائر والطقوس المذكورة ، أو يدعمه ويقويه ، بواسطة مآدب خاصة يتناول المؤمنون الطعام فيها جماعة على موائد الإله ، ولا نشك فى أن هذه المآدب الدينية لم تكن

---

(١) نقرأ فى بعض النصوص : « طقوس التوروبول والكريوبول مولد جديد فى الخلود » . والنص إن أردنا الإنصاف من عصر متأخر (القرن الرابع الميلادى) إلا أنه يعبر تعبيرا واضحا عن الهدف الأعظم من المراسم الخاصة بالتضحية .

(٢) يبدو أن التضحية بالثور كانت تجدد بعد مرور عشرين عاماً (هكذا على أى حال كان الأمر فى السنين الأخيرة للإمبراطورية الرومانية) .

فى كثير من الأحيان إلا تعبيراً عن التآخى بين المؤمنين ورمزاً بحتاً لذلك . غير أن أحد الباحثين فى مثل تلك الأمور ، وهو كومون ، يقول لنا : «كان الناس فى بعض الحالات يترقبون نتائج أخرى للمأدبة التى يشتركون فيها . كانوا يطعمون لحم دابة يعتبرونها إلهية ، ثم يظنون أنهم بذلك توحدوا مع الإله نفسه وشاركوه فى جوهره وصفاته » . وإننا للأسف لا نملك إلا القليل من المعلومات التفصيلية عن هذه المآدب الدينية وعن طقوسها وألوان الأطعمة التى كانت تقدم فيها ، وإن كان مغزاها العام واضحاً كل الوضوح . وقد نقل إلينا جوستين ، وهو أحد المدافعين عن المسيحية فى القرن الثانى الميلادى ، أن « أسرار » ميثرا احتوت على نوع من الشعائر يفرض تقديم كأس من الشراب وقطعة خبز إلى المؤمن ، مع النطق ببعض العبارات المعروفة آنذاك والتى لم يوضحها الكاتب .

وتنقل إلينا النصوص كذلك أن « أسرار » سيبيل وأتيس كانت تفرض على الاتباع المشاركة فى مأدبة صوفية ، يصرح لهم بعدها بأن يعلنوا : « لقد أكلنا مما احتواه السنطور ، وشربنا مما كان فى الصنج ، فأصبحنا من أتباع أتيس » . والسنطور آلة موسيقية اختصت بها سيبيل ، فى حين اختص أتيس بآلة أخرى هى الصنج . وهناك من الدلائل ما يرجح أن الأطعمة المقدسة التى كانت توضع فى هاتين الآلتين هى الخبز ثم -- على وجه الترجيح -- لحوم الأسماك المقدسة والخمر . ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أن أتيس كان يمثل بحبوب القمح ؛ ولذلك نرجع الرأى القائل بأن مآدب القربان التى ذكرناها لا تعنى فقط الجلوس إلى موائد الإله وتناول الأطعمة التى يفترض أنها لا تعنى فقط الجلوس وإنما تذهب فى رمزيتها إلى أبعد من ذلك : إنها تعنى بالنسبة إلى المؤمنين « طعامهم الإله نفسه » وتشربهم بجوهره المنجى .

هل نحن بحاجة إلى إيضاح أوجه الشبه الساطعة بين هذه الطقوس والشعائر المختلفة – وإن كانت النظرة إليها عاجلة سطحية – وبين طقوس وشعائر التعميد والقربان عند المسيحيين؟ إن كبار رجال الكنيسة من القديس بولس إلى القديس أغوسطين ، أى من القرن الأول إلى القرن الخامس الميلادى – لم يتجاهلوا هذا التشابه ، وهناك من الشواهد عدد وفير يدل على شدة اهتمامهم به . إلا أنهم فسروه حسب أهوائهم ، فقالوا : إن الشيطان أراد أن يتشبه بالمسيح ، وإن شعائر وطقوس الكنيسة كانت مثلا أراد المشركون أن يحتذوه فى « أسرارهم » . وتلك نظرية لايمكن الدفاع عنها فى عصرنا الحاضر . فمن المرجح أن المسيحية أثرت فى كثير من الأحوال على أديان المشركين التى كانت مثلها تهتم بتأمين النجاة فى الخلود لبنى البشر بواسطة شفيع إلهى ؛ إلا أن الأساطير الجوهرية والمراسم الدينية الأساسية والرموز والشعائر الفعالة ، كانت سابقة فى تلك الديانات على مولد المسيحية ، وكانت تجد العديد من التطبيقات فى العبادات المنتشرة بالعالم اليونانى إبان العهد الذى عاش فيه القديس بولس .

ولنذكر القارئ بأن الأمر لا يتعلق بطقوس وشعائر معينة فحسب ، أنه يذهب إلى مدى أبعد من ذلك . يذهب إلى نوع من التصوير للمصير الإنسانى ولخلاص البشر ، ثم يرمز إلى الإيمان والاطمئنان المرتبطين بـ « السيد الالهى » الذى يشفع للإنسان عند الإله الأعظم ، بعد أن ارتضى هذا « السيد الالهى » لنفسه أن يعيش وأن يتعذب كالإنسان ، حتى يصبح بنو البشر قريبين إليه لدرجة تسمح لهم بالاتحاد معه ، فيكون فى ذلك طريق نجاتهم حيث يرتبط مصيرهم ومستقبلهم بمصيره ومستقبل انتصاره . وتلك هى بالذات عقيدة القديس بولس فى رسالة ودور السيد المسيح ، ولم تكن بالعقيدة الغريبة على الناس ؛ بل هى لم

تتميز كذلك بالعنصر الأخلاقى فيها ، وإن كانت قد بالغت فى إظهار أهميته . ونعنى بالعنصر الأخلاقى : الاشتراط على المؤمن باتباع حياة لا تتصف بالتقوى فحسب ، بل أيضاً بالطهر والكرم والرحمة . فالعبادات الأخرى عند المشركين كانت تفرض أيضاً على أتباعها مثل ذلك من الأخلاق ، وإن لم تبلغ فى التشدد فيها ما بلغته المسيحية .

(د)

ولكن هل أتيحت الظروف المواتية لبولس كى يتعرف على الأفكار الجوهرية والطقوس الأساسية لهذه « الأسرار » فى العبادات السائدة ثم يتأثر بها ؟ ذلك هو السؤال الذى يتبادر إلى ذهننا الآن .

إن المعلومات التى وصلت إلينا عن الحياة الدينية فى موطنه ، طرسوس ، خلال العصر الذى عاش فيه ، ليست بالمعلومات الوافية ولكن الآثار تدل دلالة قاطعة على أنه كان بها إلهان لها مكانة خاصة .

الأول يدعى « بعل طرز » ، أى « سيد طرسوس » ، وهو الذى قرن أهل اليونان بينه وبين زيوس .

والثانى « ساندان » الذى قرنه أهل اليونان أيضاً بهرقل .

والإله الأول ، على أرجح الظنون ، كان إله زراعة قديماً ، يتحكم فى خصوبة الأرض . فلما انتقلت عبادته إلى المدينة وقرن شيئاً فشيئاً بزيوس ، ارتفعت مكانته ، واتخذ شكل وصفات إله السماء وسيد الآلهة ، وأصبح عرشه يعلو عن كل ما يمكن أن يبذله أتباعه من مساع لإدراكه ، أو هو يوشك أن يكون كذلك .

أما ساندان ، فقد بقى قريباً من المؤمنين به ، بل يكاد يكون ملموساً لهم. وإننا لنخرج ببعض القضايا المؤكدة من خلال دراستنا للوثائق القليلة التى وصلت إلينا عنه ، ومن المناقشات والنظريات التى أثيرت حولها.

كان ساندان هذا فى الأصل إله خصوبة أيضاً ، أو – بصورة أعم – إله زراعة . وكان الناس يحتفلون به كل عام ، فيتظاهرون بإحراقه ، ويزعمون أنه يرتفع بعد ذلك إلى السماء . وكان ، إذن ، يمثل بين أهل طرسوس المعتقدات المتمثلة خلال هذا العصر فى أتيس بين الفريجيين ، وفى تموز بين أهل بابل ، وفى أدونيس بالشام ، وأوزيريس بمصر ، وغيرهم من الآلهة المشابهين فى بلاد أخرى . بل نرجح أن عبادة ساندان كانت تبنت منذ ذلك الوقت بعض الأفكار من دين أو أكثر من هذه الأديان.

ولكن هل أخذت كذلك عن تلك الأديان مذاهب المعرفة الباطنية وطرق الوصول إلى النجاه الخاصة بها ؟ وهل يعدّ ساندان أيضاً « منقذاً » ؟ إنه لسؤال مزدوج لا يمكن الرد عليه حتى يومنا هذا ردا فاصلا . فليس هناك من الوثائق ما يثبت فى وضوح أنه كانت تقام له « أسرار » ، أو أنه كان يسمى بـ « المنقذ » . ولكننا نلاحظ أن آلهة الزراعة الآخرين الذين يموتون ويبعثون ، كانت لهم « الأسرار » وكان أتباعهم يرون فيهم وسطاء بين البشر والإله الأعظم ، ويعدونهم شفعاء و « منقذين » . وهذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن ساندان لم يختلف عنهم . وعلى أى حال لو لم ير بولس من مظاهر عبادته سوى الطقوس السنوية لتمجيد موته ، لكان ذلك وحده أمراً بالغ الأهمية.

ثم علينا أن نتساءل : هل كانت هناك عبادات أخرى ذات « أسرار » بطرسوس فى بداية قيام المسيحية ؟ إننا نرجح ذلك ، بسبب موقع المدينة على

مفترق طرق التجارة ، تلك الطرق التى كان الناس ينقلون بين أطرافها الأفكار والمعتقدات إلى جانب السلع والبضائع . ومع هذا يجب علينا الحذر فلا نقطع فى المسألة دون تحفظ . وإن قرب طرسوس من بلاد الفريجيين وصلاتها بالشام ، ثم علاقاتها الدائمة بفينيقيا وروابطها مع مصر ، كل ذلك يكاد يفرض علينا القول بأن أهل طرسوس كانوا على علم بروح « الأسرار » المنتشرة فى مختلف هذه البقاع ، وموضوعاتها الأسطورية الهامة وآمالها الأساسية ، ثم بأنهم أقاموا لأنفسهم بعضاً من شعائرها الأساسية فى شيء قليل أو كثير من الاهتمام . والعالم القديم يعرض علينا تيارات متصلة من مثل هذه المبادلات فى المجال الدينى .

وإن لنا لملاحظة أخرى تؤيد ما نذهب إليه فى هذا المجال : تلك هى أن النزعة التأليفية التى تخلط أو تمزج أو تزاوج بين الآلهة ذوى الصفات أو الوظائف المتشابهة ، تلك النزعة قد ظهرت فى طرسوس بوضوح ومنذ زمن بعيد . ولعلنا نستطيع أن نعتبر هذه الظاهرة أبرز وأوثق ما وصل إلينا عن الحياة الدينية للمدينة . وإنا لنعلم إلى جانب ذلك أن العنصر الرئيسى فى نمو « الأسرار » هو النزعات التأليفية .

فمن المرجح إذن إن لم يكن من الثابت تاريخيًّا ، أن بولس تدرج فى نشأته الأولى بين أحضان بيئة مشبعة تماماً بفكرة « النجاة » هذه ، القائمة على شفاعة أو وساطة إله يموت ثم يبعث ، ويشاركه أتباعه فى مصيره ، إذ يتحدون به – لا بالإيمان المطمئن القوى فحسب ، ولكن أيضاً بالطقوس الرمزية الفعالة . وإننا لنكاد نميل هنا إلى القول بأن تلك الطقوس كانت تعدّ العنصر الأساسى فى وصول الأتباع إلى مرادهم . ولم يكن من المفروض حتماً على المرء أن يدخل فى عداد السالكين حتى يتعرف على هذه المفاهيم الدينية وعلى دلائل شعائرها ، أى

حتى يتحقق من وجودها ومما تنطوى عليه من رموز ؛ فأهم ما كان يخفيه الأتباع ويكتمونه عن عامة الناس ليس مبادئ إيمانهم وآمالهم ، وإنما هو « السر » الأعظم الرهيب الذى يعتقدون أنه يحول كيانهم ويطوره تطويراً .

وكذلك لم يكن من المحتم على المرء بطرسوس فى هذا الزمن أن يتخذ مكاناً فى حلقات الفلاسفة إن أراد تحصيل بعض مبادئ المذاهب التى يدرسونها ، فقد كانت طرسوس ، فى عهد الإمبراطور أغسطس ، مدينة تتحكم فيها جامعتها ، ولهذا كان أهلها يعلقون أهمية كبرى على كل ما يصدر عن أساتذة هذه الجامعة . ويبدو أن هؤلاء الأساتذة كان أغلبهم من الفلاسفة ، وأنهم كانوا ينتمون إلى المدرسة الرواقية . وسائر الدلائل تشير إلى أن الكثير منهم كانوا قد سبقوا إلى انتهاج نمط من التدريس الشعبى يبغون بها تعريف الجماهير بفلسفتهم ودعوتهم إليها ، ويذيعون فيها أحكامهم الأخلاقية الأساسية وشيئاً كثيراً من مصطلحاتهم الفنية . ويجب علينا ألا ننسى هذه الظروف عند قراءتنا لرسائل بولس التى نجد فيها آثاراً من الرواقية تكثر فى الشكل وتظهر فى المبادئ أحياناً . وقد تصور بعض السابقين ، عندما لاحظوا هذه الآثار ، أن داعية المسيحية كان قد اتصل بالفيلسوف سينيك ، وتبادل معه الرسائل الكثيرة . وأن هذا الاختراع الساذج لا يبرز موضوع الجدل فى إطاره الصحيح مثلما يبرزه الحديث عن خصائص وأهمية الحياة الفلسفية بطرسوس . لقد عاش بولس فى وسط أشبع بأفكار الرواقيين وبلاغتهم . **وهذا[1] المثل الثانى لتأثير البيئة التى عاش فيها سنى طفولته وشبابه الأول على الأقل** ، هذا المثل ينير جوانب المثل الأول[2] ، ويتم توضيح

(١) الفلسفة الرواقية .

(٢) مفاهيم الأسرار

السبل التى بوأسطتها تلقى يهودى من يهود المهجر ، هو بولس -- بطريقة تكاد تكون لاشعورية -- مفاهيم « الأسرار » والفلسفة الرواقية ، فثبتت فى أعماق فكره ، وكانت لها ثمار لم يتبينها هو نفسه إلا بعد ذلك بسنين كثيرة

وهناك ، على أى حال ، تساؤل آخر مازال ينتظر فصل القول ، وقد يكون فى الإجابة عنه عنصر هام من المعلومات الملازمة للتعرف على ذلك التطور الغامض فى سيرة بولس الدينية : هل كان كل يهود طرسوس من المتمسكين بالشريعة اليهودية والمتشددين فيها ؟ أو كانوا على العكس من ذلك يفتحون أبواب معابدهم فى صورة ما لمؤثرات البيئة التى يعيشون فيها ؟ ثم : ألم توجد من بينهم طائفة استسلمت لتيارات التفاعل بين الأديان الذى تحدثنا عنه سابقاً والذى دعا فى بعض الأحيان ، على ما يبدو ، إلى تطوير الأمل القومى فى الانتصار وهو حلول مملكة الله نحو مذهب « النجاة » ، ولو ثبت هذا ، ونحن نميل إلى ترجيحه وإن كنا نجهل حقيقة الأمر -- لما دعينا قط إلى افتراض أن بولس قد اتصل بهؤلاء اليهود المنحرفين ، بل قد يمكننا القول ، إن أردنا ، بأنه كان يكرهم كل الكراهية ، وذلك اعتماداً على ما تشير إليه « أعمال الرسل » من تشدده وتشدد عائلته فى دين أجدادهم . إلا أنه لم يكن ليتجاهلهم ، بل هو قد استقى منهم الرأى فى « النجاة » وفى « المنقذ » . ولو تأكد لدينا بصفة قاطعة أنه تأثر بهم فى شبابه ، لقلنا : إن ذلك كان العنصر الأساسى ، أو -- إذا شاء القارئ -- البذرة الأولى ، فى تطور عقيدته .

ومهما يكن فصل الخطاب فى هذه المسألة الأخيرة ، فإننا -- على أى حال -- نستطيع تأكيد حقيقة لايمكن الجدل فيها ، تلك هى أن طرسوس لم تصبح بمحض المصادفة مهداً لـ « الحوارى المرسل إلى المشركين » ، أى للرجل الذى

ساهم بأكبر قسط فى نشر دين جديد للنجاة باسم المسيح عيسى ، وإنما كانت كذلك نتيجة لعوامل متعددة .

ومن ناحية أخرى ، فإننا حين ننظر إلى ملكات بولس العامة فى التبشير ، حسب أساليب يونانية – رومانية ، بعقيدة يهودية الأصل ، نجد أنه كان فى وضع يلائم تحقيق عمله كل الملاءمة ، فقد جمع بين مميزات ثلاث جعلت منه أقدر الناس على القيام بهذا الدور : كان يونانيًّا ، وكان يهوديًّا ، ثم كان أيضاً رومانيًّا .

وعندما نقول إنه كان يونانيًّا ، فإنما نقصد بذلك أنه أشرب فى بيئة طرسوس شيئاً من الروح الإغريقية بطريقة تكاد تكون لاشعورية ، وأنه لقن اللغة اليونانية ، فمنح بذلك أقوى أداة للفكر وللعمل ، وأيسر الوسائل فى عصره للتعبير عن الرأى والدفاع عنه . وعلينا ألا نبالغ فى الأمر بطبيعة الحال : فلم يكن بولس بالأديب اليونانى ، ولم يتخرج على أيدى أساتذة المدارس الكبرى فى مدينته ، كما لم يقم بدراسة مستفيضة لـ « الأسرار » . غير أنه عاش فى وسط يتحدث باليونانية ويستخدم كلمات مثل : « الله » ، « عقل » ، « منقذ » ، « منطق » ، « روح » ، « ضمير » ، فلم تكن بالكلمات الغريبة عليه بعد ذلك ، ويمارس نوعاً من فن البلاغة استطاع به أن يطوع أساليبه القوية الملفتة . وكان هذا الوسط يهتم بفلسفة معيّنة بقيت بعض أحكامها والكثير من مصطلحاتها الفنية فى ذهن داعية المسيحية . وكان كذلك وسطاً يتعلق عامة بأنماط من الأمل فى حياة أخرى تعقب الموت ، ويسعى إلى تحقيقها بل يؤمن أنه يحققها ، بوسائل مختلفة ، ولم يكن بولس ليجهل هذه الآمال ، ولاليعمى عن المظاهر الأساسية للوسائل المستخدمة من أجل تحقيقها . وقد قيل إن الروح اليونانية ليست بالعنصر

الأول فى شخصية بولس وإن كان يهوديًّا قبل أن يكون يونانيًّا ، والقائلون بذلك على صواب ولاشك فى دعواهم هذه . إلا أنه كان – وهذا أمر يجب أن نذكره دائماً « يهوديًّا من مدينة طرسوس » . ويبدو من المؤكد اليوم أنه إن لم يكن قد ارتقى إلى أرفع مراتب الثقافة اليونانية – وكانت بمتناوله فى رحاب مدارس وطنه – فقد تدرج فى الثقافة اليهودية لهذا العصر حتى بلغ منها منتهاها . وكانت هذه الثقافة تنحصر فى الدراسة المتبحرة للنصوص المقدسة . وسبق أن ذكرنا فى هذا الصدد سطوراً من مجموعة « أعمال الرسل » (٢٢ / ٣) تقول على لسان بولس ، إنه ربى على أعتاب جماليال ، أى : بالقدس فى مدرسة حفيد العالم الكبير حيليل . ونكرر هنا أننا لا نثق كثيرا فى هذا الادعاء ، بل نعتقد أنه يبعد بنا عن الحقيقة . ومع ذلك فمن المسائل التى لا تقبل الجدل أن رسائل بولس تشهد بمعرفة للنصوص المقدسة مماثلة لما اعتدنا عليه من معرفة علماء اليهود بها ، ويتضح من خلال هذه الرسائل روح مؤلف أخذ الكثير من الفريسيين فى تكوينه الفكرى : فهو يعشق الجدل ويمتاز بالبصيرة النافذة المدققة وبالدهاء الشديد فى تقديم البراهين أو هدمها ، كما نراه يهاجم الشريعة اليهودية بنفس الأساليب التى استخدمها من قبل فى الدفاع عنها . ويتضح فى رسائله أيضاً أنه يعتمد على رصيد من المذاهب – حول طبيعة الإنسان وفكرة الإثم والعلاقة بين الإثم والموت – لا تقل فى اتصالها بروح علماء اليهود ، عن مناهج الجدل التى طرقها .

ومن الظواهر ذات الدلالة العميقة أنه كان ، فيما يبدو ، يعتمد اعتماداً دائماً على الترجمة اليونانية للتوراة ، المسماة بـ « السبعينية » . وغالب الظن أنه كان يقرأ أيضاً الأصل العبرى ، ولكننا لانجزم بذلك . وعلى أى حال فهو لايكاد يشير فى كتاباته إلى نص لها غير ذلك النص الإسكندرى الذى أشرب به

فكره[1] . وتلك الملاحظة على الأخص تدعونا إلى الاعتقاد بأنه لم يدرس النصوص المقدسة فى مدينة القدس ، ولكن فى إحدى المدارس اليهودية بالمهجر ، وإننا لنشير هنا إلى انطاكيا وهى غير بعيدة من طرسوس . وكانت المركز الفكرى الأكبر لآسيا اليونانية وميدان التلاقى أو التجمع للمذاهب والمعتقدات المتشابهة أو المختلفة .

ولم يكن غير اليهودى فى هذا العصر يهتم بدعوة عيسى . ولم يكن غير اليونانى يستطيع أن يمد فى أبعاد هذه الدعوة حتى يبلغ بها حدود العالمية وأن يبث فيها بذور الخصوبة . ونعنى بطبيعة الحال : ذلك اليونانى الذى لا يحد أفق فكره تعصب لثقافة مدرسية معينة ، والذى يأخذ من العالم الإغريقى نزعاته الدينية وصبوات إيمانه ، فيشارك فيها أكثر مما يشارك فى الاتجاهات الفكرية به .
وقد جمع بولس بين اليهودية واليونانية ، ثم أضاف إليها ميزة ثالثة غالية هى تمتعه بالجنسية الرومانية ، أو بتعبير أدق : حصوله على صفة « المواطن الرومانى » . وكانت تلك الميزة ذات نفع كبير متعدد الجوانب : كانت تحميه من الانزلاق إلى تعصب يهود فلسطين القومى الذى اتصف بضيق الأفق وكراهية الأجنبى ، وكانت تدعوه إلى العالمية فى التفكير والعمل ، ثم كانت هى السبب الذى اتخذه -- وهو لايكاد يشعر -- ليرتفع بالأمل -- الذى ظهر بين طائفة محدودة من اليهود -- إلى مرتبة الأديان الإنسانية .

لذلك كله نستطيع وصف بولس بأنه كان « منشئ المستقبل » .

---

(١) كان يهود المهجر يعتبرون أن النص « السبعينى » منزل ، تماماً كالنص العبرى ، وتلك نظرية فرضها عليهم حرصهم الدينى ، وتعتمد على ما يروى من التشابه التام بين اثنين وسبعين ترجمة للنص قام بها اثنان وسبعون مترجماً . ومن الواضح أن مثل هذا التوافق لم يكن ليتم إلا بفيض من الله ! !

الفصل الخامس

التكوين المسيحى لبولس

(ا) كيف ربى بولس تربية مسيحية - صعوبة تحديد ابعاد هذه التربية - كيف كانت معاملته القاسية للمؤمنين أول تمهيد لإيمانه - لم يكن للحواريين أثر على بولس ، ولكنه وقع تحت تأثير مجتمع مشبع بالروح اليونانية .

(ب) إيمان هذا المجتمع الهيلينستى : كيف انتشر خارج القدس وانتقلت معه صورة إيمان الحواريين - كنيسة أنطاكيا : أهميتها ، روحها ، مفهوم المسيحية لديها ، فكرة « السيد عيسى » ، دورها عند بولس ، الأصول اليونانية فيها - عبادة « السيد » ووجوده فى مجتمع بولس - عقيدة « الإله المنقذ » فى المجتمع الهيلينستى الأول وعند بولس .

(جـ) الأدوار التى نرجح أن بولس مر بها فى تحوله إلى المسيحية - كيف تصور بولس نفسه هذا التحول - الصورة التى نرجح أنها تطابق ماكان من حقيقة أمره - كيف نبعت رسالة بولس واتجاهاتها من هذا التحول .

(١)

من الخطأ برغم ما تقدم من حديثنا ، أن ننسب إلى بولس وحده ذلك المجهود الضخم الذى انتهى إلى غرس دعوة الحواريين فى ربوع العالم الهيلينستى . ونحن نكرر القول بأن أصالته ليست محل شك لدينا ، وأننا لا نجد مبالغة فى وصفها بالأصالة العبقرية : فقليل من بنى الإنسان من امتازوا بمثل ما امتاز به من روح وثابة ملتهبة ، وعشق عنيف للعمل ، وإحساس حاد بكل ما يقتضيه هذا العمل من أوجه نشاط ، ثم من قدرة خارقة على تطويع الآراء والمذاهب وتحويرها لخدمة أغراضه ، كل ذلك فى إطار عام يمتاز بالإبداع والخصوبة — تصوغه موهبته التعبيرية ، وإن كان من الواضح أن هذه الموهبة لديه تفتقر أحياناً إلى التكامل والانسجام بين عناصرها المختلفة. ولكنه مع ذلك لم يخترع كل ما قاله ، وإنما وقع تحت تأثيرات معينة حددت معالم الطريق فى تحوله الدينى ، وجعلته ينقلب فجأة من متعصب للشريعة اليهودية إلى نصير لا يقهر للسيد المسيح . ولقد تلقى تربية مسيحية . ونعنى بذلك أنه اتصل بأشخاص معينين قدموا إليه صورة معينة لشخصية عيسى ولدعوته ، وأنه اتخذ هذه الصورة المعينة أساساً لما أسماه بـ « إنجيله » . فهل اكتفى بنقل ما أخذه عنهم فى رسائله وأحاديثه ، أو طوّره حسب ما رأى وأحس وقدر ؟ وإن أخذنا بالرأى الثانى ، فما أبعاد التطوير الذى أدخله على الصورة الأولى ؟ إنه من العسير علينا أن نجيب عن هذه التساؤلات فى شىء من الدقة ، ولكننا نستطيع على الأقل ، أن نحصر مجالاتها وأن نصل إلى بعض الاحتمالات ولم يعد فى الإمكان اليوم أن

تحدد تلك الصلات التى قامت بين بولس وبين أتباع عيسى قبل الأزمة التى جعلت من الأول أكثر المؤمنين حماسة . ولقد ثار جدل طويل لم ينته إلى نتيجة حول التأكد من أن بولس « رأى » عيسى . والقضية التى ثبتت لنا على أى حال هى أنه : لم « يعرفه »[1] . وإن النصوص التى تحوز أكبر قدر من الثقة فى هذا المجال . وهى رسائل بولس نفسه ، تقدمه لنا على أنه كان من مضطهدى «كنيسة الله » قبل أن تحدث معجزة طريق دمشق . وإن تفاصيل ما ترويه لنا « أعمال الرسل » (٥٨/٧ ، ١/٨ - ٣ ، ١/٩ - ٢) عن عنفه فى الشر لتبعث على الشك ، ويبدو لنا من المرجح أن الغرض منها لم يكن إلا إبراز تحوله المفاجئ عن هذه العداوة الشديدة فى صورة براقة . ولكنه بقى من الثابت لدينا أنه بدأ حياته بالكراهية لهؤلاء الحمقى الذين اتبعوا رجل الجليل المصلوب . وأنه أوضح لهم كراهيته هذه بالقول والعمل قدر ما استطاع . إنه يكره هذا المجتمع المسيحى الأول ، ولكنه يتصل به ويتعرف عليه ، فقد يحكم بالحماقة على إيمان هؤلاء الرجال الذين كانوا محل اضطهاده ، ويرى هزالا شديداً فى آمالهم ، ولكن عوامل أخرى تتفاعل فى الوقت نفسه بصورة غامضة فى أعماق فكره ، فتقارن بين بدع أهل الجليل وادعاءاتهم ، وبين مزاعم دعاة الاتجاهات التأليفية - من مشركين أو يهود - فى طرسوس أو فى انطاكية ، تلك المزاعم التى لم يصدق بها أكثر مما صدق بدعوة أصحاب عيسى . ولسوف ينبثق النور بالنسبة إليه من المقارنة ومن التقريب ثم من تأويله للأمر على أساس تقويمه للدين اليهودى .
والشيء الذى يبدو لنا غير قابل للجدل هو : أن تطور بولس نحو المسيحية لم

---

(١) يدور الجدل كله حول الكلمات التالية من الرسالة الثانية إلى الكورنثيين (٥ / ١٦) أ « إن كنا قد عرفنا المسيح بالجسد ، فنحن اليوم لم نعد نعرفه » .

يتم بالقدس وأن مذهبه لم ينشأ من الاتصال بالحواريين الاثنى عشر. ولم يخرج الكاتب الألمانى «هايتمولير» عن جادة الحق عندما ماكتب فى مقال عن بولس وعلاقاته بعيسى: «إن بولس لم يتأثر بعيسى عن طريق المجتمع المسيحى الأول، ولكن الأثر انتقل إليه بواسطة حلقة أخرى من حلقات سلسلة المتوارثات التى يمكن ربطها كما يلى: عيسى، المسيحى الأول، المسيحية الهيلينستية، بولس».

ولم يكن بولس بمؤسس المجتمع المسيحى الأول فى المهجر. و «أعمال الرسل» (١٩/١١) تشير إلى إقامة بعض الطوائف من الذين اعتنقوا دين عيسى بين الجاليات اليهودية بفينيقيا وقبرص وانطاكيا. ولا تدين هذه الطوائف بشىء لبولس. كذلك لم يكن له أى فضل فى تأسيس الكنيسة الأولى بروما. ومن المرجح أن تحول بولس سوف يبدو لنا أقل غرابة لو تعرفنا، بصورة أكثر دقة، على هذه المجتمعات المسيحية الأولى فى بلاد المشركين، تلك المجتمعات التى كانت عقيدتها اليهودية دائماً أكثر مرونة من عقيدة أهل فلسطين وأكثر اتصالا - بل قوية الاتصال - بتيارات التأليف بين الأديان؛ ولا نشك فى أنها طورت من ادعاءات أصحاب عيسى قبل اعتناقها. ولكننا للأسف لا نجد أمامنا إلا طريقاً واحداً، هو محاولة «تخمين» وترجيح بعض ماكانت تؤمن به هذه المجتمعات «اليونانية» الأولى، وذلك من خلال نصوص «أعمال الرسل» المشكوك فيها، وإشارات بولس نفسه، وإننا لنعترف بأن ما تجمع لدينا من معلومات ليس بالشىء الكثير[1].

(١) يعتبر كتاب البحاثة بوسيه عن المسيح، المطبوع بجوتينجن عام ١٩١٣، أهم مرجع فيما يتعلق بهذه المشكلة، وبخاصة منه الفصلان الثالث والرابع.

(ب)

كانت الجماعة الأولى من المؤمنين بعيسى فى القدس جماعة يهودية صرفة . وليس لدينا ما يدعو إلى الشك فيما ترويه « أعمال الرسل » بهذا الشأن . وكان أعضاء هذه الجماعة لا يفترقون عن اليهود الآخرين الأتقياء إلا فى إيمانهم بأن عيسى الناصرى قد شرفه الله فجعل منه مسحيا ، وأنه قد تحققت به الآمال . ولا يمكننا أن نتصور أنهم اتجهوا من أنفسهم إلى تبشير المشركين بعقيدتهم فلم يكن ذلك بالنسبة إليهم عملا ذا معنى . ولعل أقصى ما كانوا يصلون إليه فى هذا الاتجاه هو الترحيب ببعض المتتلمذين على اليهود ، على غرار ما فعله بطرس إذ نراه — فى الفصل العاشر من « أعمال الرسل » — يقوم بتعميد الجندى كورنيليوس الذى كان من « المتقين الله » ، ولا نجد مغزى تاريخيًا آخر للفصل المذكور ، هذا إذا ما فرضنا أن القصة التى يرويها تخرج بعض الشىء عن حدود الأساطير ، وقد شك أناس من قبل فى أمرها . إلا أن هذه الجماعة الأولى من أصحاب عيسى فقدت ، فى سرعة سريعة ودون أن تسعى إلى ذلك ، صفاتها كطائفة يهودية خالصة ، أو — على الأقل — كطائفة فلسطينية شبيهة بباقى الطوائف اليهودية فى البلاد ؛ فقدت هذه الصفات بحكم العوامل الخارجية القاهرة : ففى أعقاب إنشائها ، دخل عليها عنصر أجنبى غريب عن روحها الأساسية ، عنصر الأتباع الجدد الذين تسميهم مجموعة « أعمال الرسل » بـ « الهيلينستيين » .

وكان هؤلاء ، فى غالب الظن ، من اليهود الذين أقاموا زمناً طويلا بمختلف البلاد اليونانية ، ثم عادوا إلى وطنهم ليعيشوا فيه ما بقى لهم من عمر ، وكانوا أيضاً ، وعلى الأخص من يهود المهجر الذين يتوافدون إلى القدس فى

الأعياد الكبرى والمواسم ، وقد امتازوا جميعاً بروح أكثر مرونة وتقبلا للتجديدات من إخوانهم الفلسطينيين : فلا غرابة إذن فى أن يكون عدد معين منهم قد استمع إلى أحاديث أصحاب عيسى وآمن بدعوتهم . ولكنهم عندما اعتنقوا الإيمان بعيسى المسيح ، لم يتخلوا من أجل ذلك عن روحهم المرنة المجددة ، ولعلنا نرى فى هذا الأمر الأسباب الأولى للخلافات التى لم تلبث أن نشبت فى أحضان الجماعة .

وليس من مهمتنا سرد هذه الخلافات ، والكثير من جوانبها على أى حال يبدو لنا غامضاً أو مجهولا[1] ، إلا أنه لن يكون من جزاف القول إرجاعها إلى التساهل الفكرى الذى أبداه هؤلاء الهيلينستيون أول الأمر فى موقفهم من الشريعة اليهودية ومن تقديس « المعبد الأكبر » ثم إلى النزعة التى كان لابد لها أن تصاحب هذا الموقف وتنمو معه نحو إعمال الفكر والمنطق فى شخصية عيسى ورسالته على مدى أبعد مما كان يتصوره أصحاب عيسى أنفسهم . ونرجح أن تلك ظاهرة للموقف الذى حاولنا فيما سبق أن نحدده : الموقف العقلى والعاطفى ليهود المهجر تجاه مزاعم الحواريين . وكانت النتيجة أن غضبت السلطات اليهودية على هؤلاء الهيلينستيين ، فاضطهدتهم وطردتهم من المدينة وبقى بها الحواريون ، مما يدل على أن فريق الحواريين لم يكن يفكر كما فكر الهيلينستيون ولم يكن متضامناً معهم .

ومن المرجح أن « الهيلينستيين » الذين طردوا أو هربوا من القدس كانوا أول المبشرين فى بلاد الوثنيين ، وأعنى بذلك أنهم اتجهوا بعد تركهم القدس إلى المجتمعات اليهودية القائمة فى ممالك الشرك ، تلك المجتمعات التى كانت – كما

---

(١) تراجع فى ذلك مجموعة « أعمال الرسل » .

سبق أن بينا – تضم إلى جانب اليهود الحقيقيين طوائف من المتتلمذين عليهم قد تقربوا قليلا أو كثيراً إلى اليهودية ولكنهم ظلوا على صلتهم الدائمة بعالم المشركين. وإننا لنلمح من خلال النصوص بعض الجماعات التى أقامتها تلك الدعاية التبشيرية الأولى فى قبرص وفينيقيا. بيد أن الحادث الأساسى الذى نبع عن ذلك هو: مولد كنيسة أنطاكيا. ورينان على حق عندما يكتب[1]: «إن نقطة البدء للكنيسة التى جذبت المشركين، ومركز التبشير المسيحى الأول، كانا فى أنطاكيا. هناك، ولأول مرة، أنشئت كنيسة مسيحية تخلصت من صلاتها باليهودية، وهناك تأسست الدعوة التبشيرية الكبرى فى عهد الحواريين، وهناك كذلك تطور بولس تطوره النهائى».

وتروى لنا «أعمال الرسل» (١٩/١١ – ٢٠): أن بعضاً من مجموعة «الهيلينستيين» الذين أخرجوا من القدس ارتحلوا حتى أنطاكيا، وبها «أعلنوا البشرى الطيبة عن السيد عيسى، متحدثين فيها أيضاً إلى الإغريق»، ونفهم من هذا أنهم اتجهوا أولا إلى اليهود – فلا نتصور أنهم قاموا بهذا النشاط فى بادئ الأمر خارج نطاق المعبد اليهودى – ثم تحدثوا بدعوتهم إلى المتتلمذين على اليهود، ولا نشك فى أنهم كانوا كثرة بالمدينة. ونحن لا نزعم بأى حال من الأحوال أن اتباع عيسى الأول اتجهوا، بتدبير سابق وحسب خطة مرسومة، إلى هؤلاء المتتلمذين على اليهود، غير أنهم لم يتجنبوهم. ولا شك أنهم وجدوا لديهم استعداداً وتقبلا للاقتناع بالدعوة الجديدة أكثر مما وجدوا لدى اليهود الخالصين، فضموهم إلى صفوفهم. وإننا لنميل إلى الاعتقاد بأن هؤلاء «الإغريق» سرعان ما أصبحوا الغالبية، بل الغالبية العظمى فى كنيسة

---

(١) فى كتابه «الرسل» ص ٢٢٦.

أنطاكيا . ويبدو لنا أن صفة « المسيحيين » ، التى أطلقت حينئذ لأول مرة على أعضاء هده الكنيسة من جانب المشركين ، تدل على أن عامة الناس فى المدينة ميزوا تمييزاً واضحاً بينهم وبين الطائفة اليهودية الأصيلة . ومن المرجح أيضا أنهم افترقوا سريعاً عن هذه الطائفة بتشكيلهم جماعات مستقلة ذاتيًّا كما افترقوا عنها بإخضاعهم التعاليم اليهودية الصحيحة لمقتضيات عقيدة الأمل المسيحية ، إذ وضعوا شخصية المسيح فى المقام الأول من دينهم .

ويكاد يكون من القضايا المسلم بها لدينا أن بيئة أنطاكيا هذه ، حيث كثر المؤمنون الذين علقوا بعيسى كل الآمال وإن لم يعرفوه ، تلك البيئة ساعدت على التطور السريع نحو « تأليه » المسيح ، أو هى حددت فكرة « تمجيده » ، إن بدت لنا كلمة « التأليه » هنا سابقة لأوانها . وكذلك نرى هؤلاء المؤمنين ينزعون فى تصورهم لشخصه ولرسالته إلى التخلص من كل خصائص عيسى اليهودية كمسيح ، ليرقوا به إلى مفهوم أعم وأوسع وأرفع ، ذلك المفهوم الذى يقترن بلقب « سيد » .

ولنلاحظ هنا أمراً هامًّا : ذلك أن الاثنى عشر لا شك قد تملكتهم الحيرة فى بدء دعوتهم ، عندما نظروا فى النصوص المقدسة وفى كتب الأحبار الحديثة ، فلم يجدوا كلمة واحدة تشير إلى إمكان قيام مسيح يعذب تعذيباً شائناً ، بل قرءوا على العكس من ذلك سطوراً تبعث فيهم الرعب : « لعن الله كل إنسان يشنق بالغابة ! » (كتاب « تثنية الاشتراع » ، ٢١ - ٢٣) . فكان عليهم إذن أن يفسروا لأنفسهم كيف دبر الله موت عيسى ضمن تدبيره لانتصار شعبه وحلول مملكته . وقد وجدوا إلى ذلك سبيلا معتمدين على « واقع » البعث ، وسائرين على المنطق التالى : « إذا كان الله قد بعث عيسى فلا يمكن أن يكون ذلك

إلا ليقوم بدور جلل وهل هناك له غير دور المسيح ؟ وكان الموت هو الشرط اللازم للبعث ، أى كان الطريق الذى أراده الله ليرتفع بعيسى من مستوى البشرية إلى « المجد المفروض له » . وهكذا أصبح عيسى هو المراد بمن أسماه النبى دانيال بـ « ابن الإنسان » الذى سوف يظهر وشيكاً على قباب السماء .

إلا أن مفهـوم « ابن الإنسان » غير موجود لدى بولس . لقد أبدله بمفهوم آخر -- سوف نتحدث عنه فيما بعد -- لا يمت بصلة إلى الجماعات المتصلة الأواصر باليهودية فهو إذن لم يؤسس مفهومه لشخص المسيح على ما أخذه من تلك الجماعات . (إن موت عيسى فى نظر الاثنى عشر ليس بالتضحية التكفيرية . أما عند بولس فنعم ؛ وفى عقيدته أن المسيح مات من أجل خطايا البشر . ولم يكن الاثنا عشر ليوافقوا على نعت عيسى بـ « ابن الله » مكتفين بتعبير « خادم الله » . أما عند بولس ، فلقب « ابن الله » لقب كثير الاستعمال بالنسبة إلى عيسى) . إن بعض المفاهيم الجوهرية لدى المجتمع الأول نجدها إذن غريبة أو مجهولة أو غير ذات شأن لدى « الحوارى المرسل إلى المشركين » . أما المفاهيم التى عرفت له ، فهو لم يختلقها اختلاقاً ، وإن قام بتطويرها وتنميتها .ولا بد لنا من القول بأنه أخذها عن مصادر أخرى غير المجتمع المسيحى الذى أسسه أصحاب عيسى أنفسهم ؛ ولابد لنا من الاعتقاد بأنه وجد هذه المصادر فى مجتمع من المجتمعات الهيلينيستية ؛ وأغلب الظن أن هذا المجتمع كان مجتمع أنطاكيا .

وهناك لقب ذو مغزى لا تختص به رسائل بولس وحدها ، بل نجده أيضاً فى جميع نصوص العهد الجديد التى ترجع إلى الأصل الهيلينستى ، ذلك هو لقب « سيد » (خيريوس) الممنوح لعيسى . ويكفى أن نتصفح رسائل بولس

الكبرى لندرك أن « السيد » يهيمن على سائر أوجه الحياة فى المجتمعات التى اتصل بها صاحبنا . فكل كنيسة كانت تنتظم فى « جسد » ، « رأسه » « السيد » ، أوكانت إذا شئنا ، « مجموعة عبادة » « يحتل » « السيد » منها المركز . ولا أدل على ذلك من النص المعروف الوارد فى « الرسالة إلى الفيليبيين (٢ / ٩ وما يلى) والذى يقول : « لذلك رفعه الله وشرفه بالاسم الذى يعلو على كل اسم ، حتى يركع أمام هذا الاسم كل من فى السماوات والأرض والجحيم ، وحتى تعترف كل لغة بأن عيسى المسيح « سيد » وذلك من أجل مجد الله الآب » . ويبدو أن الاسم العبادى المقدس فى « العهد القديم » ، ذلك الاسم الذى يهيمن على الشعائر كلها فى معبد القدس الأكبر ، والذى لا شك أنه استخدم أيضاً لدى المسيحيين المرتبطين بالأصول اليهودية يبدو أن هذا الاسم قد تحول لصالح الـ « خيريوس » الجديد ؛ ذلك أن « يهوه » نفسه هو الذى كان يعلن قديماً : « سوف يركع الجميع أمامى » . والظاهر هنا أن « يهوه » قد تنازل عن سلطاته لصالح عيسى .

ولا نظن أن بولس قد اخترع اختراعاً هذا الاسم المحمل بكل تلك المعانى وفرضه على الناس إذ يبدو من أبعاد وعمق الظاهرة أنها لم تقم على إرادة رجل واحد ، بل إن فى ملامحها عناصر تخرج عن مثل هذه الإرادة وتفترض تمهيداً لفترة طويلة فى ضمير هؤلاء الذين مكنوا لها وثبتوا أركانها . فلو ضربنا هنا عرض الحائط بالنظريات المتهافتة التى نشأت للتدليل على أن لقب « خيريوس » هذا قد يكون يهودى الأصل لتوصلنا إلى ما يلى : تلك هى الكلمة نفسها التى كان يستخدمها العبيد اليونانيون لبيان ولائهم لأصحابهم ، وهى فى الواقع توضح العلاقة بين « عبيد المسيح » والمسيح نفسه (نظر : « الرسالة الأولى إلى أهل

كورينثيا ، ٢٢/٧) . ثم إنها أيضاً لقب غريب عن الآلهة التقليديين ، ونعنى بذلك : الآلهة ذوى الأصل اليونانى المحقق ، أو آلهة الرومان إذا وضعنا موضع الاعتبار المرادف اللاتينى للكلمة ، وهو « دومينوس » . ولكنها كانت تطلق خاصة على « الآلهة المنقذين » فى آسيا الصغرى ومصر والشام عند الحديث عنهم باليونانية ؛ ومن هؤلاء الآلهة تحول اللقب أيضاً إلى الملوك والأمراء .

لقد نشأت المجتمعات « الهيلينستية » الأولى ونمت فى البيئة السورية . وفى ربوع هذا المهد الأول وجدت انتشاراً واسعاً للقب « خيريوس » ولصور العبادات القائمة عليه . وفيه ثبتت تلك المجتمعات « الهيلينستية » الفتية باعتبارها مجتمعات لعبادة المسيح ، أو إذا شئنا – قد انتظمت حول هذه العبادة ، مدفوعة بنزعتها الرامية ، فيما يشبه اللاشعور ، إلى الابتعاد عن اليهودية ، وبما وجدته فى خروجها عن فلسطين من سبيل للتحلل من تشدد يهود الوطن الأم فى تعاليم التوراة الخاصة بالتوحيد . وفى سوريا عرفت الاسم الذى يعبر فى طقوسها الدينية عن مركز المسيح المهيمن . وبدا لها بعد ذلك من الأمور أن تطلق ذلك اللقب المعبر لقب « السيد » الشائع الاستخدام من حولها ، على الشخصية التى لم يكن المشركون ليعرفوها إلا بأنها « بطل الطقوس الدينية » .

(وإن ما نسميه هنا بالمسيحية ، ونكاد فى هذه التسمية نسبق سياق التاريخ ، قد اتخذ إذن بين رحاب التقوى الهيلينستية ، صورة « إيمان بالسيد » و « تعبد للسيد » ؛ فى حين كان أصحاب عيسى من أهل الجليل لا يزالون على « الإيمان بعيسى وبما قاله » وعلى اتصال دائم بالمعبد اليهودى الأكبر واحترام لشعائره) .

ويمكن القول بأن المسيحية لن تمر بالنسبة إلى مستقبل أمرها بتطور يبلغ من الأهمية مثل ما بلغه ذلك التطور الذى نقف عنده الآن . إن مفهوم « ابن الإنسان » عند الذين اتبعوا عيسى من اليهود الفلسطينيين ينتمى فيما نرى ، إلى الاتجاهات اليهودية فى تصوير يوم القيامة ؛ ونعنى بذلك : أنه لا يجد مكانه الحق إلا ضمن أحداث نهاية العالم التى قال بها اليهود ، والتى لم يكن ليتعلق بها إلا اليهود . إنه إذن وبالذات مفهوم « عظمة أخروية » يفرض على موضوعه البقاء فى السماوات حتى حلول مملكة الله الموعودة . أما « السيد » لدى المجتمع الهيلينستى فهو على العكس من ذلك يظهر وكأنه — سواء فى الشعائر أو فى العبادة — مفهومالـ« عظمة حالية حاضرة » ، فالمؤمنون الذين يجتمعون باسم « السيد » يحسون بحضرته ، أى بأنه قائم بينهم . تماماً كما كان يشعر أتباع الديانات ذات « الأسرار » بالحلول الإلهى فى أثناء الاحتفالات السرية التى يشتركون فيها . فإذا ما وضعنا جنبا إلى جنب مفهوم « ابن الإنسان » ومفهوم « السيد » وجدنا بينهما اختلافات تبلغ حد التعارض . وقد فاز بالمستقبل ، بطبيعة الحال ، المفهوم الهيلينستى : لأنه نابع — ولا شك فى ذلك — من أعماق الحياة الدينية للبيئة التى أنشأته . أما المفهوم الثانى ، وهو الأقدم منهما ، فسوف يظل جامداً بين طيات النصوص ، بل سوف يتقلص شيئاً فشيئاً حتى يصبح تعبيراً من تلك التعبيرات الغامضة التى لا حياة فيها والتى لا تعنى شيئاً بالنسبة إلى أهل العقيدة من غير اليهود . وتصوير بولس للقيامة والعالم الآخر يعتمد فى جوهره على تلك القاعدة المزدوجة من « الإيمان بالسيد » و« عبادة السيد عيسى » ، ووصوله إلى المفاهيم المتعلقة بها يعدّ الخطوة الأساسية فى تكوينه المسيحى . وسبقت هذه المفاهيم صاحبنا إلى الوجود وقد استقاها من بيئة كانت

أقرب إلى إدراكه – بحكم نشأته اليونانية – من مجتمع فلسطين اليهودى – المسيحى .

ولكننا نعرف أن فكرة الإله ، أو « السيد » الإلهى ، الذى يموت ثم يبعث « من أجل نجاة أتباعه » كانت شائعة فى البيئة السورية . ولنا أن نتساءل : ألم تكن هذه الفكرة قد فرضت نفسها على المجتمعات الهيلينستية فى تفسير وتأويل موت السيد عيسى ، وذلك قبل مجىء بولس ؟ أو بعبارة أخرى : ألا يدين بولس لمعلميه الأول من المسيحيين بالفرض الاساسى فى نظريته الخاصة بالنجاة ، وهو : لقد مات المسيح من أجلنا كما قدر له فى النصوص المقدسة ؟ ليس فى الإمكان فى عصرنا الحاضر ، أن نقيم الدليل على هذا ، ولكننا نجد مجموعة كبيرة من الاعتبارات ترجحه وتجعل منه أمراً طبيعيًّا . ولن نتحدث فى هذا المجال إلا عن واحد فحسب من تلك الاعتبارات . هو : أن « الأسرار » كانت توحى إيحاء قويًّا بأن موت المسيح وبعثه لا يرتبطان فقط بفكرة الرمز إلى موت المؤمنين وبعثهم وبفكرة رسم « صورة معينة » لهذه الأمور ، ولكنهما يرتبطان أيضاً بمفهوم المثال والضمان لهؤلاء المؤمنين كانت هذه « الأسرار » تدفع إلى الاعتقاد بأن نجاة المؤمن خاضعة لتوحده مع المسيح المنقذ ، وحدة تتم حسب طقوس فعالة . وهذه الطقوس عند بولس تتمثل فى « التعميد » الذى يرمز إلى الموت والبعث فى المسيح ، ثم فى « القربان » وهو مأدبة الوحدة على مائدة « السيد » وقد أخذ المجتمع الهيلينستى شعائر التعميد المطهر من عبادات المتتلمذين على اليهود ، كما أخذ عن أصحاب عيسى من أهل الجليل طقوس الخبز الذى يقسم بين الجماعة . ومن العسير علينا أن نتصور أنه لم يدخل على هاتين العمليتين ، منذ البداية ، معانى صوفية تتفق وما توحى به نفس « الأسرار » التى يبدو جليًّا أن هذا المجتمع

قد استقى منها مفهومه لـ « السيد – عيسى – المنقذ » . وإن بولس ليستخدم كل هذه الأفكار وكأنها كانت طبيعية مواتية ، وهو يلقى بالتعبيرات الصوفية المتعلقة بها بصورة تلقائية بسيطة تدعو إلى الإيقان بأنه لا يتحدث إلا عن مفاهيم عرفتها من قبل تلك المجتمعات التى أنصتت إليه ، وبأنه ليس المخترع لذلك الرصيد من الأفكار الذى يستغله ، وإنما اقتصر دوره على التعمق فى بحثه وعلى إنمائه . وإننا ، على أى حال ، لو اكتفينا بالنص الحرفى لبعض ما قاله ، لكان ذلك أقوى دليل على ما نميل إليه من رأى : « لقد علمتكم . . مما علمت . . أن المسيح مات من أجل خطايانا ، حسب ما قدر له فى النصوص المقدسة . . » (« الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » ، ١٥/٣) .

(جـ)

إن اقتنعنا بترجيح الرأى الذى فصلناه آنفاً ، والذى يقول بأن بولس قد تلقى أسس عقيدته – وهى العقيدة التى تعارفنا على تسميتها بـ « البولونية » – عن مجتمع من المجتمعات الهليلينستية (مجتمع أنطاكيا فى غالب الظن) – إن اقتنعنا بترجيح هذا الرأى ، فإن تحول صاحبنا ، وهو اليهودى الفريسى الأصيل ، إلى المسيحية ، هذا التحول سوف يبدو لنا حينئذ أقرب إلى المنطق مما لو فسرنا الأمر بتلك المزاعم الهزيلة التى دعا إليها يهود القدس المسيحيون ، والتى كرهها هو بادئ ذى بدء وهاجمها ، ثم جعلناه يعتنقها فجأة ودون تمهيد . فإذا ما تقرر – كما نظن أنه الواقع – أن بولس وجد المفاهيم والشعائر الأساسية التى ذكرناها فى مجتمع مسيحى هيلينستى ، وإذا تقرر من ناحية أخرى – كما نظنه أيضاً أنه الواقع – أنه ربى حقيقة ، لا بين أحضان اليهودية الفلسطينية ، ولكن فى ربوع

المهجر بما امتاز به – سواء فى طرسوس أو فى أنطاكيا – من مرونة ونزعات متفاوتة القوة نحو التأليف بين الأديان ، وإذا تبينا أنه ، منذ طفولته الأولى ، قد أحاط به من كل جانب إيمان الناس بإله يموت ويبعث ، فانغمس فى هذا الإيمان حتى أشرب به دون أن يشعر بذلك ، بل أشرب به وهو فى غمار مدافعته له باعتباره تصورات وثنية ممقوتة ، ثم إذا قدرنا أن عقيدته فى اليوم الآخر وفى حلول مملكة الله كانت تتطور – ودون أدنى شعور منه أيضاً – نحو العالمية ، بل – ومن يدرى ؟ – نحو الوقوف بالتوازى أمام « الأمل » الذى عبرت عنه « الأسرار » – فى صورة قد تقوى أو تضعف – كالحق أمام الباطل ، وذلك بفعل التأثيرات الخارجية وكرد فعل عليها ؛ وإذا انتهينا أخيراً إلى أنه – تحت تأثير البيئة المحيطة به والثقافة العامة التى تلقاها – أصبح لا ينظر إلى العقائد والشعائر الوطنية على أنها جميعها نسيج هش هزيل من الأخطاء . . بعد كل هذا لابد لنا من الاعتراف بأننا وصلنا أو نكاد إلى التفسير الطبيعى ، المنطقى المرضى ، لتحوله إلى المسيحية : فلقد تحول إليها منذ اليوم الذى اقتنع فيه بأن المسيحيين على حق إذ يرجعون إلى عيسى الناصرى شرف إتمام رسالة « الخلاص » ، تلك الرسالة التى كاد المشركون أن يلمحوا بعض جوانبها ، ولكن أعماهم عن إدراكها غشاء فظنوها من شياطينهم ، تلك الرسالة أيضاً التى وعدت بها إسرائيل منذ زمن بعيد فى النصوص المقدسة . وبعبارة أخرى : فقد تم هذا التحول نتيجة التلاقى المفاجئ والإدراك الخاطف المتعدد الموضوعات لمفاهيم روحية وفكرية – لم تكن بالغريبة ولا بالسطحية – اجتمعت مع العقيدة المسيحية فى صورتها التى قدمها بها الهيلينستيون والتى كانت قريبة إلى روح يهود العالم اليونانى . وراح صاحبنا بعد ذلك يعمل ، بما أوتى من علم بأصول الدين اليهودى ، على تطوير وتنظيم

« ما تلقاه » ، وكان ذلك أمراً طبيعيًّا بالنسبة إليه .

ولكن السؤال الآن هو : كيف تم مثل هذا الانقلاب ، الذى غيّر تماماً – على الأقل فى الظاهر – من اتجاهاته الضميرية ؟ لقد رأى فيه هو آثار معجزة عدّها « فاصلة » لفترتين من حياته : الأولى « قبل المسيحية » ، وكانت ظلاماً ، والثانية « بعد المسيحية » وكانت نوراً كلها . إن المسيح تحدث إليه على طريق دمشق ، وأخبره صراحة بما كان عليه أن يفعله . لذلك دخل فى المسيحية كما كان الناس يدخلون فى الديانات ذات « الأسرار » ، لا نتيجة لتدبير فكرى ولسلسلة من البراهين المنطقية ، ولكن استجابة لدافع روحى لا يقهر .

ولا مجال هناك للشك فى أن بولس قد آمن بالحقيقة الملموسة المادية لمعجزة التحول هذه . ولكن حديثه عنها وما ترويه « أعمال الرسل » بشأنها لا يسمحان ، للأسف ، بأن نصل منها إلى الحد الذى يتيح لنا تحليل الظاهرة بصورة مرضية كل الرضى . وليس معنى هذا أنها ظاهرة بالغة الغموض فى حد ذاتها ، فتاريخ الأديان وعلى الأخص منها أديان العالم اليونانى – الرومانى يعرض علينا « حالات » عديدة تشابهها بعض المشابهة أو كثيرها . ومع التحفظ إذن بشأن رأينا فيما نجهله من الأمر ، أى فى السبب المباشر الذى أحدث الصدام الحاسم فى أعماق ضمير بولس ، نستطيع الجزم – معتمدين على نظريات علم النفس الحديث – بأن نتيجة هذا الصدام كان قد مهد لها بتفاعل داخلى يغلب على الظن أنه استغرق وقتاً طويلا . وكان العنصران المشتركان فى هذا التفاعل : أولا – خصائص شخصية الداعية نفسه ، المتقبلة ، بل النازعة ، إلى الهزات والتهيؤات الصوفية . ثانياً – تلك التأثيرات التى تراكمت – إذا سمح لنا باستخدام مثل هذا التعبير – فى أعماق اللاشعور لديه شيئاً فشيئاً : من تأثيرات

« أسرار » طرسوس وأنطاكيا التى عودته على فكرة « المنقذ » إلى تأثيرات أساتذته من اليهود الذين جعلوه يتعلق بالأمل فى حلول مملكة الله ، ثم التأثيرات التى تلقاها فى بيئة طفولته ، فأنشأته على عدم احتقار كل ما يأتى من الوثنيين ورفضه لأول وهلة . وعلينا بعد ذلك أن نذكر ، على الأخص ، ذلك القلق الدينى العميق الجذور ، الذى نلمحه من خلال بعض السطور المشهورة من « الرسالة إلى أهل روما » (٧/٧ ، وما يلى) . ومن الخطأ ولا شك أن نعطى هذا النص من المعانى أكثر مما يحتمل ، فهو يعبر لنا عن حالة بولس النفسية قبل تحوله إلى المسيحية كما ارتآها هو بعد هذا التحول ، يعبر عنها فى لغة المؤمن بالمسيحية . إلا أنه من اليسير علينا ، برغم ذلك أن نستخلص منه مفهوماً عامًّا هو : أن داعية المسيحية المستقبل رأى نفسه ، فى ذلك الوقت ، غير قادر على مقاومة الخطايا التى تبرزها الشريعة اليهودية – حسب تفسيرات العلماء الفريسيين – فى كل مكان من الأرض ، وفى كل جانب من جوانب الحياة . وتلك بالذات كانت ، فى هذا الزمن ، الحالة النفسية التى تدفع بأهلها إلى البحث فى غير ما هوادة عن « المنقذ » ، عن « الوسيط الإلهى » عن « الهادى » المنزه من الخطأ إلى سبل الحق والحياة .

كان بولس إذن يحس بأنه ابتعد عن الله ، وبأن روحه أصبحت فى « حالة » إثم وافتقار إلى الكمال . وتلك حالة غريبة على نفسية « الربانى » الحق الذى يجد فى الإيمان « بهجة ويقيناً » ، إلا أن بولس كان فريسيًّا « من أهل المهجر اليهودى » . ويجب تذكر هذه الملاحظة دائماً عند تفسير انفعالات شخصيته . وكان من الطبيعى أن يستثير انتباهه بقوة ما وجده لدى المسيحيين من مظاهر السعادة فى اليقين ، بالمقارنة مع حالته النفسية الخاصة . فإذا ما اتضح لنا –

ونحن نؤمن بذلك -- أنه لم يواجه فقط بآمال أهل الجليل الساذجة ، بل وجد نفسه أمام صورة للمسيحية قد صبغت إلى درجة ما بالروح اليونانية ، فحملت موت عيسى معنى التكفير عن خطايا البشر « حسب ما قدر فى النصوص المقدسة » إذا ما اتضح لنا ذلك ، أصبح من اليسير علينا تصور افتتانه بهذه المفاهيم وبالدعائم التى تستند إليها ، ثم إحساسه اللا شعورى الغامض فى بادئ الأمر بأن فيما يلمسه منها الحل الأمثل للمشكلة التى تحاور نفسه منذ أمد بعيد..

ولا نشك فى أن هذا التفاعل التمهيدى قد تم ، فى نطاق عقله الباطن ، فى بطء وصمت ، وأن كل عنصر من عناصر الانفعال النهائى المستقبل نضج -- إذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير -- فى عزلة عن الآخرين . أما الانفعال نفسه ، فقد وقع فى صورة لمع خاطفة من التصوف ، يوحى إلهام مفاجئ وليس هذا التحول العنيف لجميع مقدرات الكيان بالأمر الغريب على كبار الصوفية . ولنكتفِ هنا بمثلين هما : رؤيا فرانسوا داسيز على طريق سبوليت ، وظهور العذراء للقديس إيجناس دى لويولا . ولابد لنا من رسم الظاهرتين بنفس خطوط « معجزة طريق دمشق » ، وإرجاعها إلى أسباب قد تتفاوت فى درجة تشابهها ولكنها تؤدى إلى عواقب متماثلة .

وخلاصة حديثنا إذن أن بولس كان موضوع نوعين من التأثيرات الممهدة للأزمة التى جعلت منه مسيحيًّا بالقوة وداعية للمسيحية بالإرادة . ويمكن وصف أحدهما بأنه كان سلبيًّا ، ووصف الآخر بالإيجابية . فأما « الأول » من نوعى التأثيرات الممهدة فهو يقوم ، فى تحليله النهائى على عاملين ، واحد منهما هو فكرة « المنقذ » التى لم يتعلق بها بولس فى البداية وإن كانت ملازمة لذكريات طفولته وقريبة ، فى بعض جوانبها ، من الأمل فى حلول مملكة الله

الذى يراوده باعتباره يهوديًّا من أهل المهجر. والعامل الآخر هو: تجربته الفريسية للشريعة اليهودية، وما خلفته فيه هذه التجربة من رهبة وقلق أمام الخطايا المحيطة به من كل جانب والتى لم يكن ليقدر على تجنبها. أما «ثانى» نوعى التأثيرات الممهدة فركيزته مظاهر اليقين المسيحى «الهيلينى» الذى يعتمد على تحرر الإنسان من الخطيئة ثم على الخلاص بواسطة «السيد عيسى». ويمكن إذن فهم تحول بولس على أنه تفجر مفاجئ لما تراكم من هذه التأثيرات المختلفة. وبذلك تصبح مراحل إتمام هذا التحول واضحة لنا كل الوضوح، وإن ظل سببه الحقيقى المباشر فى طىّ المجهول.

وكان من منطق التفاعل أيضاً أن يقوم بولس، وقد تحدثنا عن خصائص شخصيته، بمثل ما قام به فرانسوا داسيز وإجناس دى لويولا؛ أى كان من المنطق أن لا يكتفى بالاعتناق البسيط للمسيحية وبالانقلاب من مضطهد لها إلى داعية. ولنؤكد هنا أن رؤيا طريق دمشق لم تغير من ذات بولس، بل دفعته فحسب، إلى تطبيق مبادئه القديمة فى اتجاه جديد. لقد ضم عيسى إلى مجال نشاطه وتبناه فى عنف، فراح يكمل معلوماته عنه. ولعله بدأ بدراسته هذه فى دمشق أولا، ولكننا نستطيع الجزم بأنه أتمها فى أنطاكيا بعد ذلك. وراح يعمل فكره وخياله ويطبق أساليبه، التى اعتادها كيهودى وفريسى من أهل المهجر، على «ما تلقاه هناك». وهو، حتى فى دفاعه عن عقيدته الجديدة وهجومه على الشريعة اليهودية، قد بقى يهوديًّا كما كان من قبل. وهذا ما يعبر عنه رينان بحق عندما يقول: إن بولس لم يغير سوى موضوع تعصبه[1].

---

(١) فى كتاب «الحواريون»، ص ١٨٣. انظر كذلك كتاب دايسمان، «بولس»، المطبوع بتوبنجن عام ١٩١١، ص ٦٧ وما يليها.

ولم يكن بولس حقًّا بالرجل الذى يكتفى بأن « يتلقى » الأمور فى سلبية . وليس هناك من شك فى أن « الإنجيل » الذى قال به مدين له بالكثير من الإلهامات الخاصة ومن الإيحاءات التى نبعت عن طريقة تأديته لرسالته . وسوف نوضح ذلك فيما بعد . ومع ذلك قد « تلقى » أشياء يعترف بها ويقرها . وإن ما تلقاه لهو رصيد عقيدته وإيمانه ، تلقاه من هؤلاء الذين صاغوه — ولو بغير إدراك منهم للأمر — فى الصورة التى استطاعت أن تؤثر فيه وتسيطر عليه ، وهو ما سوف يعمل بدوره فى نشاط لا يقهر على التبشير به ونشره ، مع الإفاضة فى شرحه : دين بكل معنى الكلمة ، دين « خلاص » ، دين عالمى .

الفصل السادس

عمل بولس الحوارى

(ا) استقلال بولس عن الحواريين الفلسطينيين - موقفه الأول تجاههم - كيف وجه برنابا نشاطه - حياة بولس كمبشر.

(ب) ما أفاده من تلك الحياة - مشكلة دخول غير اليهود فى الإيمان - كيف دفعت هذه المشكلة بالفكرة المسيحية الخاصة بالبعث إلى أن تصبح ديناً متميزاً - عقيدة بولس المسيحية تسير فى نفس الاتجاه - كيف كان يدرك شخصية المسيح ورسالته - « المنقذ » و « ابن الله » ، والتكفير عن الخطايا - جوانب « الغنوصية » فى هذه العقيدة.

(حـ) تأثير طقوس وشعائر المشركين الذين اعتنقوا المسيحية على فكرة التعميد والقربان عند بولس - إلى أى حد يمكن اعتبار بولس مؤسساً للمسيحية.

(١)

تخبرنا مجموعة « أعمال الرسل » بأن المكان الذى تم فيه تحول بولس إلى المسيحية كان على طريق دمشق ، وأن دمشق كانت مركز نشاطه الأول . ولا يضيرنا تصديق روايتها فى هذا . فالأمر الذى يهمنا هو ملاحظة أنه لم يتدرب على التبشير بالمسيحية فى القدس أو على أيدى الحواريين الاثنى عشر ، وأنه لم يعدّ نفسه تابعاً لهم . لقد أيقن أن عيسى نفسه ، المسيح الممجد ، نصبه حوارياً بإرادته الخاصة ، فهو لذلك يرفض أن يشكك أحد فى هذا التشريف ، كما يشعر بأنه فى غير ما حاجة إلى إرشاد أو نصح من بشر أيًّا كان . ولنذكر هنا تصريحاته المترفعة الواردة فى « الرسالة إلى أهل غلاطية » (١٠/١ وما يلى) :

« . . . هل أنا أبشر الإنسان أو الله ؟ أو هل أريد أن يعجب بى الإنسان ؟ لو أنى ظللت إلى الآن موضوع إعجاب الإنسان ، لما كنت خادماً للمسيح . أؤكد لكم إذن يا إخوتى ، أن الإنجيل الذى أبشر به ليس من الإنسان ، فإنى لم أتعلمه من الإنسان بل ألهمه إياى عيسى المصلوب .

« . . عندما شاءت إرادة الذى اصطفانى ، يوم كنت فى بطن أمى ، ونادانى بفضله ، أن يظهر ابنه فى ذاتى ، حتى أبشر بالنبأ الطيب (لمجيئه) فى ديار المشركين ، عندئذ لم أشاور اللحم والدم (بمعنى : لم أشاور أى إنسان) ، ولم أصعد إلى القدس نحو (هؤلاء الذين كانوا) حواريين قبلى . . . لم أصعد إلى القدس للتعرف على بطرس إلا بعد ثلاث سنوات » .

ولنلاحظ من ناحية أخرى أن جوهر التعاليم المسيحية اقتصر بالتأكيد على

مجموعة بسيطة من الجمل ، نرجح أن بولس كان على علم بأهمها قبل رؤياه الحاسمة ، ولذلك لم يجد عنتاً فى القيام فوراً بتدريس ما أصبح يؤمن به . ولكنه يسهل علينا أن ندرك الحافز الذى دفع بأهل القدس – دون أن يرتابوا فى إخلاصه لدينه الجديد – إلى التحفظ فيما يتعلق بحقيقة ما ادعاه من رسالة ، وإلى عدم الاقتناع فى يسر بحديثه الواثق عن عيسى وكأنه عزفه مثلما عرفوه وأقام بجواره مثلما أقاموا ، وهو الذى لم يحظ من ذلك بشىء فلما رأى ، فى أعقاب سنوات ثلاث ، أن يصعد إلى القدس ، لم يجد فى مجتمع الحواريين المحدود بها سوى نظرات الحذر والتشكك ؛ ولولا برنابا لما استطاع حتى الاتصال بهذا المجتمع : فقد أعجب هذا الحوارى بحماسة بولس وقوة يقينه ، فسار به إلى بطرس ويعقوب اللذين رأيا استقباله والاعتراف برسالته . ومنذ ذلك الحين كان ولا شك يفترق عن الحواريين فى « الأمور الخاصة بعيسى » أى أنه كان يتعلق بصورة المسيحية التى رسمها الهيلينستيون ، والتى كانت أوسع فى أبعادها من صورتها لدى الحواريين . وتروى لنا « أعمال الرسل » (٢٩/٩) : أن العروض التى قدمها لآرائه فى معابد القدس ، معابد اليهود التى كان يرتادها الهيلينستيون ، أثارت ضجة كبرى اضطر بولس بسببها إلى الإسراع فى مغادرة المدينة . وارتحل إلى الشام وإلى سيليقيا ، أى إلى أنطاكيا وطرسوس . وفى هذه المدينة الأخيرة جاء إليه برنابا ، بعدما رأى من أمر المسيحية فى أنطاكيا وما كشفه له هذا من آفاق المستقبل بالنسبة إلى العقيدة الجديدة فى العالم اليونانى . وكان برنابا رجلا ألمعيًّا ويا ليتنا نعرف عن حياته المزيد . فالفضل يرجع إليه فى إقناع بولس بأن يقوم بنشر كلمة عيسى الطيبة بين أرجاء العالم ، وبأن يبدأ من أجل ذلك حياته العنيفة كمبشر فى آسيا الصغرى وفى اليونان ، حتى

منعته عن ذلك السلطات الرومانية فى القدس . . كان يرتحل من بلدة إلى أخرى ، ولا يقيم بضعة أيام فى أى منها إلا حينما يجد جاليات يهودية هامة . وكان يبدأ بالحديث فى المعابد فيثير فيها عادة لدى اليهود المخلصين غضباً عنيفا على ما يسميه بـ « إنجيله » . وعندما يستطيع أن يهدئ من روعهم ويطمئن إليهم لفترة ما ، نراه يحاول إقناع من يأتى إليه من طلاب المعرفة ، ويتحدث إليهم فى بعض البيوت الخاصة . فإذا ما نجح فى دعوته إلى درجة ترضيه ، أقام بالمكان بضعة أشهر – كما فعل بالنسبة إلى كورينثيا – أو عاد إليه بعد حين – كما فعل بالنسبة إلى أفسوس . وفى أثناء ذلك كله كان يكاتب سائر الكنائس التى « غرسها » ، فى نشاط يزداد أو يقل حسب أهميتها ، بغية تدعيمها فى إيمانها وإرشادها إلى جادة الحق عندما تخرج عنها . وليس من همنا هنا أن نفصل حياة بولس هذه ، العامرة بالنشاط ، الحافلة بالمخاطر والمغامرات ، البالغة الخصوبة ولكن علينا أن نحاول إدراك ما تعلمه منها .

(ب)

علمته هذه الحياة بادئ ذى بدء ، وفى وضوح تام ، حقيقة لم يكن الحواريون الاثنا عشر ليتقبلوها فى سهولة ، ولم يكونوا ليدركوا أبعادها مثل إدراكه . تلك الحقيقة هى : أن « المتقين الله » كانوا يؤمنون فى سهولة بفكرة « المسيح » ، وكانت غالبية اليهود الخالصين يضعون على آذانهم وقلوبهم غشاء عندما يدعوهم المسيحيون إلى ذلك . فهل كان على الأتباع . والحال هذه ، أن يتركوا اليهود فى ضلالهم يعمهون ، ويحملون دعوة الحق خارج ديار بنى إسرائيل ؟ وإلى جانب المريدين من « المتقين الله » – الذين امتازوا على الأقل

بثقافتهم اليهودية -- كان لا بد أن يأتى إلى الإيمان الجديد وفود من المشركين البسطاء . فهل للمبشرين بالمسيحية أن يقبلوهم فيها ويعدوهم بنصيبهم من مملكة الله ؟ هل يصبح هؤلاء الأجانب ، الذين يجهلون شريعة موسى ، أصحاب حق فى ميراث أمة « يهوه » ؟ . لا غرابة أن نرى الحواريين الاثنى عشر ، وهم الذين أشربوا بتعاليم عيسى وظلوا على يهوديتهم العميقة ، يستنكفون كثيراً من مثل هذه النتائج التى توصل إليها بولس . ويبدون أمامها تردداً قويًّا ، إلا أنه فرضها عليهم فرضاً ، إذ استطاع إيجاد البراهين المقنعة بشأنها معتمداً على تحليل أوجه النجاح التى لمسها خلال رحلته التبشيرية الأولى فى ربوع آسيا الصغرى ؛ ثم إن مجتمع القدس كان يظن أن روحاً إلهية تسير الحوارى الثالث عشر فيما يقوم به من أعمال . وكان هذا المجتمع فقيراً ، وكانت كنائس بولس تضم أحياناً بين أتباعها أثرياء القوم وكرامهم ، وكان الحوارى خبيراً بأساليب حثهم على مساعدة الكنيسة الأم . ومن ناحية أخرى ، كيف لا يعترف إنسان بفضل تلك القوة التبشيرية بعد أن نشرت اسم المسيح الممجد فى كل تلك البلدان المختلفة ؟ ولما أصبح مبدأ دخول المشركين فى الدين الجديد مقبولا وجد أنه من الصالح تيسير تطبيقه . وكان بولس على علم بأن عملية الختان لا يرضى عنها أهل اليونان ، وبأن أغلب أحكام الشريعة اليهودية للحياة العملية لا تتفق مع عاداتهم وأساليب تفكيرهم ؛ فلم يلبث أن آمن بأن تعاليم هذه الشريعة قد نسختها تعاليم المسيح ، بل بأن هذا المسيح أتى خصيصاً ليبدل عهداً قديماً بعهد جديد . وأذعن الاثنا عشر لبولس مرة أخرى فتقبلوا فكرة إعفاء الأتباع الجدد فى ديار الوثنية من أحكام شريعة اليهود . وكان المعنى الضمنى لهذا الإجراء : التفرقة بين المسيحية واليهودية ودفع الأولى إلى أن تصبح ديناً متميزاً .

وصارت هذه النتيجة أمراً محتماً بفضل نظريات بولس فى المسيحية ، تلك النظريات المتأثرة بالفكرة الهيلينستى ، والتى غيرت تغييراً عميقاً من تصوير الحواريين الاثنى عشر لعيسى ولحياته وموته . ولم يلبث الداعية أن أدرك أن فكرة البعث وحلول مملكة الله لا تهم الإغريق كثيراً ؛ بل لم تكن لتجد لها تفسيراً ودعامة إلا بمزجها فى عناصر الأمل القومى اليهودى . وإذا أريد للمشركين أن يتفهموها كان لا بد من توسيع مداها وتقريبها من بعض المفاهيم المعتادة فى تعاليم « الأسرار » الوثنية : فيقدم المسيح لا على أنه الرجل الذى نفخ فيه « يهوه » من قوته نجدة للشعب المختار فى محنته وتمكيناً له من مضطهديه ، بل على أنه مبعوث الله حقيقة ، أرسل ليحمل إلى الناس جميعاً « الخلاص » واليقين بحياة أخرى سعيدة تجد فيها الروح - على الأخص - تحقيقاً كاملا لما تطيح إليه من المصير الأمثل ، ورأى بولس بوضوح أيضاً : أن الأتباع الجدد من المشركين لم يكونوا ليتقبلوا كل القبول « فضيحة الصليب » ، وأنه يجب تفسير ميتة عيسى المشينة - التى لم يكف الأعداء بطبيعة الحال عن الرجوع إليها - تفسيراً مرضياً يجعل منها واقعة ذات مغزى دينى عميق . وأعمل الحوارى فكره فى هذه المشكلة المزدوجة وذلك بطبيعة الحال حسب الاتجاه الذى رسمه له مجتمع المهجر « الهيلينستى » ؛ ووضع لها حلا كان له صدى بالغ المدى : لقد تجاهل فكرة « عيسى الناصرى » التى أغرم بها الاثنا عشر ، ولم يتجه إلا إلى « عيسى المصلوب » فتصوره شخصية إلهية تسبق العالم نفسه فى الوجود ، وتمثل نوعاً من التشخيص لروح إله ؛ تصوره « رجلا . . . رجلا سماويًّا » ، احتفظ به الله إلى جانبه أمداً طويلا ، حتى نزل إلى الأرض لينشئ فيها حقًّا بشرية جديدة يكون هو « آدمها » . وقد عثر الحوارى على العناصر الجوهرية لكل هذه

التركيبات الفكرية فى مجموعة معينة من التصورات المعتادة فى « الأسرار » عثر عليها ، فى غالب الظن ، دون أن يبحث عنها ، وكأنها نتاج طبيعى لتفاعلات فى ذاكرته وفى عاداته الفكرية . وإن النصوص التى تلقى اليوم أقوى الأضواء على العقيدة المسيحية لبولس حسب ما شرحناها به ، لهى النصوص « الباطنية » ، أى : المأخوذة عن « الأسرار » نفسها .

وهذه العقيدة تنتهى -- إذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير -- إلى ثمرة تبعث كثيراً على الاستغراب ؛ تلك هى : أن السيد عيسى يصور لنا ابناً لله . ولكن فكرة الله ، بالنسبة إلى بولس ، تدخل ضمن ميراثه من العقيدة اليهودية . وقد نتج عن هذا أن التوحيد اليهودى يفرض نفسه على عقله فرضاً مطلقاً سابقاً لكل الأمور الأخرى . والإله عنده هو « الأعلى » المتميز تماماً عن الطبيعة والذى لا ينتشر فيها على أية صورة من صور وحدة الوجود . فكيف إذن يتأتى تصور أن يكون له ابن ؟ أو -- بعبارة أخرى -- كيف تفهم علاقة البنوة التى يراها بولس بين « السيد » والله ؟

وقد يميل ، بادئ ذى بدء ، إلى الاعتقاد بأن الأمر لا يتعدى أسلوب حديث معين أو صورة بلاغية . فاليهود كانوا يطلقون عبارة « خادم يهوه » على كل إنسان يظنون لديه « إلهاماً » منه . والتوراة « السبعينية » كثيراً ما تترجم هذه العبارة إلى اليونانية بالكلمات التالية : παῖς τοῦ θεοῦ وكلمة παῖς تعنى فى وقت واحد « خادماً » أو « طفلا » ، تماماً كالكلمة اللاتينية puer . وعلى هذا يكون التطور فى اللغة اليونانية من παῖς ، أى « طفل » ، إلى υἱός أى : « ابن » ، أمراً فى غاية من البساطة . وقد حدث مثل هذا التطور اللفظى فعلا فى النصوص اليهودية -- المسيحية (كمجموعة « أعمال الرسل ») عندما

نقل بعضها إلى رسائل بولس [1] . إلا أن التحليل الدقيق لكتابات صاحبنا يدل على أنه كان أكثر عمقاً فى التفكير من أن يتنزل إلى مثل هذا التلاعب الهزيل بالألفاظ . ويكفى لإثبات ذلك أن نذكر النص المشهور من « الرسالة إلى أهل روما » (٣٢/٨) ، حيث يقول : إن الله « لم يعف ابنه نفسه وضحى به من أجلنا جميعاً » . ولكن بولس لم يكن ليدرك فى ذلك الوقت كل ما ترتب على مفهوم « ابن الله » بعد ذلك من مشاكل فى فلسفة الدين لا تحصى . وهذا أمر يجب ألا نتناساه أيضاً ؛ ويترتب عليه احتمال أنه لا يستخدم التعبير إلا بمعنى تقريبى ، يحاول به أن يفصح قدر المستطاع -- بإنشاء مقارنة ضمنية لاتبعد عن الذهن البشرى -- عن علاقة « فوق بشرية » لا يجد لها الاصطلاح الجامع المانع الذى يرضيه .

أما ما يجب تجنبه فى هذا المجال فهو القول بأن هناك خلطابين « السيد » وبين « الله » ؛ فمثل ذلك الخلط لا يمكن تصوره لدى بولس الذى لم يكن لتخطر على باله فكرة « الثالوث » . إن « السيد » ، عنده ، يهيمن عليه الله (انظر « الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » ، ٣ / ٢٣) ، وهو طوع أمر الله « حتى الموت » انظر « الرسالة إلى أهل فيليبيا » ٢ / ٨) ، وخاضع له تمام الخضوع (انظر « الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » ، ١٥ / ٢٨) . ولا نجازف بالقول عندما نرى أن نص « الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » (٨ / ٦) يحكم سائر جوانب المسألة : وفيما يلى هذا النص : « بالنسبة إلينا نحن على الأقل ، ليس هناك سوى إله واحد ، هو الآب ، منه كل شيء ونحن فيه ؛ وليس هناك سوى سيد واحد ،

---

(١) تعبير « ابن الله » لا يرد سوى مرة واحدة فى « أعمال الرسل » (٩ / ٢٠) ويقدم لنا فى تلك المجموعة باعتباره تعبيرا خاصًّا ببولس ، وهذا أمر جدير بالملاحظة .

هو عيسى المصلوب ، به كل شىء ، ونحن به » . وهكذا ، فمهما بلغ أمر « السيد » من خطورة ووجوب بالنسبة إلى عمل الله ، فإنه لا يتساوى معه قط . ولكنه يمثل روحه ؛ و « الرسالة الثانية إلى أهل كورينثيا » (٣ / ١٧) تخبرنا بأن « السيد هو الروح » . ولا يستطيع بولس أن يأتى بم يقرب أكثر من هذا بين اللفظين البالغين فى السمو أقصى درجاته ، وهما « السيد » و « الله » ؛ وتلك هى بالذات العلاقة الوثيقة التى عبر عنها بلغة البشر عندما قال : إن « السيد « هو « ابن الله » ، دون أن يفترض هذا التعبير إيماناً منه بنظرية البنوة فى معناها الحرفى .

وإذا أردنا التحديد وجب القول بأن بولس كان يرى أن « السيد » يمثل بمفرده « صنفاً من أصناف الخليقة » ، يعتبر أقرب صنف إلى الله ، ويمكن وصفه بـ « إلهى » . ومن ناحية أخرى ، فمن المؤكد لدينا أن الاعتقاد بألوهية المسيح بعد ذلك كان لابد له من النمو ، إذ بدا تصوير بولس له مشوباً بالكثير من التردد والنقص ، بحيث لم يقدر له مقاومة الزمن . واتجهت تقوى المؤمنين فى قوة ، دون ما إدراك للعقبات ، إلى تنشيط الإيمان بالوحدة بين « السيد » والله .

وتحول عيسى بذلك إلى رسول لله بعث إلى العالم أجمع ، سابق للكون وللزمن ، تتمثل فيه الروح القدس التى تعتبر جوهره الربانى ، ويعمل على تنفيذ خطة الله الكبرى المتعلقة ببعث الإنسانية وخلاصها .

وهكذا أصبح موت عيسى واضح المفهوم : إن بنى الإنسان لينوءون بثقل خطاياهم ، فلا يجدون سبيلا إلى النور الإلهى . وقد أراد المسيح أن يهديهم السبيل ؛ فحمل عنهم آثارهم وكفر عنها بعذابه وموته . وبالتالى ، كان على البشر أن يتوحدوا فيه - بالاطمئنان والحب قبل كل شىء - حتى يشاركوا فى

فضله ويجدوا الرحمة يوم القيامة . وهكذا أيضاً أصبحت « الفضيحة الكبرى » المزعومة هى هى : السر الأعظم ، والهدف ، والعلة الأولى لمجىء عيسى برسالته ؛ وليس أدل على ذلك من قول بولس بأن سائر عمله التبشيرى لم يكن سوى (حديث للصليب) . ولم يكن هذا الحديث بالذى لايتأثر به اليونانيون ، بل كان لابد له من أن يستثير عاطفتهم ؛ ولم يكن أيضاً ، فى حد ذاته ، ليفرض شيئاً لايرضى عنه الحواريون الاثنا عشر ، مادام قد حفظ لهم روعة ذكرياتهم الواقعية كلها ، وأضاف سموًّا وإجلالا لم يكونوا بالغيه فى صورة أستاذهم . سوى أنه أدى إلى تغيير جذرى لحدود ومعنى العقائدية الواسعة التى كانت غريبة ، بل مكروهة ، لدى البيئة التى عمل هذا الأستاذ ، كما وضع فى الوقت نفسه أسس تلك التركيبات التى عاش فيها المسيح . وكانت عقيدة بولس مع ذلك أقل تعقيداً وأقرب إلى البساطة – بل نسمح لأنفسنا بالقول بأنها كانت أقل ضرباً فى الخيال – من المذاهب التأليفية الكبرى التى عرفت فى القرن الثانى بأسماء أصحابها من أمثال فالنتين أو بازيليد . إلا أنها مهدت الطريق لهذه المذاهب ؛ فقد أصبحت منذ ذلك الحين نوعاً من « الغنوصية » التأليفية و « إلهاما » يعتمد على تركيبات معينة .

(جـ)

وقد كتبنا مافيه الكفاية ليدرك القارئ أبعاد الصورة التى أصبح عليها عيسى الناصرى تحت تأثير أساطير الشفاعة والخلاص الشائعة فى بيئة بولس . وكانت أكثر الطقوس فيها إثارة للعواطف تلك المتعلقة بفكرة التطهر وبمفهوم التضحية ، سواء منها التضحية المكفرة عن الذنوب ، بغية تهدئة الغضب الإلهى ،

أو المهداة إلى إله ليرضى ، أو أضحية التقرب التى من شأنها أن توحد بين الأتباع وبين إلههم وتبين أنهم جسم واحد أمامه ، وكان الاثنا عشر ، وهم اليهود الأتقياء ، يواظبون على ارتياد المعبد الأكبر ، ولايخطر ببالهم أنهم بحاجة إلى طقوس غير تلك التى كانت تقام به ، إلا أنهم كانوا يعلقون أهمية خاصة على شعائر التطهر بالتعميد . ولقد أصبح قبول التعميد ، لدى الكنائس المقامة فى ديار الوثنية ، علامة اعتناق المسيحية ، وكان الاثنا عشر أيضاً عندما يلتقون فى دار أحد الإخوة ، « يطعمون الخبز جماعة » . واتخذ هذا التقليد الشائع بين بنى إسرائيل والذى نرجح أن عيسى كان يقوم به أيضاً عند مشاركته الحواريين فى الطعام – اتخذ فى معناه لديهم ثوب رمز للوحدة : وحدة بين أعضاء الجماعة ووحدة بينهم وبين المسيح . غير أن الدلائل كلها تشير إلى أنهم ، حتى ذلك الوقت ، لم يكونوا ليربطوا بصلة مابين «كسرة الخبز» وبين موت المسيح ، ولم يحملوا التقليد فى ذاته قيماً تبلغ به مستوى الشعائر القدسية ، كما لم يرجعوا أصل وجوده ووجوب القيام به إلى تعاليم أستاذهم .

وشعر بولس بضرورة الكشف عن المغزى العميق لتقليد « تناول الخبز جماعة » . ولقد وجد له تفسيراً ربطه برباط لا ينفصم إلى عذاب عيسى الذى تحمله لتخليص البشرية ، وغمره غمراً بذلك المفهوم الخصب للتضحية من أجل التكفير ومن أجل التقرب والمشاركة فى الذات الإلهية ، فجعل منه غاية لسر رفيع ، وتذكرة ورمزاً حيًّا – أرادهما عيسى نفسه – فيما زعم بولس لما لقيه من عذاب الصليب . وتقول « الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » (١١ / ٢٣) : « فى الليلة التى سلم فيها (إلى الرومان) أخذ السيد عيسى خبزاً ، وبعد أن شكر الله ، كسر هذا الخبز وقال : « هذا جسدى ، وهو لكم ؛ فلتفعلوا

ذلك دائماً تذكرة لى » . وهكذا أيضاً تناول الكأس ، بعد العشاء ، وقال : « هذه الكأس هى العهد الجديد فى دمى . فلتفعلوا ذلك كلما شربتم : تذكرة لى ؛ ذلك أنكم كلما أكلتم من هذا الخبز وشربتم من الكأس ، كأنما تعلنون موت السيد ، حتى يأتى إليكم » . ولم يكن قد قدر لأى طقس من طقوس « الأسرار » الوثنية أن يذخر بمعانى وفيرة وبآمال جذابة ، مثل ما ذخرت به الطقوس الخاصة بالقربان لدى بولس ؛ غير أنها كانت من قبيل عائلة الطقوس الوثنية ، ولم تكن نابعة من روح الدين اليهودى ؛ ولقد أدخلت فى كنيسة الحواريين « قطعة من الوثنية » . ولكن المسيحيين تقبلوها أيضاً بصدر رحب لأنها أضافت إلى إيمانهم درجة أخرى من التسامى ، وإن أصبحت بعد ذلك موضوعاً أساسيًّا لتركيبات لاهوتية واسعة النطاق تولدت عنها عقائد كبرى عديدة .

وفى الوقت نفسه اتخذت طقوس الاغتسال للتعميد معنى لايقل عمقاً عما سبق ، ذلك أن بولس يقول فى « الرسالة إلى أهل غلاطية » (٣ / ٢٧) : « أما أنتم الذين عمدتم فى المسيح ، فقد ارتديتم المسيح » . وهذا يعنى أن المسيحى يتحد بالمسيح بواسطة التعميد . ونحن ، فى قولنا هذا ، قد نتجاوز حدود النص الحرفية ؛ فبولس لم يجرؤ قط على القول بأن التعميد يجعل من المسيحى « مسيحاً » ، مثلما تجعل طقوس التضحية بالثور فى عبادة سيبيل من المؤمن بهاو « إلهاً هو أتيس » ؛ إلا أن مفهوم هذا التعميد نابع من نفس وجهة النظر التى نفسر بها مفهوم التضحية بالثور . فبالتعميد « يرتدى المسيحى المسيح » كما يرتدى اللباس المقدس المنجى ؛ وهو ينزل رمزيًّا إلى عالم الأموات بتغطيسه فى النهر أو فى إناء التعميد ، فإذا ما خرج بعد غطسات ثلاث — تماماً كما خرج

المسيح من القبر بعد أيام ثلاث – أيقن بأنه سوف يمجد يوماً ، إن أراد الله له ذلك ، كما مجد المسيح .

وعلينا أن نؤكد ، وأن نكرر التأكيد ، بأن بولس لم يكن هو المخترع الفرد لكل هذا ؛ وبأن الكنائس الهيلينستية السابقة له ، ومن قبلها جماعات اليهود النازعين إلى التأليف والغنوصية ، قد مهدت جميعاً لعمله وأنشأت الموضوعات الأساسية التى دار حولها تفكيره . ولهذا فمن المبالغ فيه القول بأنه هو المؤسس الحقيقى للمسيحية . أما المؤسسون الحقيقيون للمسيحية ، فهم هؤلاء الرجال الذين أقاموا كنيسة أنطاكيا ؛ وإننا لا نكاد نلمح أسماءهم ، وقد طواها النسيان . إلا أن بولس كان يمتاز عنهم بنشاط أوسع أبعاداً وأوفر دقة ؛ فضلا عن تفوقه الذى لا ينازع فى إدراك معنى هذا النشاط ومداه. إنه لم يؤسس المسيحية إذا عرفناها بأنها تطويع فكرة الانتصار ومملكة الله اليهودية لفكرة الخلاص الهيلينية . ولكن ، بدون بولس ، كان من المحتمل أن لا توجد المسيحية .

الفصل السابع

المسيحية كدين مستقل

(ا) الإيمان المسيحى لم يستطع تجنب التأثيرات الهيلينية – التيار اليوحانى – المقاومة اليهودية المسيحية للبولينية ولليوحانية – كيف غلبت هذه المقاومة على أمرها شيئاً فشيئاً – انفصال الإيمان عن الشريعة – انفصال الكنيسة عن المعبد – الموقف على أعتاب القرن الرابع .

(ب) المهد اليونانى الرومانى – موضوعات الميتافيزيقا المدرسية – الحركة الفكرية فى المجال الدينى من القرن الأول إلى القرن الرابع – الديانة الرومانية الرسمية والعاطفة الدينية – الدفعة التى أتت من الشرق – التأليف الدينى الفردى فى القرن الثالث – كيف ظهرت المسيحية كدين شرقى ، وكيف اتجهت إلى الفرد – المسيحية لاتقبل التأليف الدينى ، ولكن فى الظاهر فحسب – التقاء المسيحية بالفلسفة .

(حـ) تأثير الثقافة الهيلينية يدفع الإيمان فى اتجاهين مختلفين – اكتمال تحول المسيحية إلى فلسفة إلهامية – ازدهار الغنوصية – دور الفرق فى تطور العقيدة – أثر الطقوس الوثنية .

(د) صورة المسيحية فى بداية القرن الرابع – كيف أصبحت ديناً مستقلا معادياً لليهودية – شروط الإيمان – كنيسة الكنائس – التعصب المسيحى .

(١)

عندما خضع بولس لقوى الواقع ، استطاع أن يطوع هذه القوى لعبقريته الفكرية : فقد كان سباقا إلى قبول فكرة انفصال المسيحية عن اليهودية ، ذلك الانفصال الذى أظهر سير الأحداث أن ليس منه بد ؛ ولكنه مهد له بإنشاء العقيدة المناسبة . ولم يكن الإيمان المسيحى على أى حال يستطيع تجنب تأثيرات البيئة الهيلينية متى خرج من حدود فلسطين . ولقد بينا فيما سبق كيف حدث ذلك قبل مجىء بولس . وكان من المحتم أن يطبق على هذا الإيمان ، فى العالم الإغريقى ، نفس أساليب التفسير التى أراد بها يهود الإسكندرية أن يوفقوا بها بين شريعة موسى وبين الفلسفة اللادينية . وتتبع أحد الآسيويين المجهولين خطى فيلون فى هذا المجال ، ففرض فى مقدمة الإنجيل الرابع أن عيسى المسيح ظهر على الأرض ممثلا لـ « اللوغوس » ، أى كلمة الله ومبدأ الفعل لدى يهوه – حسب مدرسة الإسكندرية – وأنه يشارك الله فى خلوده[1] . وكان هذا فرضاً يبلغ فى مفهومه مبلغاً هائلا من الخطورة ، ولايعنى أقل من أن عيسى المصلوب ليس سوى ظاهرة مباشرة لله ، أى أنه – إذا أخذنا بتسلسل الفكر المنطق – ليس سوى الله نفسه . وكان أيضا فرضاً يخرج عن نطاق التأدب الدينى بالنسبة إلى اليهود الذين لم يكونوا ليدركوا قط أن اللانهائية الإلهية – تلك التى

(١) ١ / ٤ : « وتحولت الكلمة إلى لحم ، وعاشت بيننا ، ورأينا مجدها ، مجداً كالذى يتخذه الابن الأوحد من أبيه » . والكلمة اليونانية « لوغوس » تترجم فى النصوص اللاحقة للتوراة بـ « الفعل » ، أو « الكلمة » .

لا يجسرون على النطق بوصف لها خشية الانحراف إلى تحديدها – يمكن أن تتجسم فى الحدود الضيقة للجسد البشرى . ولكنه إلى جانب ذلك ، كان فرضاً يسهل التوفيق بينه وبين نظرة بولس للمسيحية ، أو – بتعبير أدق هو فرض ينتمى انتماء وثيقاً إلى اتجاهات هذه النظرة نفسها إذا أخذنا فى الاعتبار ذلك التصريح الأساسى فى كتابات الحوارى : « السيد هو الروح » ؛ كما كان فرضاً بالغ الإغراء بالنسبة إلى أهل اليونان ، ومنسجماً تمام الانسجام مع رغبات الإيمان العميقة ، التى لا تنفك تدفع بالمؤمنين إلى الازدياد من تمجيد شخصية عيسى ، فتحاول – ويكاد ذلك يكون بلا وعى – أن تقربها من الله .

ولم يقبل اليهود – المسيحيون برضاء تام كل هذه التبديلات والإضافات التى أريد فرضها على إيمان الحواريين الاثنى عشر ، وإن كانوا لم يدركوا ، بعد كل ماسوف يترتب عليها من نتائج ، ذلك أن الامتياز الرفيع الذى ظنوه مقصوراً عليهم امتياز « وراثة مملكة الله » ، كان لابد له من التلاشى والانهيار بعد مشاركة كل هذه الجموع من الأتباع فيه ؛ ثم لأنهم كانوا يهوداً يزعمون البقاء على يهوديتهم ، حيث علموا علم اليقين أن أستاذهم كان يهوديًّا . فعارضو بولس معارضة قوية ، حتى بين رحاب الجامعات التى كان له الفضل فى إنشائها . وحتى بعد أن اعترف الحواريون الاثنى عشر به حواريا مثلهم ، وأحنوا رؤوسهم ظاهريًّا لكل ما طلبه من تنازلات لمصلحة الأتباع الجدد الذين اعتنقوا المسيحية على يديه ، حتى بعد هذا نراهم يستسلمون إلى ضروب من « التوبة » ، وضعته أحياناً فى مواقف حرجة . وأصدرت فرق المتعصبين للشريعة كتبًا تهاجمه فى عنف . وإن رسائله إلى أهل كورينثيا وغلاطية – مهما بدا لنا ، إلى اليوم ، من غموض تفاصيلها لتشير فى مجملها إشارة واضحة إلى عداء هؤلاء القوم الذين لم

يكونوا ليترددوا فى إظهاره للناس داعيا خارجا عن الدين ، لو أستطاعو إلى ذلك سبيلا . وبعض المؤلفات المتأخرة فى التراث المسيحى – مثل الكتب المنسوبة إلى كليمان رومان الذى عاش فى نهاية القرن الأول – تحمل آثاراً من هذه المشاحنات .

وإلى جانب ذلك أثارت النظريات اللاهوتية فى المقدمة اليوحانية ، هى الأخرى ، معارضة عنيدة . إلا أنه كان من اليسير ، منذ السنين الأخيرة لجيل أصحاب عيسى ، أن يتنبأ الناس بالكفة الراجحة فى ميزان قوى الدعوة المتصارعة ، بالنسبة إلى المستقبل .

فمنذ ذلك الحين ، فى الواقع ، بدا واضحاً أن عودة « السيد » ، أى ظهوره على الأرض من جديد – تلك الظاهرة التى طال أمد انتظارها كثيراً – بدا واضحاً أنها قد تتأخر عدداً لايمكن حسابه من السنين ؛ فأصبح الحديث عنها ، شيئاً فشيئاً ، لايشفى غليلا ، وبدأ مفهومها يخرج من دائرة حياة المؤمنين العملية ، وتضاءلت بالتدريج مكانتها فى صدر إيمانهم . وعلى أى حال ، فإن صورة القيامة التى تضمنت ملامح هذه الظاهرة المنتظرة ، لم تكن بالصورة التى تجذب الإغريق والرومان بالقدر الذى كانت تستهوى به اليهود . فعقائدهم القديمة الآخذة بالازدواج ونزعاتهم إلى الروحانيات ، كانت تمنعهم من أن يعطفوا تمام العطف على الإيمان بالبعث المجسد وبمادية مملكة الله ويوم الانتصار الموعود ، تلك المجالات التى كان التفكير اليهودى يعشق ارتيادها . ولما أصبح الاتباع الجدد من المشركين غالبية بين المؤمنين وصار واضحاً أن التبشير بالمسيحية لن يقدر له النجاح إلا فى ديار الوثنية ، تحتم على ما سوف يعرف فيما بعد بـ « عهد الإيمان » ، أن يبرز وينمو مطابقاً لصبوات هؤلاء الناس وتطلعاتهم .

ولما كانت نظريات بولس وفروض الإنجيل الرابع شافية لرغباتهم اللاشعورية ، فقد رجح الاعتقاد بأن التركيبات النظرية فى إطار المسيحية – تلك التركيبات التى فاقت كثيراً كل ما تصوره الاثنا عشر فى إيمانهم الأول – لن تنفك تنمو وتتضخم حتى تحتل أكبر مكانة من العقيدة .

وفى الوقت نفسه أيضاً : تم الانفصال الفعلى بين الكنيسة والمعبد وأصبح أتباع عيسى يتحدثون عن اليهود بعبارات لاشك فى أنها كانت غريبة كل الغرابة عن تعاليم أستاذهم . ولن يلبث هؤلاء الأتباع أن يرفضوا الاعتراف لليهود بأى إدراك للحق وبأى فهم للشريعة الموسوية نفسها[1] . ولقد طغت الكنائس الكبرى ، التى احتشد فيها قدامى الوثنيين ، على البقية المتبقية من تلك الجماعات الصغيرة الفقيرة التى أسسها الحواريون وأتباعهم اليهود ، والتى لم تضم فى غالبيتها سوى أناس يؤمنون بالعبادات اليهودية ، بالشام ، وبمصر ، وبروما أيضاً حسب ما تشير إليه بعض الدلائل .

وكانت هذه الجماعات تجتهد فى المحافظة على التعاليم التى تلقتها من رجال عرفوا « السيد » وصاحبوه ؛ فاتهمت بهزال التفكير فيما يخصه ؛ وأوشك أن يأتى اليوم الذى يرفض أغلب المسيحيين لها فيه حق التطلع إلى قسطها من « الخلاص » . ولقد كتب القديس جوستين : أن المسيحيين الذين يداومون على احترام أحكام اليهودية سوف يصلون فى رأيه ، إلى « الخلاص » ، على شريطة أن يحاولوا فرض شعائرهم على الآخرين ، ولكنه أضاف إلى ذلك : أن الكثير

---

(١) يبدو أن الرسالة المسماة بـ « رسالة بارابا » وهى من المؤلفات التى تهاجم اليهود فى عنف ، يبدو أنها كانت ، على أرجح التقديرات ، كتيب ألف بالإسكندرية فيما بين عام ١١٧ وعام ١٣٠ . إلا أن أحد المؤلفين المسيحيين من سوريا كان يصف اليهود قبل ذلك بخمسين عاماً بـ « المنافقين » .

من المؤمنين سوف يستنكفون من الاتصال بهؤلاء القوم . والواقع أن المسيحيين اليونانيين الرومانيين أصبحوا لا يشعرون برابط يربطهم ببنى إسرائيل ، كما أصبحوا يحملون الشريعة اليهودية معنى رمزيًّا بحتاً ، برغم تصريح المسيح فيما مضى : بأنه لن يبدل من هذه الشريعة حرفاً .

وفى الوقت نفسه أيضاً بدأت الجماعات المسيحية ، التى انفصلت عن المعابد تماماً ، تنظم صفوفها لتقوى على الحياة ؛ فاختارت بادئ ذى بدء رؤساء زمنيين كلفوا بالسهر على مصالحها المادية وعلى استتباب النظام بين رحابها : فى حين راح « الملهمون » من الأعضاء بوحى من الروح القدس يدعمون وينشرون الإيمان . وعندما أحست هذه الروح بالحاجة إلى الاستقرار ، بدأت تتشكك أمر « الملهمين » وما يبدر عنهم من نشاط شخصى ، فبحثت عن السبيل إلى إقامة تنظيم أكثر فاعلية لإدارة « مصالحها » الروحية . ولعل النظام الملكى بين رجال الكنيسة قد نشأ عند انتهاء الجيل الذى اتصل بالحواريين وعرفهم . ويمكن التأكيد ، على أى حال ، بأنه ، عقب هذا الجيل ، كان وشيك القيام .

وبعبارة أخرى ، فإن المسيحية ، فى مقتبل القرن الثانى ، تظهر لنا فى ثوب دين مستقل ، يدرك أصحابه تماماً انفصاله عن اليهودية ، وإن كانت عناصره لم تزل بعيدة عن الانسجام ، كما لم تخرج طقوسه وتنظيماته عن الطور البدائى . وكانت هذه المسيحية ، منذ ذلك الوقت ، قد ابتعدت كثيراً عن الأفكار التى جاء بها عيسى والحواريون ، وأصبحت تتجه إلى بنى الإنسان جميعاً دون تفرقة بين الأجناس أو الطبقات الاجتماعية ، لتدعوهم إلى حياة الخلود .

(ب)

عرفنا فيما سبق من الفصول أن العالم اليونانى الرومانى ، خلال الفترة التى انتقلت فيها إليه آمال المسيحية ، لم يكن صحراء فكرية وعقائدية قاحلة ؛ بل كان يحمل فى رحابه نوعاً من التفكير الدينى . وقد لا يكون هذا التفكير الدينى فى الواقع متكاملا - إذ تعلق ، حسب كل فرد ، بموضوعات مختلفة ؛ أو حاول ، على العكس من ذلك ، أن يؤلف بين موضوعات غير متشابهة - إلا أنه كان برغم هذا ، تفكيراً لا يقبل أن يتلاشى دون رد فعل . وكان يعتمد لدى الطبقات الجاهلية - التى كثيراً ما تخلطه بالسحر - على مجموعة كبيرة من العادات والآراء المتوارثة التى يكاد يستحيل القضاء عليها . أما لدى الطبقات المستنيرة ، فكان عماده أيضاً ثبات التقاليد ، بالإضافة إلى التربية الفكرية المعتادة . ففى كل ربوع الإمبراطورية كانت المدارس تبث فى الأطفال روحاً متسقة ، وكانت تعلمهم أساليب منطقية متشابهة وتدعوهم إلى معين ثقافى واحد ، ينتظم تفكيرهم الدينى بالضرورة طبقاً لمقتضياته . وبرز من الآن عامل أساسى فى المسألة ، هو : أن ثقافة هذا العصر كانت مقصورة ، أو تكاد ، على المجال الأدبى . فقد كان أمام الفتى طالب العلم طريقان لإتمام دراساته : الأول منهما منهج البلاغة التى لا يتعلم به سوى فن ترتيب الأفكار والكلمات ؛ والثانية الفلسفة ، التى تريد أن تكشف له أسرار العالم وأن تعطيه تفسيراً للحياة ثم تؤسس لديه مبادئ وأحكام الأخلاق ولم تكن الفلسفة تعتمد فى كل ذلك على أى من العلوم العملية : فالنزعة إلى البرهان التجريبى ، التى ألفها الفكر العبقرى اليونانى قديماً ، كانت قد أضيعت وانتهى أمرها ؛ وشاعت بين الناس خرافات

لايحصى عددها ، رددوها على أنها حقائق ، برغم تهافتها أمام التحليل السليم .
لذلك لم يكن علم الطبيعة يعتمد فى هذا الزمن إلا على نوع من الاستقراء الذى لا أساس له ، وعلى نظريات يدعى أصحابها أنها عملية ، وإن كانت لا تمت إلى العلم إلا ظاهريًّا . لذلك فإن الفلسفة ، برغم خصوبتها فى المجال الأخلاق الذى أظهر فيه الكثيرون حكمة وبراعة وبلاغة كبيرة ، نراها تتشتت بين مذاهب ميتافيزيقية عديدة ، قد تهمنا بوصفها تركيبات فكرية ، ولكنها تبقى بعد ذلك مذاهب تحكمية بحتة لأنها غير مؤسسة على الواقع . وعلى أى حال ، فقد أنشئت هذه المذاهب منذ زمن بعيد بفضل مفكرى الإغريق ، ثم تطورت فى العصر الذى نتحدث عنه حتى لم تعد غير « موضوعات » يطرقها الأساتذة ويغيرون فيها ويبدلون ، كل حسب اتجاهات شخصيته الفكرية . ولما كانت هذه الموضوعات غريبة تماماً عن العلوم الوضعية ، سهل تطويعها وحشوها بإضافات لاتمت بصلة إلى مذاهب أصحابها الأول : هكذا مثلا كان فيلون قد جمع بينها وبين الفروض الأساسية للشريعة اليهودية ؛ وهكذا استنبط منها فلاسفة الأفلاطونية الحديثة نوعاً من الأديان المهمة ؛ وهكذا أيضاً أدخلها علماء الإسكندرية المسيحيون فى إطار مفاهيم إيمانهم ، فخرجت من هذا الخليط عقائدية جديدة .
وفى حدّ ذاتها ، لم تكن الموضوعات المذكورة لتستطيع مقاومة أمام مثل هذه النزعات ، إلا أنها ، من ناحية أخرى كانت ضربت بجذورها فى أذهان المثقفين وتقبلها الناس جميعاً ، حتى العامة منهم ، باعتبارها حقائق لا مماراة فيها ؛ فصار من المحتم أن يحسب حسابها فى كل تفسير للعالم والحياة ومصير البشرية ، وفى كل دين يقوم بالبلاد .

ولنلاحظ ، بالإضافة إلى ذلك ، أن المسيحية أدخلت فى العالم اليونانى

الرومانى خلال القرن الأول ، فلم تثبت به وتتمكن إلا فى القرن الثانى ، ثم لم تنتشر كل الانتشار إلا فى القرن الثالث . وإن ما نسميه اليوم بـ « روح الشعب » وبـ « الرأى العام » ، لم يبق على موقف واحد ، خلال هذه القرون الثلاثة ، تجاه المسائل الخاصة بالفلسفة وبالدين . حقيقة أن موقف الطبقات الممتازة ظلّ مختلفاً عن موقف الطبقات الدنيا ، ولكننا نستطيع القول بأن عند كل من الطائفتين كان يتغير بمرور السنين . وإذا ما كانت المسيحية قد انتشرت كل هذا الانتشار فى القرن الثالث ، فذلك لأن التغير تم وفقاً لمصالحها .

وفى العهد الذى حلت فيه الإمبراطورية محل الجمهورية كانت الديانة الرسمية اليونانية – الرومانية قد تطورت إلى نوع من التأليف الدينى ، إلى نوع من التوفيق – تم على أعقاب احتلال الرومان للشرق الإغريقى – بين آلهة المتصرين وآلهة المغلوبين . ولم يكن المثقفون من الناس يؤمنون بها ، وإن أظهروا احترامهم لها فى المجالات العامة ، ولم يستنكفوا من المشاركة فى طقوسها عندما تقتضى الظروف مشاركتهم ؛ ذلك أنهم آمنوا بضرورتها بالنسبة إلى عامة الشعب الذى يحتاج إلى ضابط لأطماعه ولغرائزه الفطرية الخطرة ، وأنهم لم يتناسوا أن دولتهم القديمة قامت على أطراف منها فى قديم الزمن ، وأن أجدادهم اعتمدوا عليها فى كفاحهم المتصل ، ثم لأن هذه الديانة لما تمتاز به من صفات رومانية خاصة – هى الرابطة الملموسة بين أهل المدينة الكبرى روما . وكانت نزعتهم المتفاوتة من العمق إلى الشك تدفعهم نحو مذاهب المدارس الفلسفية المختلفة ، يطلبون منها ، كل حسب حاجته الشخصية ، الغذاء الميتافيزيقى الذى لا يستطيعون عنه غنى . وذهبت غالبيتهم فى اتجاهاتها نحو المدارس الرواقية أو الأبيقورية . أما الطبقات الدنيا من الناس فقد ظلّ أفرادها على تقديسهم لصغار الآلهة وللسحرة .

وبينا الأمر كذلك ، إذا بالديانات ذات الأسرار ، النازعة إلى التصوف والحسيات ، والتى كانت قد أتت من الشرق وضربت بجذورها فى أرجاء الإمبراطورية ، إذا بها تنتشر شيئاً فشيئاً وتجد الأعداد المتكاثرة من الأتباع . وقد وضع الإمبراطور أغسطس مخططاً لإصلاح الدولة ضمنه قسماً يهدف إلى الإحياء الكامل الشامل للديانة الرومانية . ولكنه فى عمله هذا إنما كان يتيه فى دروب غريبة من الخيال ، إذ ظن أنه يستطيع إجبار الناس على تقييد عاطفتهم الدينية – إن كانوا من ذوى العاطفة الدينية – فى الحدود التى رسمت لها فى الماضى البعيد ، أو أنه يستطيع إعادة الإيمان إلى صدور الذين فقدوه . ومهما يكن من أمر تفكيره هذا ، فهو لم ينجح فى استعادة الصورة الكاملة لما كان عليه الحال إلا فيما يختص بالشعائر وبالمعابد ؛ ولذلك كانت النتيجة الكبرى لعمله هى دعم معنى القومية المتمثل فى الشعائر الرسمية ، أصبحت الوطنية ، كما أصبح الإخلاص للحكم ، يفترضان التعبد لاسم أغسطس ولآلهة روما .

كانت هذه الديانة مقصورة على بعض الاحتفالات ، وخالية تماماً من كل فقه لاهوتى ومن كل عقيدة حقيقية ؛ كذلك لم تكن لتزعم بعث شىء من الحياة فى عاطفة دينية أيًّا ما كانت . بيد أن العاطفة الدينية عادت لتحتل فى الضمير الإغريقى – الرومانى مكانا يزداد اتساعاً بمرور الأيام ؛ وكان ذلك تحت تأثير نفحات أتت من الشرق ومهد لها الافتقار إلى العلوم الوضعية ، وألوان من المحن مرّ بها القوم من عهد « تيبريوس » إلى عهد « نرفا » ، وزعزعت من نفوسهم ؛ ولم تستطع الرواقية أمامها إلا حماية فئة طليعية محدودة العدد . ونمت هذه العاطفة وأصبحت لها متطلبات أخذت فى الازدياد . وطغى التحمس المتجه إلى حياة دينية عميقة – حتى بين الطبقات المستنيرة – على تيارات الشك ،

وتراجعت الرواقية فى سرعة سريعة أمام الأفلاطونية ، التى فاقتها فى المرونة وفى القابلية للتشبع بالعاطفة الدينية .

وإذا كان من المبالغ فيه القول بأن مارك أوريل كان آخر الرواقيين ، فمن الثابت لدينا أن السنين الأخيرة من حكمه هى الحد الذى بدأ بعد التدهور التام الذى أصاب الرواقية ، تلك الفلسفة التى وصل بها الإمبراطور النجيب إلى منتهى إشراقها . وكان العالم الوثنى بعد ذلك ناضجاً تمام النضوج للتقوى . وقد ساعد على نمو تياراتها فى سرعة سريعة ما رأيناه ، مع ظهور أباطرة عائلة سيفير ، من تولى أمراء أفريقيا والشام للحكم ، ثم من سيطرة نساء أشربن بالروح الصوفية الشرقية . ومر القرن الثالث بسائر مظاهر هذه التقوى : من أكثرها بدائية – تلك المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بالسحر – إلى أرقاها فى مدارك الإنسان ، صاغتها التأملات الفلسفية التى أصبحت تنشد الإله . وكان دين الدولة ، فى الصورة التى عرفت بها العصور القديمة كلها ، مقصوراً على عبادة الإمبراطور ، وذلك بعد توحيد جميع القوميات تحت سيطرة روما ؛ وانصبت سائر العواطف الدينية الحية ، بالتالى ، على فكرة خلاص الإنسان .

وهكذا أصبح لكل العقائد والعبادات أتباع يطوعونها لصبوتهم العارمة إلى مستقبل كله سعادة خالدة فى عالم آخر خفى ؛ وراح كل فرد بتقواه الخاصة يستنبط لنفسه ، من هذه المادة الدينية الضخمة ، أشكالا من الدين توافق طبعه ، ويلجأ فى سبيل إنشاء عقيدته وحياته الدينية العملية إلى التأليف بين نزعات للإيمان وصور للطقوس تختلف منابعها .

ولقد ظهرت المسيحية ، منذ القرن الأول ، فى ثوب الديانة الشرقية الجامعة بين الروحانيات وبين الشعائر العملية ، إذ كانت تعتمد من ناحية على الإلهام

الإلهى وعلى الوعد بـ « الخلاص » والخلود عن طريق شفيع أعظم ، وتسعى من ناحية أخرى إلى إنشاء « حياة » جديدة على الأرض ، حياة كلها حب وفضيلة . فكان من المرجح إذن أن تجد قبولا لدى هؤلاء القوم الذين يتطلعون إلى نفس الآمال التى جاءت بها . غير أن ما رآه الناس من تمسك المسيحية بعقيدة لا تميل إلى مزجها بما يحيط بها من عقائد كان من شأنه فى البدء أن يعرقل من انتشارها قبل أن يؤدى فى النهاية إلى ضمان ومساعدة هذا الانتشار . فقد أبدت المسيحية إحجاماً ظاهريًّا عن كل ما من شأنه التأليف بينها وبين الأديان الأخرى . إلا أنها كانت لا تزال غاية فى البساطة فيما يتعلق بالعقيدة وبالشعائر ؛ أى : كانت لا تزال غاية فى المرونة الفنية ، بحيث تستطيع استقبال النزعات الدينية والشعائر المنتشرة انتشاراً واسعاً التى تلاقيها فى العالم اليونانى – الرومانى فتدمجها فى عقيدتها وشعائرها ، ويكاد ذلك يكون دون إدراك منها . وإننا لنمعن فى هذا السبيل ، فنقول : إن المسيحية لم تكن تستطيع مدافعة أمام هذه النزعات والشعائر السائدة . وإذا كانت قد انتصرت فى القرن الثالث على سائر ألوان « التأليف » الدينى الوثنى فذلك لأنها كانت قد تطورت هى الأخرى إلى تأليف دينى تجتمع فيه سائر العقائد الخصبة والشعائر الجوهرية النابعة من العاطفة الدينية الوثنية قامت هى بترتيبها وتركيبها وأضفت عليها الانسجام الذى تفتقر إليه بحيث استطاعت أن تقف ، بمفردها ، أمام أشتات المعتقدات والشعائر التى يؤمن بها أعداؤها دون أن تظهر ضعفاً أو نقصاً عليها فى أى من المجالات الهامة .

وتمت ظاهرة التشرب هذه – وهى من الظواهر الأساسية فى تاريخ المسيحية – فى بطء بطىء ، معتمدة على الاتصال الدائب بتطور الإيمان بين جميع طبقات المجتمع الوثنى ، ذلك المجتمع الذى اختلفت فيه صور الإيمان

باختلاف بيئاته وباختلاف العهود التى مر بها ، كما بينا فيما سبق من حديثنا . وإنها الظاهرة تفسر لنا كيف جاء العصر الذى استطاعت فيه المسيحية أن تكسب عطفاً نشيطاً بين رحاب العالم اليونانى الرومانى . ولسوف يأخذ الإيمان المسيحى بعضاً من روح كل طبقة من طبقات المجتمع ، ولسوف يدين لها كمجموعة بالتدرج الهرمى الذى نجده حتى اليوم فى الواقع بين صفوف أعضاء الكنيسة ، ذلك اللون من التدرج الذى لوحظ منذ بدأ الدين المسيحى ينتظم تدريجاً يبدأ من « إيمان العجائز » البسيط الساذج ، وينتهى إلى إيمان المفكرين الفلسفى ، فى عملية تصاعدية بطيئة ، بل تكاد تكون غير ملحوظة .

كان دعاة المسيحية الأول أناساً من صغار القوم ، فاتجهوا بادئ الأمر إلى أمثالهم من طبقات المجتمع الدنيا . والواقع أن عقيدتهم – وهى الداعية إلى الصبر والمساواة والتآخى – لم تكن لتحظى بأكبر قسط من القبول المطلق إلا لدى هذه الطبقات . ولكن علينا ألا نغالى فى الادعاء : فقد بشر بولس وأتباعه بالمسيحية فى أوساط المريدين لليهودية ، ولم يكونوا جميعاً من الطبقات الدنيا ، بل عد فى صفوفهم نساء من علية القوم ، ولانشك أنه قد انضم إليهم أيضاً رجال من ذوى النفوذ والثراء ، والكثير من الدلائل يشير إلى أن بعضهم آمن واعتنق المسيحية . غير أنه من الثابت لدينا أن النبلاء من الناس أو ذوى الشأن بينهم لم يشكلوا قط سوى أقلية قليلة فى إطار الكنيسة ، وذلك حتى عهد الأباطرة من أسرة أنطونينوس . أما العبيد والعمال فكانو « الرصيد » الأكبر لها . ولما كان كل مسيحى جديد فى هذا العصر يعدّ وحدة جديدة فى قائمة المبشرين بها ، ظلت المسيحية على رواجها بين صغار الناس خاصة . ولكنها بدأت أيضاً – عن طريق العبيد والإماء – تنتشر بين المعتقات من النساء وربات

البيوت ، بل وجدت فى بعض الأحيان اهتماماً من طوائف الرجال المثقفين فى بحثهم عن الحقيقة الإلهية . وبفضل النساء تسربت المسيحية إلى الطبقات الممتازة من المجتمع ؛ وبفضل المفكرين الذين اهتموا بها وجدت خلال القرن الثانى ثغرة للاتصال بالفلسفة ، وكانت لهذا اللقاء نتائج بالغة المدى : كان رجال من أمثال « تاتيان » أو « جوستان » أو « ترتوليان » يفدون إلى المسيحية لأن تحولهم إليها صار نهاية حتمية لأزمات داخلية ؛ كانوا يحملون بين جوانحهم رغبات وتساؤلات لم تكفهم عنها الفلسفة ، فى حين كانت المسيحية تشبع الرغبات وتجيب عن التساؤلات . أما وقد أصبحوا مسيحيين ، فلم يكونوا ليستطيعوا التجرد مما تلقوه من تربية ، ومما درجوا عليه من عادات فكرية ومن أساليب منطقية ، ثم من تراث ثقافى وفلسفى تجمع لديهم ، مهما زعموا من التنكر لكل ماضى حياة فكرهم . وسواء أدركوا الأمر تمام الإدراك أو شعروا به شعوراً غامضاً فحسب ، فإنهم ولاشك رأوا وجوه نقص فى الدين الذى تبنوه ، وجوه نقص لافى مبادئه - فقد اعتبروها عميقة عمق اللانهائية - ولكن فى صور التعبير عن هذه المبادئ ، لذلك نزعوا - عندما أرادوا بدورهم الحديث عن هذا الدين - إلى إظهاره فى إطار فلسفة إلهامية ، ولم يستطيعوا فى نزعتهم تحكماً . ولذلك أيضاً راحوا يحشون تبريراته بكل ما أوتوا من الأساليب المدرسية ويدفعون فى العقائد بل التأملات والتفسيرات التى أوحى بها إليهم ، فيما مضى ، تفكيرهم الميتافيزيقى فى وقفته أمام المسيحية .

ومهما يمكن من تفتح آفاقها ومن مرونتها التى اكتسبتها بفضل التفكير البولينى واليوحانى ، فالمسيحية النابعة من الجيل الذى تلا الحواريين لم تقدر مثل هذه التأثيرات ، ولم تدبر الوسيلة لتحليلها وللتحكم فيها ، بسبب ما كانت عليه من

تردد وقلق فى مجال العقائد، فاجتمعت عليها هذه التأثيرات بادئ ذى بدء فى عنف وفى غموض لاحد لها ؛ ولم تشعر جماهير المؤمنين – وهى البطيئة دائماً فى إدراك حقيقة الأمور – لم تشعر إلا بعد حين أنها كانت تدفع بالإيمان فى اتجاهين مختلفين كل الاختلاف .

(جـ)

أما الاتجاه الأول فينزع إلى الثقافة اليونانية ليستعير منها كل المفاهيم التى من شأنها زيادة للمسيحية الأولى عمقاً وجمالاً .

ولم يكن أصحاب هذه الاتجاه ، فى تطويعهم لتلك المفاهيم ، حذرين كل الحذر ؛ ولم يتفق عملهم دائماً مع النصوص أو المنطق وواقع الأحداث ؛ إلا أن نيتهم ، على الأقل ، كانت مطمئنة : إذ لم يطلبوا سوى إخضاع أهم أحكام التفكير اليونانى إلى مقتضيات فروضهم . وإذا كان الأمر قد انتهى إلى تطوير وتغيير المفاهيم والفروض على حد سواء حتى أصبحت شيئاً آخر غير ما كانت عليه فالعزاء يكمن فى أن التطور حدث ببطء شديد ، ولم يستثر لدى الناس دهشة أو تأففاً ، بل طبقاً للرغبات الواضحة أو اللاشعورية لدى جماهير المؤمنين .

ولو جاء النبأ إلى الاثنى عشر بأن عيسى قد تمثل فيه الله لما فهموه بادئ ذى بدء ، ثم لتصايحوا بالفضيحة والرذيلة الممقوتة . ولكن المرجح أنهم لم يعارضوا قول بولس بأن عيسى كان « إنساناً سماويًّا » وأنه تمثلت فيه « روح الله » . فكان ذلك بداية للإضافات التى تطلع إليها إيمان المؤمنين بإلحاح ، والتى انتهت فى تدرجها – بعد التقريب بين الله والمسيح – إلى التوحيد التام بينهما . ولم تسر هذه النزعة – التى خرجت منها الأرثوذكسية – فى خط مستمر واضح ، بل كثيراً

ما ترددت وكثيراً ما ضلت طريقها بين النظريات التى لم يقبلها الإيمان الجماعى ، وكثيراً ما قامت أمامها الصعوبات الجمة فى بحثها عن الفكرة الملائمة أو التعبير المناسب ؛ ولكنها – وهذا هو جوهر المسألة – لم تحاول قط ، بسبق إصرار وإدراك ، أن تؤلف بين الأفكار الوثنية ، أيا كانت ، وبين فروض المسيحية ؛ أو إذا شئنا التعبير بصورة أخرى : فهى فى اختيارها وتنظيمها للإضافات التى استعارتها من الثقافة اليونانية إنما اختارت ونظمت طبقاً لمقتضيات الفروض المسيحية ، ولم نر منها خروجاً عن تلك الحدود ، حتى بين رحاب المدرسة البديعة التى قامت بالإسكندرية وكان أوريجين علمها الأعظم ، تلك المدرسة التى أتمت العمل الكبير : ألا وهو تطوير المسيحية إلى فلسفة ملهمة وكاملة .

أما الاتجاه الآخر الذى عرفته المسيحية منذ القرن الثانى أو قبله ، فهو ينبع من مبدأ مختلف : إنه أيضاً يريد أن يتسامى بالأفكار البسيطة الأولى وأن يوسع من أبعادها ؛ ولم يستطع إلى ذلك سبيلا إلا بتركيب هذه الأفكار مع معتقدات أو نظريات مستعارة من البيئة المحيطة . ولكنه منذ البدء لم يتبع أى حدود فى اختياراته ، فراح يجمع بين موضوعات متعددة ومتباينة أشد التباين : من الوثنية الأوليمبية ، والأورفية ، والديانات المختلفة ، إلى المذاهب الفلسفية ؛ وكان كل شىء غذاء دسماً له ؛ ثم إنه ، من ناحية أخرى ، لم يكن يهتم بالتوفيق بين ما يستعيره وبين معطيات التاريخ أو – على الأقل – معطيات الإيمان المعروفة . فهو اتجاه يريد أن يكون صاحب إلهام خاص يبرر به أبشع التركيبات التى يقدمها ، تلك التركيبات التى بدت فى صورة مذاهب تأليفية كاملة ، لا نلمح فيها المسيحية إلا كعنصر قد تغير تغيراً هائلا ، من بين عناصر فلسفة كونية معقدة وميتافيزيقا عسيرة الإدراك ، وليس بينه وبين هذه الفلسفة أو تلك الميتافيزيقا

صلة تذكر. ومن الطبيعي أن هذه الألوان المختلفة من « الغنوصية » التى ازدهرت فى القرن الثانى ، لم يطمئن اليها السذج البسطاء ، ولم يكن مقدراً لها البقاء برغم تحول الكثيرممن تغريهم تركيبات ميتافيزيقا الصوفية والرمزية . ومع ذلك كانت مطابقة لمنطق التطور المسيحى ؛ ونعنى بذلك أنها تعرض علينا وجهاً من وجوه ذلك التطور ، يتجاوب مع ما عرفناه من روح العصر الذى نشأت فيه ويساعد على إيضاح جوانبه لنا .

وإن ظهور ألوان « الغنوصية » هذه لأمر بالغ الأهمية ، مثله فى ذلك مثل ظهور البدع المختلفة التى يصارعها الإيمان قبل أن يصل إلى مستقر له ، والتى يمكن اعتبارها فى غالب الأحيان ، آراء سيئة الحظ وإن كانت لاتقل فى الإغراب و « البدعة » عن الآراء التى فرضت أو فرضت نفسها . وكان من نتيجة الجدل العنيف الذى ثار حول كل هذه المسائل : أن ثبتت شيئاً فشيئاً سائر أركان العقيدةالمسيحية ، وأتاح للمؤمنين سبيلا إلى التأمل فى نزعاتهم الفكرية أو العاطفية الخاصة وتحديد اتجاهاتها ؛ كذلك عرف بالمشاكل ، وأبرز الخلافات التى وكل إلى علماء اللاهوت حلّها ، وكان له فضل آخر يفوق كل هذا فى الأهمية ، ألا وهو تأكيد رغبة الناس الملحة التى تدعمها الضرورة لإيجاد « تنظيم للإيمان » ، أى « قانون » ، ثم « سلطة » تمثل القانون وتحميه . وعلى هذا ، يمكن اعتبار الجدل المذكور ، أنشط العوامل فى تنظيم الكنيسة والسلطات الكنسية التى أنشئت خلال القرن الثانى . وهناك عامل آخر يجب البحث عنه فى تأثير البيئة اليونانية الرومانية على المسيحية الأولى ؛ وهو تأثير نزع إلى إدخال الطقوس الوثنية ، بعضها أو جميعها ، فى عبادة كلها « روح وحق » بعد أن هجر أصحابها المعابد اليهودية . ونمت الشعائر فى المسيحية بالتوازى مع

العقيدة وبنفس الأساليب ، فبدأت بتلك العادات الأولى المبسطة الوافدة من اليهودية : التعميد ، كسرة الخبز ، وضع الأيدى على الرأس ، الصلاة ، الصيام ؛ وحملت هذه العادات معانى لم تنفك تزداد عمقاً و« سرية » ، ونمت وأضيفت إليها حركات شائعة لدى الوثنيين ، ثم قرنت بالمفاهيم المتسعة الأبعاد التى كانت تدخل مثلا فى طقوس « الأسرار » اليونانية والشرقية ، ونفخ فيها – إذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير– بتلك القوة الرهيبة التى كانت للسحر قديماً . وبدأ هذا التفاعل منذ انتقال إيمان الحواريين من فلسطين إلى العالم اليونانى ، وقد لاقيناه وهو فى طور متقدم لدى بولس وأتباعه ؛ ثم واصل تأثيره طوال تلك الفترة التى كان الدين الجديد يكافح فيها ضد منافسيه من الأديان .

ولعله من العسير أحياناً أن نرجع فى كل تأكيد لوناً من ألوان الطقوس المسيحية إلى الأصل الوثنى الذى نبع منه . إلا أنه لا مجال للشك فى أن الروح الوثنية ، فيما يختص بمظاهر العبادة العملية ، قد فرضت على المسيحية شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحنا نجدها كاملة فى احتفالاتها . وزاد التقارب بشكل ملحوظ منذ القرن الرابع ، عندما دعت الضرورة إلى القضاء على بعض التقاليد القديمة الصلبة . وكانت سلطة رجال الكنيسة ، من ناحية أخرى ، تعمل على دعم ذلك الحق الذى اكتسبته منذ فترة طويلة والذى انتهت إلى التفرد به برغم بعض التردد ، ألا وهو : التصرف فى القوة السحرية للطقوس التى سميت بـ « الأسرار القدسية »

(د)

إذا تأملنا الكنيسة المسيحية فى مقتبل القرن الرابع ، فإنه يتعذر علينا أن نجد صورة من صور مجتمع الحواريين ، أو - إذا أردنا الحق - يستحيل علينا ذلك فبدلا من جماعة محدودة من اليهود لايفرق بينهم وبين باقى أمتهم سوى أمل خاص وترحيب بالمتتلمذين عليهم من الوثنيين يفوق ترحيب اليهود عامة ، بدلا من ذلك : نجد مجتمعاً دينيًّا واسع النطاق يدخل فيه - دون تمييز لجنس أو لطبقة معينة - كل من يرى فى نفسه القدرة الكافية ؛ مجتمعاً يدرك تماماً أنه يشكل وحدة متكاملة ، وأنه هو الأمة المختارة ، أى : كنيسة المسيح . وتنكرت الكنيسة الجديدة لشعب إسرائيل وشاع فيها القول بأن هذا الشعب قد خرج عن سبل الله وتاه بعيداً عن الحق ، حقيراً محقراً . كما وجدت الوسيلة الناجعة للتخلص من الشعائر العملية التى تفرضها الشريعة اليهودية مع الاحتفاظ بـ « العهد القديم » كتاباً مقدساً[1] . وعلى أساس من المبادئ الجوهرية لإيمان بنى إسرائيل ، أنشأت هذه الكنيسة مجموعة عقائدية جديدة بالغة التعقيد ، اعتمدت فى صلبها على شخصية المسيح التى نمت من حولها النظريات حتى تم توحيدها بالله ، واستقت عناصرها من التأملات الخاصة المتغالية فى تفسير معطيات الإيمان الأولى ، ثم من المذاهب الفلسفية والدينية التى وجدتها فى البيئة

---

(١) يبدو أنه كان من مصلحة المسيحية التخلص أيضا من الشريعة اليهودية ، وقد سعى بعض ذوى النفوذ من المسيحيين - مثل مارسيون - إلى ذلك . ولكنهم لم يوفقوا فى مسعاهم ، لأن المسيحية الأولى اعتمدت دائما فى تبريراتها على نصوص التوراة التى اعتبرت نصوصاً منزلة على الأنبياء ، فقوى ذلك من قدسية الكتاب لدى اليهود - المسيحيين وثبت من صفته الإلهية .

اليونانية الرومانية . وقد خرجت هذه المجموعة العقائدية على الناس فى صورة ماسمى بـ « شروط الإيمان » التى أقامها المختصون من ذوى السلطة بناء على الآراء الغالبة ، وأريد لها أن تكون – مثلها فى ذلك مثل الفلسفة الملهمة الكاملة – تفسيراً « ثابتاً » للعالم وللحياة ولمصير الإنسان ، أخذ علماء اللاهوت يعملون فى حماس على توسع أبعادها ومفاهيمها وعلى ترتيبها فى انسجام وتكامل .

ومن ناحية أخرى ظهرت لنا الكنيسة على أنها هيئة منظمة . فلقد انتظمت شيئاً فشيئاً فى كنائس خاصة على غرار المعابد اليهودية أو الجماعات الوثنية ؛ الذين اعتاد قادتهم التشاور فى كل الأمور الخاصة بالإيمان والآداب العامة والنظام ، وأن يعبروا عن رأى الأغلبية فى قرارات جماعية . ويشرف هذا الإكليروس على طقوس أخذت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن اليهودية أو عن « الأسرار » الوثنية ، ولكنها ألبست ثياب المسيحية ، وحملت – أوحمل الأهم منها على الأقل – بتلك القوة السحرية الخفية التى كان يراها رجال هذا العصر فى العبادات السرية ، سواء منها اليونانية أو الشرقية . وبعبارة أخرى : أصبحت المسيحية ديناً حقيقيًّا ، بل أكمل الأديان إذ ذاك لأنها تبنت من كل دين خير ماوجدته لديه . وكانت أيضاً أكثر الأديان ترحيباً بالوافدين إليها ، وأكثرها إيحاء بالصبر والسلوى ؛ ثم أيضاً : أكثرها قرباً من الخصائص الفطرية للإنسان ، بحيث يجد البسطاء من القوم أنفسهم مندفعين إلى الإيمان بها وإن لم يدركوا مفاهيمها وإلى إطاعة ذوى السلطة فى تنظيمها وإن لم يحاجوهم فى الرأى ، وذلك حتى يضمنوا الخلاص والخلود ؛ كما يجد الفيلسوف فى عقائدها مادة لا تنتهى للتأمل والتفكير .

ومع كل ما امتاز به هذا الدين من تيارات تأليفية عميقة ، فإننا نرى لديه

تعصباً قويًّا عنيفاً ، تعصباً لايقهر : فهو لا يقبل مشاركة أتباعه فى دين آخر بأية صورة من الصور ، وهو لايقبل أية منافسة . وأدت هذه النزعة الجوهرية فى طبيعته إلى إقامة عقبات بالغة الخطورة أمامه ، ونخص منها بالذكر عداوة الحكام والمجتمع المدنى كله ؛ ولكنها انتهت أخيراً إلى تثبيت أقدامه وضمان انتصاره .

وقبل أن نحاول تفهم الصراع بين المسيحية وبين الحكام والمجتمع ، ذلك الصراع الحاسم فى طبيعته ونموّه وأبعاده ونتائجه ، يجب علينا أن نحلل عن كثب وأن ندرس فى مجال الواقع ظاهرتين أساسيتين عرضناهما فيما سبق عرضاً مبدئيًّا ، وهما أن دين المسيح – ونعنى به الدين الذى يتخذ المسيح إلهاً خاصًّا به – هذا الدين ، عندما انتظم فى الدنيا ، نبعث منه « الكنيسة المسيحية » . ثم إنه إلى جانب هذا ، قد تطور فأصبح « مجموعة عقائدية » و « مذهباً للعقيدة » ، بعد أن كان فى بدايته « أسلوب حياة » .

الفصل الثامن

تأسيس وتنظيم الكنيسة

(ا) المسيح لم يؤسس الكنيسة ولم يردها ويبدو أن الحواريين من اهل الجليل لم يفكروا فى هذا أيضا - صمت النصوص الإنجيلية - أسطورة سبق بطرس - الحواريون مهدوا للكنيسة دون إدراك منهم للأمر - جماهير المؤمنين وكنيسة الله - فكرة بولس عن الكنيسة قبل تنظيمها - كيف تحتم هذا التنظيم - مفهوم الكنيسة فى بداية القرن الثانى .

(ب) أصل الكنائس الخاصة - المثل التى احتذتها فى تنظيمها - الجماعات الوثنية والمعابد اليهودية - ضرورة إنشاء الوظائف - الإسراع بالتطور - التأثيرات المختلفة التى يسرت إنشاء الإكليروس وقيام نظام الأساقفة .

(حـ) نظام الأساقفة الملكى - أصوله - زوال نظام الأساقفة الجماعى : أسبابه - مقاومة البدع واحترام السنن المأخوذة عن الحواريين - الأسقف كرئيس للكنيسة - نظرية إيجناس - الأسباب الخارجية التى مهدت لتحقيق هذه النظرية عامة - « قوائم » الأساقفة .

(د) انتخاب الأسقف - شروط الانتخاب - سلطات الأسقف - حدود هذه السلطات - المقاومة داخل الإكليروس - إنشاء « هيئة الكنيسة » - التدرج فيها - التمييز فى الأمة المسيحية بين رجل الدين وبين الرجل العادى .

(هـ) المفهوم الكاثوليكى للكنيسة - العناصر الأساسية لهذا المفهوم - دور كنائس الحواريين - المركز الفريد لكنيسة روما - الكنيسة فى بداية القرن الثالث .

(١)

إن المسيح لم ينشئ الكنيسة ولم يردها .

ولعل هذه القضية أكثر الأمور المحققة ثبوتاً لدى أى باحث يدرس النصوص الإنجيلية فى غير ما تحيز ، بل إننا نؤكد أيضاً أن الفرض العكسى لا يمكن أن يوجد له سند تاريخى مقبول ، ولم يستطع رجال اللاهوت ، بكل ما أتوا من براعة ، حيال ذلك شيئا . ومهما بلغ من فقر معلوماتنا عن تعاليم المسيح ، فإنها لتبدو لنا ، فى مجملها ، كرد فعل ضد التعصب الضيق الأفق للشريعة الموسوية لدى اليهود ، وضد شعائرهم التى تزيد فى صرامتها عن الحد المعقول ، وإن كانت الشعائر والشريعة - بعد ذلك - من ألزم اللوازم الأساسية لكل حياة تزيد أن تشكل ، حقيقة ، كنيسة . ثم إنها لتبدو لنا حافزا قويًّا من حوافز « الاجتهاد الفردى » . فالإنسان يجب أن يرتفع روحيا نحو « أبيه » الذى فى السماوات ، بالاطمئنان والحب ، ثم بـ « التوبة » أيضا ، أى : الرجوع النهائى عن خطاياه ، بتطهير ضميره والتسامى بإرادته . وذلك بالذات هو المبدأ المضاد لفكرة الكنيسة . ولقد ذكرنا فيما سبق ، بالإضافة إلى ما نقول به هنا ، أن عيسى كان يترقب حلول مملكة الله الوشيك . ومن شأن هذا الأمل أن ينفى من منطقه كل فكرة تتعلق بالتنظيم الدنيوى لأتباعه . ثم إن عيسى كان يهوديًّا ، خاضعاً تمام الخضوع لشريعة بنى إسرائيل الدينية - وإن عارضها ظاهريًّا فى سبيل توسيع مداركها فعليًّا حسب ما ظن أنه روحها الحقة . لهذا كله ، لابد لنا من الإيقان بأنه لم يكن ليعمل فكره لحظة واحدة فى رسم خطوط ما نسميه بـ « الكنيسة » :

وإذا ما قلنا إن المسيح صرح للحواريين الاثنى عشر بسلطة ما – وهذا محل جدل حتى اليوم – فمما لا شك فيه أن الأمر لم يتعد منحهم بعض ما أوتى هو من سلطان فى التبشير بالتوبة وبحلول مملكة الله ؛ ولم يصنع منهم « قساوسة » حيث لم يكن فى حاجة إلى ذلك . وعلى أى حال فإننا عندما ندرس ما قام به هؤلاء الحواريون من أعمال ، لانجد أنهم فكروا فى إنشاء الكنيسة ، إذ ظلوا على إخلاصهم للدين اليهودى وداوموا بكل دقة على شعائره مؤمنين أيضا بأن المستقبل لمملكة الله ، وليس لكنيسة ما .

والنصوص الإنجيلية لم تنسب قط إلى المسيح تعبيرا مثل : «كنيستى » ، أو : «كنيسة الأب » ، إلا فى مناسبة واحدة نقرأ فيها : « إنك أنت – لبطرس – (بطرس – صخرة) ، وعلى هذه الصخرة سوف أبنى كنيستى » (إنجيل متى ، ١٦/١٨ – ١٩) ولكن هذا الحديث المشهور ، والذى استغل أقصى الاستغلال ، لا يمكن بحال من الأحوال الاعتماد على صحته ، إلا إن أعلنا أن المسيح ، فى ساعة من ساعات الغفلة والتيه ، قد تنكر لتعاليمه ، ولعمله ، ولرسالته ، بل لذاته أيضا[١] . وإن النصوص والأحداث ، فى تسلسلها ، لتدل دلالة قاطعة لا تقبل الجدل على أن أسبقية بطرس الحوارى – التى يقال فى إنجيل متى أن عيسى قد صرح بها – لم يكن لها أى حظ من الواقع ولم توجد قط ، وعلى أن الأتباع الذين تجمعوا حوله وحول حنا ويعقوب لم يقدروه ولم ينصتوا إليه إلا باعتباره رجلا شرف بثقة الأستاذ وبمودته .

بيد أن الحواريين قد وضعوا – دون إدراك منهم – الأحجار الأولى لبناء

---

(١) راجع الفصول الثلاثة الأولى من كتاب المؤلف المطبوع بباريس عام ١٩٠٩ : « أسبقية بطرس ورحلته إلى روما » .

الكنيسة . وعندما نرى « السنن المأخوذة عن الحواريين » تستخدم فيما بعد على أنها القمة العليا المنزهة عن الخطأ فى كل ما تقدمه الكنيسة ، فليس ذلك اختراعا كله ولا تأليفا ، وإن كان نتيجة لنوع من المبالغة فى التقدير . وهذا أمر جدير بالتفسير .

يمكن القول بأن « فكرة الكنيسة » نشأت عن انتقال الأمل المسيحى من فلسطين إلى ربوع العالم اليونانى ، وأيضا - إذا شئنا - عن تطور هذا الأمل إلى العالمية . مهما يكن من احتقار الناس للحياة الدنيا ، فلابد لهم من أن يشعروا بنوع من الوحدة فيما بينهم ومن التضامن الذى قد تتفاوت قوة الرباط الناتج عنه ، عندما يتعلقون بأمل واحد للمستقبل ويسعون فى سبيله إلى التخلص من مظاهر حياتهم الدينية السابقة . غير أن اليهود « الذين أظلمت قلوبهم » لم يلبثوا أن طردوا أتباع المسيحية من معابد المهجر ، سواء منهم من كان يهودى الأصل أو مريدا لليهودية . كذلك ترك الوثنيون الذين آمنوا معابدهم . والتف الجميع حول عبادة واحدة تمجد « السيد عيسى » . وكانت بطبيعة الحال عبادة بدائية ، إلا أنها انطوت منذ ذلك الحين على فكرة الاجتماع الأخوى (فالأتباع يطلقون على أنفسهم فيما بينهم كلمة « الإخوة ») ، والصلاة الجماعية ، وطقوس المعرفة ، وشعائر التقرب - سواء منها شعائر التقرب الخاصة بالاتحاد بين السالكين (وفى هذا المجال نرى الاتباع يسمى بعضهم بعضاً بـ « القديسين » ، وهو تعبير ذا مغزى) ، أو شعائر التقرب الخاصة بالاتحاد مع السيد وعلى مائدته وكان هؤلاء القوم الذين « يبتهلون باسم سيدنا عيسى المسيح » ويستطيعون أن يتسموا بـ « قديسى هذا المسيح » بل يعتبرون أنفسهم « إخوة فيه » مهما تباعدت ديارهم ، كانوا جميعاً أعضاء فى « كنيسة الله » ؛ أى أنهم مهما تفرقوا أشتاتاً فى

بقاع الأرض الشاسعة يظلوا لدى الله الصفوة المختارة من أمته .

وذلك مفهوم يعبر عنه بولس فى وضوح تام . ونعتقد أنه عندما يتحدث عن «كنيسة الله التى فى كورنثيا » فإنما يعنى فقط – أنه سمح لنا باستخدام هذا التعبير – « جزء كنيسة الله العالمية » الذى يقوم بتلك المدينة ، لا جماعة منظمة أو هيئة كنسية أسست فى كورينثيا ، ونفسر فكرتنا هذه تفصيلا ، فنقول : إن الفكرة الصوفية للكنيسة « فى » الله نشأت من ذاتها « فعلا » وبالضرورة فى عقل رجل مثل بولس ، قبل أن تظهر فكرة إنشاء تنظيم كنسى خاص . ففى الوقت الذى يحدثنا فيه الحوارى عن كنيسة الله ، تدل رسائله على أن جماعة كورينثيا تعيش فى فوضى داخلية ، ونعنى بذلك أنها تركت زمام أمورها إلى توجيهات الملهمين التى لا تسلك خطًّا تنظيميًّا محدوداً معروفاً . وإننا لنعلم علم اليقين أن سائر الملهمين يمكن اعتبارهم أعداء الداء لكل إكليروس ؛ ولهذا السبب لم يكن للجماعة إكليروس بعد .

ويمكن أن ندرك مفاهيم هذه الحياة التى كانت تعيشها الجماعات المسيحية خلال عهدها الأول من الحماسة والتهيؤات ، يمكن أن ندرك مفاهيمها عندما نتأمل ما يروى لنا من أن « القديسين كانوا فى مساء كل سبت من أيام الأسبوع يترقبون ، مع فجر النهار التالى ، « عودة » السيد فى اليوم الأعظم الموعود ، ذلك الذى تطلعوا إليه بجماع قلوبهم . فلما مضت الأسابيع ، ثم الشهور والسنون دون أن تأتى البشرى بـ « العودة » البهيجة ، ظهرت أضرار الفوضى ومساوئها ، فى حين توثقت صلة الأخوة بين رحاب الجماعة ، وتسامى الأمل فى الخلاص – بفضل انفصال « القديسين » عن حياة العالم الدينية العامة – إلى مستوى الأديان المستقلة . وعندئذ أصبح من المحتم التفكير فى تنظيم مجتمع الصفوة المختارة

وبالتالى بدأ الإجراء المقابل لما تم فى تفكير بولس ، فتطورت كل طائفة محلية من الإخوة إلى كنيسة ، وكنيسة الله هي مجموع تلك الكنائس الخاصة ، التى تتبادل الرسائل والتضحية بالثبات ، والتى تعتمد كل واحدة منها على الأخريات . فهى إذن تنزع « أولا » إلى الخروج عن كونها تعبيرا صوفيًّا للحقيقة ، لتصبح واقعا ملموسا ؛ ثم هى « بعد ذلك » تنزع إلى البحث لنفسها عن تحقيق مادى ، أى عن تنظيم وجودها ، من أجل مستقبل بعيد محتوم ، وباعتبارها - كما ذكرنا آنفاً - ظاهرة عامة مستقلة .

ونعتقد أننا ، إذا وقفنا على أعتاب القرن الثانى لنتأمل المسيحية ، سوف نجد أن فكرة بولس الخاصة بوحدة المسيحيين جميعا فى الله قد ثبتت تمام الثبوت ودعمت بالعقيدة الشائعة بين الناس والتى تقول بأنه ليس هناك فى الحقيقة سوى دين صحيح منج واحد يجب البحث عن أسسه القوية العميقة فى « سنن الحواريين » . والفكرة الذائعة عامة هى أن هذه الأسس حفظت فى « الكنائس الحوارية» ، أى تلك التى يقال إنها أنشئت بإيحاء من أحد الحواريين .

ولم تكن « الكنيسة » فى الواقع قد بلغت سوى طور « الأخوة » بين المؤمنين المشتتين فى مختلف الكنائس الخاصة . إلا أنه اتضح أن المسيحيين لا يميلون إلى الفردية فى العبادة ، وأنهم - سواء فى سبيل تدعيم العقيدة أو مقاومة الأعداء يحبون التجمع . وبالتالى فهم لا يفهمون أن تعيش كنيسة ما - مهما بلغ من استقلالها وسيطرتها على مقدرات أمورها - فى عزلة عن بقية الكنائس ، كما لا يفهمون أن ينفصل « أخ » عن جماعة الأخوة بالمدينة التى يعيش فيها . بيد أن الأخوة المسيحية الكبرى ، أى كنيسة الله ، لم تكن قد تطورت بعد فى تنظيم يبرز

كيانها المادى ؛ ولم يكن المراقبون من غير المسيحيين ليروا فيها سوى كنائس خاصة .

(ب)

ولا تزال نشأة هذه الكنائس الخاصة نفسها غامضة بعض الغموض بالنسبة إلى الباحثين . وإذا ما أردنا أن ندرسها فى شىء من الإنصاف ، التى انطوت على كلتيها ، أو مشكلة أحقية مريم العذراء فى لقب « أم » خنعوا ظاهريًّا لرجال الإكليروس لديهم وأبدوا استعدادهم ليتلقوا عنهم قواعد الإيمان ، لم يكونوا فى الواقع على تلك الدرجة من السلبية التى ظنت بهم . بل أن الأمر أخطر من ذلك فى الحياة الدينية .

وكانت النماذج التى يمكن أن تحتذى فى هذا المجال متوافرة : فقد وجدت منذ زمن بعيد فى قسمى الإمبراطورية الرومانية ، اللاتينى والرومانى ، جماعات أو اتحادات دينية أنشئت من أجل غرض واحد : التعاون فى الخير أو الحث على التقوى ، وسميت عند اليونان بـ « الأران » أو « التباس » ، وعند الرومان بـ « الكوليجيا » . ونذكر على الأخص من بين ألوان « الكوليجيا » هذه ما أطلق عليه اسم « كوليجيا تنويوروم » ، أى : جماعة مؤلفة من صغار الناس . وكان لكل جماعة مديرها المنتخب وصندوقها الذى تموله الاشتراكات ويشرف عليه مندوب خاص .[9]

ومن ناحية أخرى فإننا نعلم – وقد سبق لنا شرح ذلك – أن يهود المهجر كانوا يتجمعون حيثما التقوا – وإن لم يزد عددهم على أصابع اليدين حول معبد لهم ؛ وأنهم ، وإن اختلفوا أحيانا فى التنظيم ، كانوا يأخذون بقواعد وقوانين

محددة . لذلك كان المسيحيون – سواء منهم الوثنى أو اليهودى الأصل – على علم بالأساليب المحتملة لإقامة حكومات تدير جماعاتهم .

ومن المرجح أن كلا التأثيرين ، تأثير الجماعات الوثنية وتأثير النظم اليهودية ، وقعا عليهم فى آن واحد ، مع ترجيح اتجاه أحدهما على الآخر حسب ظروف الزمان والمكان . وقد فرضت الضرورات أنواع الوظائف ، وسمى الموظفون بأسماء أخذت عن اللغة الشائعة مثل :

« بريسبيتيروس » ، أى : شيخ .
و « إيبسكوبوس » ، أى : مشرف .
و « دياكونوس » ، أى : خادم .

وقد تطورت معانى هذه الكلمات فيما بعد إلى : قس ، وأسقف ، وشماس .

وتغلبت الجماعات ، فى كثير أو قليل من البراعة والتوفيق ، على المشاكل الخاصة بتعليم الأتباع الجدد ، والمحافظة على النظام والآداب العامة ، وتدعيم سنن الإيمان الصحيحة ، وتأمين شعائر العبادة ، وضمان قوت المعوزين .

ويكفينا أن نطالع « أعمال الرسل » ، و « رسائل » بولس ، ثم تلك الرسائل الثلاث المنسوبة إلى بولس ، وإن كانت لاحقة له ببضع سنين – والمسماة بـ « الباستورال » ، يكفينا هذا لندرك مدى الإسراع فى التنظيم منذ البدء فيه . ففى نهاية القرن الأول نلمح – فى بعض الكنائس على الأقل – « أسقفاً » واحداً ، و « مشرفاً » عامًّا على الجماعة كلها (وهو الشخص الذى سوف يسيطر بعد ذلك على جميع الوظائف) ، ثم إلى جانبهما مجموعة من « الشيوخ »

تخصصوا فى الوظائف الروحية ، ومن « الخدم » الذين وكلت إليهم الوظائف المادية .

وكان من دعائم هذه التنظيمات الثابتة القوية ، ومن أسباب تحديدها : ما نلحظه بادئ ذى بدء من شك وريبة يزدادان بمرور الزمن – ونرجح أنه كان لهذا الشك ولهذه الريبة مبرراتهما القوية – فى أمر « الملهمين المتجولين » الذين راحوا يجوبون البلاد متخذين ألقاب « الحواريين » أو « الأنبياء » أو « المبعوثين » . ويبدو أنه كان لهم أثر لا يستهان به على الجماعات فى أول سنى حياتها . وكان من الدعائم والأسباب أيضًا : تدهور نفوذ « الملهمين المحليين » ؛ إذ سئم الناس من كل ما هو خارق للعادة ومن المعانى التى لا يجدون فيها انسجاماً واتساقًا . فإيمان العامة يتطلع بطبيعته إلى الثبات ؛ والثبات لديه مرادف للحقيقة . و « المواهب » التى أفاضتها « الروح القدس » حسب ما شاءت على جماهير قد يقل عددها أو يكثر من « الإخوة » لم تكن لتضيع بذلك على القوم ، بل كان مصيرها المحتوم أن تنصبّ فى روح « الأسقف » فتدعم من سلطته . ثم نجد أن الرغبة فى تنظيم الشعائر والطقوس ، ذلك العمل الذى تفرضه البيئة المحيطة والذى يحتم وجود « متخصصين » ، كان لها أثرها فى تحديد وتدعيم هذه الوظائف ؛، إلى جانب ما وجدته من سند أخير فى الفكرة التى سريعا ما تأصلت لدى المسيحيين من أن الرعاة مسئولون أمام « السيد » عن الرعية التى أسلمهم زمامها ، ومن أن المسئولية تستلزم السلطة .

واتسعت هذه التأثيرات جميعاً فى نزعتها إلى منح نفس الأشخاص الوظائف التى كانت متميزة فيما مضى ، من تعليم وتبشير وإدارة ، أو – على الأقل – إلى تخويل شخص واحد ، هو « الأسقف الأمير » ، الإشراف الأعلى على كل

الوظائف . وإن نشأة وانتصار « الأسقفية الملكية » ليعتبران المرحلة الأولى من المراحل الكبرى لتنظيم الكنيسة ، وكان لها نتائج لا تحصى على كيانها خلال القرون التالية .

(حـ)

سبق لنا القول بأن كلمة « أسقف » (إيبيسكوبوس) تعنى « مشرف » . ونضيف هنا أنها كانت تستخدم أحياناً لدى الجماعات الوثنية كمرادف لكلمة « إيبيميليتس » ، أى : « مندوب » أو « وكيل » أو « مدير » فى بعض الأحوال ، مع تضمنها دائماً فكرة « الإشراف » . وفى البدء لم يشتغل الأساقفة – وكانوا كثرة داخل كل جماعة – بالتعليم ولا بالتبشير إلا بوصفهم القدوة الطيبة التى يجب أن تحتذى . كان شغلهم الشاغل إقامة وتدعيم الاتجاهات الكنيسة فى ممارسة الأخلاق الحسنة ومبادئ الإيمان الصحيح ؛ وكان لهم الإشراف الأعلى على ما يمكن أن نسميه بـ « المسائل الزمنية » للجماعة . والنصوص القديمة تقرب بينهم وبين « الدياكونوس » لا « البريسبيتيروس » . وهذا أمر صغير فى حد ذاته ، إلا أن له دلالته فيما يتعلق بنشأة الوظائف الأولى وخصائصها .

ولقد نمت سلطاتهم سريعا بعد أن تلاشى النظام الأسقفى الجماعى . ونحن لا نعلم تمام العلم كيف تم هذا التطور ، ولكننا ندرك بصورة أكثر وضوحا الأسباب التى جعلت منه تطورا محتوما . ففى ذلك العصر الذى لم تكن رمزية الإيمان قد أثقلت بعد بالعقائد ، والذى نشطت فيه كل النشاط – بفعل البيئة

ذات الاتجاهات التأليفية – تلك النزعة الخطيرة إلى الإضافة والإعلاء التى مرت بها أغلب الأديان ، فى ذلك العصر كان من الضرورى أن تحاط جماهير المؤمنين بسياج دفاعى يصد عنهم « ذئاب » العالم الخارجى ، وأن تنظم حمايتهم أيضا فى الداخل ، أى : ضد « أصحاب البدع » . ورأى المسيحيون أن دفاعهم لن يزداد إلا قوة وبراعة إن تولى أمره زعيم فرد . والسلطات التى من شأنها تدعيم النظام وضمان التراحم الاجتماعى بدت أكثر فاعلية عند تركيزها بين يدى رجل واحد . ومن ناحية أخرى ، كانت الجماعات الوثنية واليهودية تميل عامة إلى اتخاذ « رئيس » يؤمّن وحدة العمل فيها ويرمز إلى الترابط بين أعضائها . أما عند « الإخوة » المسيحيين فقد انتشرت سريعا تلك العقيدة التى تقول إن الحواريين سبقوا إلى التفكير فى كل مشاكل الكنيسة المستقبلة وأوجدوا لها الحلول ، وأنهم هم الذين أنشئوا نظام الأساقفة من أجل ذلك . وصورت كل جماعة نفسها على أنها نوع من « التلخيص » لكنيسة السيد الكبرى ، رأسها الشرعى الأسقف الذى يتخذ فى ذلك قدوة من المسيح رأس كنيسة « الله الكبرى » . وأخيراً ، قد أصبح الأسقف ، على أثر نمو الطقوس الدينية ، رئيسا للعبادات الجماعية ، وكان ذلك تطويعا حتميًّا – وإن لم يكن طبيعيًّا فى بعض جوانبه – لمفهوم « القس الأكبر » عند اليهود .

وهكذا نرى عوامل متعددة ، وذات أصول واتجاهات متباينة ، تعمل على تركيز السلطات الأسقفية بين يدى أسقف واحد . ولكن الأسقف لم يصبح حاكما بأمره فى كنيسته عقب تفرده بتلك الوظيفة مباشرة ، بل نراه ، خلال فترة قد تطول أو تختصر حسب ظروف البيئة المحيطة ، رئيساً لـ « البريسبيتريون » ، أى ذلك المجلس الذى يتكون من مجموع « البريسبيتريوس » فى كل كنيسة .

إلا أن تلك كانت مرحلة من المراحل فحسب فى تاريخ الكنائس الخاصة ؛ وقد تخطتها بعض كنائس آسيا منذ بداية القرن الثانى . ففى هذا القرن ، كان إيجناس الأنطاكى يعلن أن الأسقف هو ممثل الله فى الكنيسة ، ولا يصح لأحد أن يأتمر بأمر غيره فيها ، ومخالفة ذلك رجز من وحى الشيطان . وكانت الفكرة الضمنية المتعارف عليها بطبيعة الحال : أن الأسقف لا يقوم بعمل إلا بالاتفاق مع هيئة « البريسبيتروس » و « الدياكونوس » . ولكن إيجناس يقول فى نهاية حديثه : « لتكن أعينكم معلقة بالأسقف حتى ينظر إليكم الله » ؛ ويقول : « عليكم بتمجيد الله والأسقف » ! . . ومن العسير أن يبلغ إنسان فى هذا الاتجاه شوطا يفوق ما تقدمه لنا نصوص إيجناس من معانٍ .

وفرض النظام الأسقفى الملكى نفسه بالتدريج على سائر الكنائس فيما بين عام ١٣٠ وعام ١٥٠ على وجه الترجيح . ودعمت انتصاره الأزمات العديدة التى مرت بها الكنيسة بعد ذلك : من اضطهادات تشتت « الرعية » وتقضى على جموع كبيرة منها ، ثم – وهذا أهم ما نراه من آثار – عودة مرتدين كثيرين يرغبون فى العودة إلى رحاب الكنيسة التى لم تكن لتقبلهم من جديد إلا بعد اتخاذ الحيطة اللازمة ، ومن بدع ترتبت خاصة على التركيبات التأليفية لفروض الإيمان الأساسية مع أساطير شرقية قديمة ونظريات فلسفية يونانية ، واتضح خطرها البالغ حيث كانت عامل إغراء لـ « المفكرين » من « الإخوة » ثم لأهل التصوف من بعدهم ، أو على العكس لكل هؤلاء الذين يفتنهم المظهر العملى الفعال للطقوس السحرية . وعلى أى حال فقد اقتدت الكنائس بعضها ببعض ، بحيث تلاشت سريعا مظاهر المقاومة التى أبديت أحياناً تجاه تطور النظام الأسقفى . وصار المسيحيون ، فى بداية القرن الثالث أو حوالى ذلك ،

يؤمنون عامة بأن وحدة التنظيم يجب أن تكون موازية لوحدة الإيمان وألا تقل أهمية عنها .

ومنذ ذلك الحين ، بدأ العمل النشيط فى سبيل تبرير الأمر الواقع . فشاع الاعتقاد بأن النظام الأسقفى الملكى إنما أنشأه الحواريون أنفسهم ، وتقدمت كل كنيسة بقائمة للأساقفة ترجع بها إلى الحوارى الذى أنشأها ، أو إن لم يتيسر لها الاعتماد على حوارى فإلى تابع من أتباعه أو مندوب من كنيسة حوارية كان له الفضل الأول فى تأسيسها . واتخذ لسلطة الأسقف رمزا من ذلك الكرسى (« الكاتيدرا ») الذى زعموا أن قد جلس عليه سائر الخلفاء . فإذا ما قيل مثلا : « كرسى بولس » ، فإنما يعنى ذلك : « سلطة أسقف روما » . وعلة هذه السلطة هى « سنن الحواريين » ، مثلها فى ذلك مثل « شروط الإيمان » . ولن يبحث الباحثون عن تبريرات إنجيلية للنظام الأسقفى الملكى إلا فى عهد متأخر ؛ ولقد وجدوها فى إنجيل متى خاصة (١٦ / ١٩) : « ولأعطينك مفاتيح مملكة السماوات . ولسوف يعقد أيضا فى السماوات كل أمر تعقده فى الأرض . ولسوف يحل أيضا فى السماوات كل أمر تحله فى الأرض » .

(د)

كان الأسقف ينتخب بواسطة الشعب ، ثم كان ينصب عضواً فى السلك الكنسى بواسطة الأساقفة المجاورين . وكان للشعب ، نظريًّا ، الحق فى اختيار من يشاء . غيرٌ أننا نلمس منذ ذلك الحين محاولات تهدف إلى تجريده من هذا الحق ، فضلا عما كان يتلقاه من إيحاءات وتوجيهات من طرف « البريسبيتيروس » و « الدياكونوس » فى هذا الشأن . إيحاءات وتوجيهات

لاتخرج عن حدود الشرعية وتترتب عليها فى أغلب الأحوال آثار هامة . وقد نرى أسقفا يعين خليفة له ، أو مجموعة من الأساقفة يقومون بملء وظيفة شاغرة بمطلق إرادتهم الجماعية . ولكن هذه الأمثلة لم تكن بعد سوى حالات استثنائية أملت التصرف فيها ظروف خاصة .

وكانت شروط الانتخاب ما تزال مرنة واسعة : يطلب من الأسقف المرشح أن يقدم دليلا على أخلاقه الطيبة ، وضمان ذلك أن يكون متزوجاً أو أرمل ؛ ويطلب منه كذلك أن يكون ذا إيمان قوى ، أى ألاّ يكونْ من الوافدين الجدد على المسيحية . أما المؤهلات الثقافية فكانت مسائل ثانوية ؛ وأما السنّ فلم يكن بعد قد اتخذ مكانه كشرط هام ؛ إلا أن القوة الجسمية العامة كانت من مستلزمات الوظيفة ، وإن تسامح أولو الأمر بعض التسامح فى هذا الشرط . ولم تكن قد فرضت بعد أى شروط تتعلق بالوظائف السابقة فى الكنيسة ، أى أنه كان باستطاعة الشعب أن يختار لوظيفة الأسقف « أخًا » بسيطاً من الإخوة . غير أن الأساقفة – على الأقل – بدءوا يتجهون إلى المطالبة باختيار المرشحين من بين الذين تدرجوا قبل هذا فى وظائف كنسية أخرى ؛ وتلك حيطة لا بأس بها .

ومنذ ذلك العهد الأول السحيق ، وبرغم تعرض صاحب الوظيفة فى بعض الأحيان للمخاطر ، بل للتهلكة ، نجد التنافس والتآمر للحصول عليها يزيدان على الحد ، ذلك أنها كانت إغراء قويًّا لتلك الروح المتأصلة فى الإنسان ، روح السيطرة ، التى لم يستطع المسيح نفسه ، حسب ما ترويه لنا الأناجيل ، أن يقى منها الحواريين . وكان المفروض فى الأسقف أنه المسئول أمام الله عن إيمان وخلق وطاعة كنيسته ، غير أن هذه المسئولية المروعة فى حد ذاتها لم تكن إلا لترفع من صورة صاحبها فى أعين قومه وفى عينه هو أيضاً . والواقع أن

الإدارة الدينية والأخلاقية للجماعة كانت له ، وكذلك أصبحت له سلطة التنظيم والعقاب التى كانت من قبل لمجلس الإخوة . وكان له أيضاً أن يعزل كل مخطئ يقوم فى رأيه بعمل غير لائق ، فلا يقبله فى طقوس القربان وينفيه بذلك نفياً خارج حدود الجماعة . وكان يدير الكتبة ، ويشرف على المسائل المالية ، وينظم المعونات والصدقات المقدمة إلى الفقراء ، ويقوم إذا لزم الأمر بدور القاضى بين رعيته . وكانت وظيفته تعتمد خاصة على إقامة الطقوس القدسية ، فهو يعمّد ويسمح بالقربان ، وتلك هى الصلاحية التى جلبت له ، من بين كل صلاحياته ، أكثر قسط من التقدير والنفوذ . وإن أهميته فى هذه الناحية لسوف تزداد بعد ذلك بتأصيل المفهوم السحرى لطقوس الأسرار الفعالة فى شعائر العبادة . فإذا أضفنا إلى كل ذلك ما فرض على الأسقف من عيادة المرضى وحثّ الناس على الصبر وبعث الأمل لديهم ، لأدركنا أبعاد دوره وجوانب سلطاته المختلفة .

ولم يكن لهذه السلطات من حدود ، فى الحقيقة ، سوى استغلال الأسقف لها ، مما أثار بعض ألوان المقاومة لدى صغار الموظفين ولدى الأتباع ، بل أدى ، عندما قضت الضرورة بذلك ، إلى أنواع من « الإضراب » والاحتجاج ، كانت تضطر الذى خرج عن جادة الصواب إلى التنازل عن منصبه ، أو تضطر زملاءه من الأساقفة الذين أقاموه فى هذا المنصب إلى عزله .

ومهما كان من نفوذ الأسقف بين جماعته ، فهو لايعدو أن يكون « أخاً » من الإخوة بالنسبة إلى الجماعات المجاورة ، إذ يستقبل فيها بالاحترام الواجب له ، ولكنه لا يستطيع حتى أن يتحدث إلى مجلسها إن لم يسمح له الأسقف المحلى ، صراحة ، بذلك . وكانت كل كنيسة ، قانوناً ، لا تزال صاحبة الأمر المطلق

والحرية التامة فى تنظيم إيمانها ولوائحها كما تشاء . غير أن خطورة هذا الاستقلال الانعزالى بدأت تظهر بوضوح . ولو دام الحال كما كان عليه لما قامت للكنيسة الكاثوليكية قائمة ، ولتفرق المسيحيون فى شيع ضئيلة الشأن مشتتة . ولحسن الحظ ، أصلح المراس العملى للحياة الدينية من ثغرات القانون : فقد اهتمت كل كنيسة فى بادئ الأمر بأحوال جاراتها ؛ واتخذت الكنائس الصغرى ، على الأخص ، قدوة لها من الكبرى ؛ وتنقل المؤمنون فى الكنائس المختلفة ، رابطين بينها أحياناً بأواصر صلات قوية ثابتة ؛ وتزاور الأساقفة المتجاورون ، واهتموا على الأخص بالتراسل ، بل أصبحوا يجتمعون فى ندوات صغيرة ليتشاوروا فى الأمور التى تثير حيرتهم . وهكذا بدت سلطة الأسقف الملك ، فى القانون والواقع على حد سواء ، دعامة التنظيم الكاثوليكى الجوهرية ، وذلك قبل أن تنبت فكرة البابوية بزمن طويل .

ولقد انتصر الأسقف فى يسر على المدنيين من غير رجال الكنيسة ، فجردهم من الصلاحيات التى كانوا يمارسونها فى رحاب الجماعة الأولى . إلا أن صراعه كان أقسى مع موظفى الكنيسة الدينيين من « البريسبيروس » و « الدياكونوس » . ولدينا دلائل تشير إلى ألوان من المقاومة العنيدة . ولكن هذه المقاومة لم تغن شيئاً حيث لم يتحد أصحابها ولم ينسقوا أهدافهم ، ثم — وهذا هو السبب الأساسى — لأنها لم تجد لها سنداً من مبادئ أو تبريرات يمكنها أن تقف فى مواجهة تلك التى اعتمد عليها نظام الأسقفية الملكية .

وبعد انتصار الأسقف النهائى ، انتظم موظفو الكنيسة الآخرون — الذين لم يعرفوا بـ « الإكليروس » إلا فى القرن الثالث — انتظموا إلى جانبه فى « هيئة » ،

أى : فى طائفة خاصة متميزة بين جمهور المؤمنين . وأصبح الدخول فى هذه الهيئة بـ « التنصيب » ، الذى يتصرف فيه الأسقف تصرفاً مطلقاً . والتنصيب لم يكن بعد سوى تسليم الموظف مهام وظيفته ؛ ثم صاحب ذلك الإجراء تدريجيًّا نوع من الطقوس الخاصة يختلف باختلاف الوظيفة ، وامتزجت به فكرة تحقيق المواهب التى أصبحت مفهوماً قدسيًّا فى الهيئة ، إلا أن تلك الأمور كانت لاتزال فى طى الغيب فى القرن الثانى الذى نتحدث عنه .

وفى هيئة الإكليروس هذه (« أوردوكلير يكاليس »)[١] ، نجد طائفة « الدياكونوس » الذين يجب ذكرهم أيضاً بعد ذكر الأسقف لأنهم هم عون له ، ويعدّون أعيناً تنظر وتجمع المعلومات ، وسواعد تعمل من أجله . ولسوف تمثل العلاقة بين الأسقف وبين الطائفة فيما بعد بتلك التى كانت بين موسى وهارون . ولم يلبث أن ظهر فى الكنائس الكبرى موظف[٢] جديد ، ليرأس مجموعة « الدياكونوس » ؛ وفى خلال القرن الرابع نرى أفراد هذه الطائفة أحياناً يرفضون الخضوع الوظيفى للقسس ، وهم فى ذلك على حق من حيث المبدأ ، إذ أن وظائفهم لم تكن فى أصل نشأتها أقل أهمية من وظائف « البريسبيتيروس » ، بل كانت ذات طبيعة مختلفة وكان الواجب أن ينظر إلى الطائفتين بالتوازى لا أن يبحث أمر خضوع إحداهما للأخرى . بيد أن الزمن محا شيئاً فشيئاً هاتيك الاختلافات الأساسية ، بحيث ذهبت المؤتمرات الكنسية فى القرن الرابع إلى الحكم بالخطأ والإثارة الفاضحة على موقف « الدياكونوس » الذين يرفضون التبعية للقس فى الصلاة وفى طقوس القربان .

أما القسس « البريسبيتيروس » ، فيبدو أن أصل نشأتهم يرجع إلى نظام « مجلس القدماء » (« سانهيدران ») فى المعبد اليهودى وكانوا يشكلون فى أول

الأمر ، مجلس الجماعة الذى يدير أمورها فى الواقع . ثم اقتصرت وظائفهم تدريجيًا على المجال الروحى ، وأصبحوا بعد قيام الأسقفية الملكية مندوبين للأسقف ، أو إذا اقتضت الضرورة نواباً عنه فى الوظائف الخاصة بالمسائل الروحية . ولهذا فهم يعتبرون أنفسهم أعلى درجة من « الدياكونوس » الذين ظلت صلاحياتهم محددة فى البداية بالأعمال الإدارية المادية .

ولما نمت معالم الحياة الكنسية واتخذت مراسم الشعائر فيها مكاناً ممتازاً ، أضيفت شيئاً فشيئاً ألوان جديدة من الوظائف الثانوية المتخصصة إلى هيئة الإكليروس بجانب القساوسة و « الدياكونوس » ؛ فنجد منذ بداية القرن الثالث أو حوالى ذلك ، « حراساً لباب الكنيسة » و « قراء » وغير ذلك من الموظفين . وكان أمر اختيارهم متروكاً للأسقف ؛ واستقر التقليد بالتدريج على اعتبار هذه الوظائف المساعدة تجربة تمتحن فيها « المواهب » وتدعم لتتجه بعد ذلك وجهتها الأصلية فى أعمال « الدياكونوس » أو القسس ، بل الأساقفة أيضاً . وكان المفروض بطبيعة الحال فى هؤلاء الموظفين الصغار أن يتميزوا بأخلاق قوية وسمعة طيبة ، إلا أنه كان يسمح لهم بالزواج ، حتى بعد إجراء « التنصيب » .

وكان الإكليروس فى هذا العصر يشتمل أيضا على مجموعات من النساء ، أطلق عليهن الاسم المؤنث من « دياكونوس » ، أو لقب « عذارى » أو « أرامل » ؛ إلا أننا لا نستطيع أن نميز بوضوح بين الوظائف المعينة المقابلة ولاشك لكل درجة من هذه الدرجات ، ولا أن نحدد اختصاصات أى منها . ونفهم فقط أن هاتيك النساء الملحقات بالكنيسة ، لم يطلب منهن القيام بالتعليم ولكن بالخدمة . ويبدو أنهن كن أيضاً معاونات للأسقف فى اتصالاته

بـ « الأخوات » في نطاق الجماعة . ويبدو أن الحذر من فتنة الجنس كانت شديدة بين المسيحيين ، وناشئة عن التجربة ، ولذلك اتخذت الحيطة اللازمة للحفاظ على الموظفين من تلك الفتنة ، وإن تم ذلك أحياناً بكثير من السذاجة الصبيانية .

وكان كل هؤلاء الموظفين يعيشون ، من حيث المبدأ ، على الرزق الذى يجدونه فى « مذبح » الكنيسة ، من هدايا وتبرعات الأتباع ؛ ولكنهم فى الواقع اقتدوا بما فعله بولس الحوارى ، فراح العدد الوفير منهم يعمل إلى جانب وظيفته فى بعض الصناعات اللائقة .

وظلت الجماعات المسيحية فترة طويلة تنتظم فى مجتمعات مصغرة – على غرار جماعات اليهود فى بلاد الوثنية – يتمتع فيها سائر الأعضاء بالمساواة الدينية التامة ، فيجدون بالتالى أن قيام بعضهم بالوظائف الكنسية لايفرق بينهم وبين بقية « الإخوة » من حيث « الجوهر » ، وإن ميزهم من حيث الشكليات . ولكن ذلك تغير شيئاً فشيئاً فى العهد الذى سادت فيه الشعائر ، والعادات ، والفكر ، والتنظيم ، بل بالمبدأ العام للقيادة الموحدة – فى انتظار تكوين الهيئة التى تحتم إنشاؤها بعد ذلك والتى سوف توضح هذا المبدأ وتطبقه مستقبلا .

ويبدو أن المفهوم الكاثوليكى إجمالا ، ينبع أساساً من عنصرين جوهريين : أحدهما نستطيع أن نستخلصه من الحياة العملية ، والآخر من ميدان النظريات .

فمنذ القرن الثانى كان « ترتوليان » يعبر عن العقيدة السائدة بقوله إن « المسيحيين جسد واحد » ، يجب على أعضائه أن يظلوا متحدين لمصلحة المجموع ولتثبيت الحق . . ولم تكن هذه الوحدة الأخوية ، على أى حال ،

تعتمد إلا على الإيمان بـ « وجوبها » هى نفسها وعلى الإرادة الجماعية الخالصة .
ولم يكن القوم يبحثون عندئذ فى إخضاع كنائس معينة لأخرى ، وهو الإجراء الذى كان من شأنه تيسير المشكلة إن لم يؤد إلى حلها . ولا أزيد على ذلك مثلا سوى موقف القديس سيبريان أسقف قرطاجنة فى القرن الثالث – وكان من كبار الدعاة إلى الوفاق – تجاه إتيين أسقف روما . فقد أثار سبيريان جميع أساقفة أفريقيا ضد هذا الأخير بشأن مشكلة من مشاكل التنظيم ، معتمداً فى قوة على الحق المطلق الدائم الذى تتمتع به كل كنيسة فى أن تحكم بما تشاء بين رعيتها ومؤكداً لهذا الحق . ولقد نشأت فكرة » الوحدة المسيحية » فى الواقع من الاتصال المتكرر بين الجماعات المختلفة ، ومن الأحاديث بين الأساقفة ، ومن تبادلهم الرسائل بشأن المشكلات التى تهم الجميع كتحديد موعد الاحتفال بعيد الفصح أو الاتفاق على موقف موحد بالنسبة إلى مذهب جديد أو بدعة معينة .
وذلك هو العنصر الجوهرى الأول الذى أشرنا إليه .
أما العنصر الثانى ، فهو « فكرة الإيمان الكاثوليكى » ، وهى تعنى أولا : الإيمان المشترك العام المقابل للإيمان الفردى الخاص ، أى للبدعة . وسبق لنا القول بأن هذا الإيمان « الطبيعى » كان – فى العقيدة الشائعة – هو هو إيمان الحواريين ، حفظته الكنائس التى أنشئوها فى سنن كتب لها الدوام . ورأينا الكنائس تعلن ، كنتيجة حتمية للرأى المذكور ، أن لا خلاص بغير هذا الإيمان . وينمى القديس إيرينيه – أسقف مدينة ليون فى الربع الأخير من القرن الثانى – ذلك الرأى الذى كان من آثاره العملية تدعيم فكرة الأولوية الشرفية للكنائس الحوارية ، أى أنه بدأ يحدد ما يمكن أن نسميه بالإطارات الإدارية المستقبلة للكاثوليكية . ولم يظهر « المطارنة » بصورة رسمية إلا فى بداية القرن

الرابع ، ولكنهم وجدوا بالفعل قبل ذلك بزمن طويل . وبعبارة أخرى نستطيع القول بأن الكنائس الكبرى ، أى كنائس المدن الضخمة ، بدأت شيئاً فشيئاً تؤثر على الجماعات الصغرى المجاورة لها بشكل يشبه السيطرة . ولم يكن على المؤتمرات الكنسية بعد ذلك سوى أن توافق وأن تعطى الصفة القانونية الرسمية لما كان قد تم فعلا ، وذلك عندما اعترفت فى القرن الرابع بسلطات الأساقفة المطارنة (المركزيين) .

ولو فكرنا قليلا فى الظروف المواتية التى اجتمعت لكنيسة روما فسمحت لها بأن تسيطر على كنائس الغرب ، لما استغربنا أن نراها تحقق هذا الهدف فى يوم من الأيام .

لقد قيل عن هذه الكنيسة إنها ابنة بطرس الحوارى ، وبرغم أن بها كرسيه وقبره ، وزارها بولس الحوارى ، ومات بسيف الجلاد على مقربة من أحد أبواب المدينة ، كان استشهاده تدعيما لعمل بطرس . وكانت كنيسة روما ، منذ السنين الأولى من نشأتها ، معروفة بكثرة أعضائها وبغناها ، وتشهد مقابرها بذلك ؛ كما أن وفرة صدقاتها على الكنائس الأخرى وكرمها جعلا إيجناس يصفها بأنها « قائدة الرحمة » . وكان نفوذها يتخذ له سنداً من نفوذ عاصمة الإمبراطورية الرومانية . ولم تعارض كنائس الغرب الأخرى – التى كانت كنيسة روما أمًّا لها فى كثير من الأحيان ، ولعلها كانت أقدمها قاطبة فى الوجود – لم تعارض فى منحها الأسبقية الشرفية التى تحتمت لها ، وذلك قبل أن تفكر هى فى استغلال مختلف النصوص الإنجيلية لتبرير أسبقيتها شرعاً .

وهكذا نرى ، منذ بداية القرن الثالث ، أن الكنائس وصلت إلى التنظيم الذى سوف تحتفظ منه – على أقل تقدير – بالإطارات ؛ وأنها اتجهت إلى فكرة

الدوام فى هذا التنظيم . كذلك نرى الكنيسة العالمية تخرج من مجال التجريد والأحلام لتحقيق ذاتها فى الاتحاد والتعاهد بين الكنائس الخاصة ؛ ولن يكون على المستقبل بعد هذا إلا أن ينمى المبادئ والمقدمات التى أنشئت منذ ذلك العصر .

ولنذكر منذ الآن أن هذا التنسيق للمسيحيين فى جماعات منظمة مغلقة ، ثم هذه النزعة التى ذكرناها نحو الكاثوليكية - (العالمية) ، كان من شأنهما ، ظاهريًّا : أن يفسحا المجال للتعصب المسيحى ، وأن يبرزا موقف المؤمن فى معارضته للكافر وكراهية المجتمع المسيحى لمختلف المجتمعات الأخرى . ولكننا ، إذا فحصنا الأمور عن كثب ، نرى أن شيئاً من ذلك لم يكن ، فالكنائس ، على عكس ما تدعى ، لا تعيش منعزلة عن الوسط الذى يحيط بها ، بل تعيش فيه ، وتعيش به ومنه ، وتعدّ منظمات بديعة تهضم فى اتجاهاتها التأليفية كل ما تجده من قيم دينية ذات بال فى الديانات المجاورة ؛ هذا بالإضافة إلى أن النزعة إلى الكاثوليكية تساعد على الموازنة والتنسيق فى وحدة منسجمة بين العناصر الخاصة المتباينة .

ومنذ ذلك العصر ، نستطيع أن نلمح فى أعماق الكنيسة الأسباب الجوهرية التى تفسر التغير الجذرى الذى طرأ على موقف الدولة والمجتمع منها فى القرن الرابع .

الفصل التاسع

تأسيس العقيدة والتنظيم

(ا) كيف كان المرء يدخل المسيحية فى بداية القرن الثانى : التعميد ، خصائصه ومغزاه – النظريات الفلسفية فى المسيحية ؛ أنماط ثلاث منها : البولينية ، اليوحانية – الدوسيتية – النزعة المشتركة – مصير هذه النزعة لدى عامة المؤمنين – متطلبات الإيمان الأخلاقية – حياة الشعائر.

(ب) نمو الشعائر : هذا النمو يجعل الدخول فى الكنيسة عسيراً – اعتناق المسيحية ونظام « التدريب » – إنشاء الإجراءات الخاصة باعتناق المسيحية – المريدون للتعميد – التعقيد فى طقوس التعميد .

(جـ) تنمية الإيمان ؛ التأثير المزدوج الذى يهيمن عليه : تأثير البسطاء وتأثير الفلاسفة – خرافة الثبات و « شروط الإيمان » – تاريخها – كيف تعرض مشكلة الثالوث – نموها فى القرن الثانى – ألوان من المقاومة التى واجهها التطور العقائدى : الأبيونيت والألوج .

(د) تنمية الحياة الكنسية – النزعة إلى فرض الطقوس على سائر أوجه حياة المؤمن – أصل « القداس » المعنى الذى تنزع طقوس القربان إلى التطور نحوه – تحول الخبز والخمر المقدسان إلى لحم ودم المسيح .

(هـ) التوبة – خصائصها – تنظيم طقوس التوبة لم يزل بدائيا – ليس هناك أنواع أخرى من « الأسرار » فى بداية القرن الثالث – خاتمة .

(١)

فصلنا فيما سبق كيف كان العالم اليونانى – الرومانى ، فى ذلك العهد الذى استقلت فيه المسيحية كدين بانفصالها عن اليهودية ، يرفض الديانات التى لا تصاحبها الطقوس والاحتفالات . كذلك لم يكن الناس فى هذا العالم اليونانى – الرومانى يتصورون ألا ينتظم الإيمان المسيحى – وهو الذى يزعم أنه وحى منزل – فى فروض ميتافيزيقية تعرف بـ « العقائد » (دوجما) . وكما بحثنا فيما سبق السبل التى سلكتها المسيحية فى إنشاء اطارات وتنظيمات خاصة بحياتها العملية ، خلال القرن الأول والقرن الثانى ، نريد الآن أن نتحقق من تلك التى سارت عليها ، فى نفس الوقت ، فيما يتعلق بالشعائر والعقيدة ، وما انتهت إليه من نتائج .

وإذا ما توقفنا فى نهاية العهد الحوارى عند منحدر القرن الأول ، وجدنا أنه كان من السهل الميسور على الإنسان أن يعتنق المسيحية : كان يكفيه لذلك الشهادة بأن عيسى المصلوب هو المسيح الذى وعد الله به أمته ، وبأنه مات من أجل خطاياها ، وبأنه سوف يعود فى الأجل القريب ليقضى بين الأحياء والأموات ولينشئ مملكة الله حيث يعيش الصالحون عيشة ملؤها السعادة بعد أن تبعث أجسادهم ويمجدون ، وكان الأمر مقصوراً على ذلك أو يكاد ، فإذا ما آمن الإنسان به ، أقيمت له مراسم التعميد ؛ وهى طقوس يهودية الأصل ، تبناها المسيحيون ؛ وتعنى – فى « السر » الذى أنشأه بولس والذى يحمل طاقة كبيرة من الرمزية ومن الواقعية التأليفيتين– تعنى موت وبعث « السيد » وتجديد

هذا الموت وهذا البعث بالنسبة إلى المريد ، أما لدى عامة الأتباع ، فهى ترمز على الأقل إلى التوبة وإلى تغيير أسلوب الحياة ، وتؤكدهما ؛ كما تضمن محو الآثام والخطايا محواً تامًّا . فالتعميد يعد « خاتم » اليد ، يعرف به المؤمن ، ويصاحبه « إشراق » هو فيض من فضل الروح القدس . وكانت الفكرة الشائعة أن التعميد هو المراسم النهائية اللازمة لإتمام التحول إلى المسيحية ، وأنه لا يفترض – من حيث المبدأ – احتفالا كبيراً ؛ إذ يمكن أن يقوم بطقوسه أى مسيحى ولا يستلزم من المريد إعداداً مطولا : فهو – إن سمح لنا بهذا التعبير – عمل إيمانى ، وأعمال الروح لا تخضع للزمن . ولعله كان على المريد منذ ذلك العهد أن يقرأ نصا مختصراً ينطوى على المبادئ الأساسية لدينه الجديد .

ونحن نعلم أن هذه المبادئ الأساسية لم تكن فى نهاية الأمر سوى فروض قليلة التعقيد . ولكن المريد ، متى ما دخل الكنيسة ، وجد نفسه أمام نظريات قد لا يتقبلها الناس جميعاً ، ولكنها تثير لدى الجميع اهتماماً بالغ العنف . كانت شخصية المسيح ، بطبيعة الحال ، موضوعها الجوهرى . فعندما تلاشت تلك الفئة القليلة من الناس الذى عرفوه « لحماً ودماً » ، لم يعد هناك أى اعتبار تاريخى يحدد أو ينظم من التجارب ومن الإضافات فى الإيمان ، لذلك نراها تنمو وتزداد فى تصورات ثلاث رئيسية لـ « السيد » قابلة للبحث وللتنقيب .

الأولى – منها هى تصور بولس له ، ونذكر القارئ هنا بخطوطه الأساسية :

– كان عيسى إنساناً سماويًّا ، أى : إنسانا سبقت عناصره الروحية فى الوجود وجوده الجسدى ، وكانت من قبل فى السماء . ومبدأ حياته – إذ سمح لنا بهذا التعبير – هو الروح الإلهى نفسها ، « فعيسى هو الروح » .

– وجاء عيسى إلى الأرض لينشئ إنسانية جديدة ، هو آدمها ، إنسانية

يحررها من أثقال الخطايا بقبوله ، فى سنبيل « شرائها » ، أن يعيش عيشة الإنسان المحقر وأن يموت ميتة الآثم المشينة . « إنه صورة الله الخفية ، وهو أول الخلق ، ففيه خلقت سائر الكائنات فى السماء والأرض ، المرئى منها والخافى على الأعين . وكل الكائنات خلقت به وفيه . وهو سابق للكائنات جميعاً وكلها موجودة فيه » .

– فشخصه إذن هو « المكان الميتافيزيقى الذى يجتمع فيه الله والخليقة » ، على حد التعبير البديع الذى أطلقه الكاتب ساباتييه ؛ وبعثه وتمجيده يضمنان للمؤمن انتصاره هو الآخر على الموت .

ولقد سبق لنا القول إن هذه النظرية الخاصة بعيسى والتى ظهرت فيها آثار التيارات التأليفية المحيطة ، كانت أولى « الغنوصيات » المسيحية . وهى لم تأت بثمارها فى أول عهدها ؛ بل أسيء فهمها وتناساها الناس سريعاً أول الأمر ، حتى بين رحاب تلك الكنائس التى أنشأها الحوارى . إلا أنها كانت حية قوية بين دفتى « الرسائل » ؛ فوجدها القوم فيما بعد ، وظنوها وحياً وإلهاماً ، حتى أصبحت دعامة من الدعائم التى اعتمد عليها التفكير الهيلينى – المسيحى .

أما التصور الثانى ، فهو الذى تبرز فيه ، فيما يختص بالمسيح ، النظرية « اليوحانية » التى تعتمد على تعريف « السيد » بـ « اللوغوس » ؛ الأمر الذى يبدو ، لأول وهلة ، قريباً من عبارة بولس القائلة بأن « السيد هو الروح » ؛ ولكن هذا التصور ينطوى فى الحقيقة على مفهوم ميتافيزيقى أكثر عمقاً : حيث إن « اللوغوس » وهو فيض الله يمكن فى نهاية البحث أن يكون تعبيراً عن الله ، والقول بأن « السيد هو اللوغوس » يكاد يكون مرادفاً للقول بأن « السيد هو الله » . ونكرر هنا أن ذلك كان أمراً هائلا وفاضحاً بالنسبة إلى اليهود ؛ وإن

كان – بالتوازى – سهل القبول لدى اليونانيين الذين يميلون إلى القول بالتدرج فى الآلهة ، هذا بالإضافة إلى اتجاهه نحو عين السبل التى يطرقها الإيمان الحى الذى يصبو بفطرته إلى الإعلاء دائماً من شخص « السيد » .

ويأتى التصور الأخير لشخصية المسيح ، وهو المعروف بـ « الظاهرى » (δόχησις = ظهور) ، والذى يقول إن « السيد » لم يكن إنساناً إلا ظاهريًّا ، وبأنه لم يمتحن ولم يمت إلا فى الظاهر ، وكانت « الظاهرية » تحاول بهذا الرأى الملتوى أن تفلت من ضرورة فرض الملازم المشين بين الكائن الإلهى وبين الجسد وما يصدر عنه ، ولكنها بذلك حتمت التدرج إلى نظرية للخلاص تختلف تمام الاختلاف عن تلك المعتمدة فى إيمان الجماعة ، وإن الصور التى قدمت لهذه النظرية لتختلف كثيراً بعضها البعض باختلاف الغنوصية التى تبنتها .

ومن الواضح برغم الاختلاف فى الأسس المبدئية وفى روح القائلين بها ، أن هذه النظريات الثلاث فى شخص عيسى ، تهدف إلى نتيجة واحدة ، هى الخروج بالمسيح عن نطاق البشرية بتقريبه من الله ، وتلك عملية عسيرة فى حد ذاتها ، حيث إن المسيحية قد أخذت عن الدين اليهودى ، الذى أنشئت على أسسه ، فكرة التوحيد غير القابل للجدل ، وإذا ما تقبلت القول إن « السيد » هو حقيقة ، كائن سماوى ، فلا مناص لها ، فيما يبدو لنا ، من أن تجعله خاضعاً لله ، تماماً كما كان « المنقذ » فى « الأسرار » خاضعاً للإله الأعظم . وقبل أن يتجه التفكير المسيحى نحو مفهوم ثالوث الشخصيات الإلهية المتحدة فى جوهر فرد ، أى فى الكون الإلهى بذاته ، قبل ذلك بزمن بعيد جرب الناس تركيبات عديدة مختلفة ، لم يترك الكثير منها سوى آثار غامضة مبهمة . إلا أنه لم يكن قد

طلب بعد من عامة المؤمنين أن يتعلقوا بأى منها ؛ بل لم يطلب منهم « الإيمان » إلا بفروض لا تحتم مجهوداً فكريًّا يذكر.

أما ما طلب منهم « العمل به » ، فقد اقتصر على حسن السلوك فى الحياة ؛ أى : الحرص حرصاً شديداً على عدم الوقوع فى الأخطاء الأخلاقية التى يعتبرها الناس عامة آثاما ، وأن يجتهدوا على الدوام فى تجنب الغرائز الجسدية الشائنة ، معتمدين فى ذلك على الاطمئنان المطلق إلى فضل الآب السماوى وإلى شفاعة السيد عيسى المسيح. وقد احتفظ القوم بشعائر اليهودية من صلاة متكررة وصيام. وكانت الطقوس الجماعية ، فى حياتهم الدينية ، تقتصر على اجتماع القربان أى : فرض العبادة الذى يقام من مساء السبت إلى فجر الأحد كل أسبوع ذلك الاجتماع الذى تمجد فيه الأصناف الإلهية ، من خبز وخمر ، ثم يتناولها الناس. ولا نرجح من ناحية أخرى أن كل الجماعات كانت على اتفاق فيما يختص بمعنى طقوس القربان : كانت الغالبية لا ترى فيها سوى تذكرة بعذاب المسيح ومأدبة للوحدة الأخوية ؛ وكان بعضهم يعدها وسيلة فعالة للمشاركة فى ذات « السيد » بإحياء هذا العمل الجوهرى من أعماله الدنيوية ، أى بتكملة وتجديد فضل التعميد. وإننا لا نكاد نجد أو نستشف لدى المسيحيين أى شيء من العملية الأخرى مثل المسح بالزيت الذى تصاحبه لمسات يدوية معينة ، والذى توصى الرسالة المنسوبة إلى يعقوب باستخدامه لشفاء المرضى ، فهذا التقليد ، فى الواقع ، تقليد من تقاليد اليهود الأساسية.

تلك كانت ، فى بداية القرن الثانى أو حوالى ذلك ، سبل اعتناق المسيحية ومفاهيم عقيدتها وطقوس عبادتها.

إنها لحياة فكرية وعملية تبلغ الغاية من البساطة ؛ ولكنها ، إلى جانب

ذلك ، تبلغ أيضاً الغاية فى المرونة ؛ وإننا لنجد المؤثرات الدينية الهيلينية تتفاعل فيها – على أساس من المبادئ اليهودية الواضحة كل الوضوح – مع المفاهيم الفلسفية اليونانية التى نزلت إلى مستوى العامة بطرق غير مباشرة وإن كانت لا تخفى على الباحثين .

ولنحاول الآن أن نتبين كيف تعقدت على الناس ، بعد ذلك ، سبل الدخول إلى الكنيسة ومفاهيم العقيدة وطقوس العبادة العملية .

(ب)

تعقد الدخول فى الكنيسة المسيحية بفعل نمو الطقوس التى شملت شيئاً فشيئا جميع المجالات الدينية عندما تم استغلالها فى انتظام ، والتى يبدو من ناحية أخرى أنها ملازمة لحياة كل هيئة كنسية حقيقية . ويجب أيضاً أن نحسب حساب ذلك الخوف الذى ينتشر بين المؤمنين من دخول أصحاب الخيانة بين الأخوة ومن سوء استخدامهم لـ « الأسرار » إن ألقى بها إليهم فى غير تدبر وحذر . لذلك أخذ الناس بألوان من الحيطة اللازمة لمواجهة النية السيئة . ولقد ظن الباحثون خلال عصور طويلة أن هذه الألوان من الحيطة قد رتبت فى النهاية فى إطار النظام المسمى بـ « نظام السر » ، الذى قيل إنه يحصر فى مراحل متتالية درجات تعليم وتعريف المريد للمسيحية ، فلا يصل إلى غاية « السر » إلا فى المرحلة الأخيرة ، وبعد امتحانات تبين حقيقة نيته . وإننا لنلمح شيئاً من هذا القبيل فى واقع الأمور بعد إنشاء نظام « التدريب » ، أى : فرض درس منتظم لتعريف طلاب التعميد بالمسيحية . ولكن « نظام السر » فى هذه الحالة لا يمكن أن يكون سوى وهم وتمثيل فى الطقوس ، وذلك لسبب لا يخفى على

أحد ، وهو : أن غاية « السر » النهائية هى عين السبب الذى يدفع إلى اعتناق الدين الجديد ، وهى هى أيضاً علة هذا الاعتناق الأولى ، والكشف التدريجى لن يتعدى بعد ذلك أن يكون رمزاً من الرموز ، إذ المريد على معرفة تامة منذ البداية بما سوف يتلقاه فى النهاية . ويمكن القول بأن « نظام السر » كان لا مغزى له قبل إنشاء « نظام التدريب » ثم أصبح ولا جدوى عملية كبيرة له من بعد قيام « نظام التدريب » .

بيد أن مجرد اتجاه النية إلى اتخاذ بعض الحيطة للمحافظة على الدين من الدخلاء – وطلب الدخول فى الدين الجديد أمر لا يمكن رفضه لإنسان – أو على الأقل للمحافظة على ما سوف نسميه منذ الآن بـ « الطقوس القدسية » ، هذا الاتجاه يؤدى بالضرورة إلى إنشاء فترة تدريب لمريدى المسيحية . وهذا هو بالذات ما سمى بـ « الكاتيشو ميناه (=X٩Tηxέω = أنا أعلم) » ، وهو النظام الذى نجد أول النصوص الدالة على وجوده فى مؤلفات « تيرتوليان » والذى يبدو أنه تأسس قرب نهاية القرن الثانى دون أن يتخذ صورة موحدة فى كل مكان . إلا أنه يمثل لدى سائر الجماعات نوعاً من التربية والمراقبة لإيمان المريد بإشراف ذوى السلطة من هذه الجماعات . وكان المريد يدخل فى هذه المرحلة التدريبية عن طريق التسجيل فى قائمة خاصة والمرور ببعض الطقوس التمهيدية ، ثم يجد نفسه ، بعد فترة قد تطول وقد تختصر من الدرس والامتحان ، طالباً بين مجموعة الطالبين للتعميد الذى يقوم به الأسقف بمناسبة بعض الأعياد الكبرى مثل الفصح أو القيامة .

وأصبح التعميد نفسه احتفالا معقداً ، يشتمل على أقل تقدير على مجموعة من التعليمات الخاصة ، وعلى الغسل بالماء الذى يكرر ثلاثاً ، وعلى إجراء

اللمس باليد الذى يصاحبه المسح بالزيت المقدس ، ثم ينتهى إلى طقوس القربان الأول . وأصبح من المعتمد بعد ذلك أن المريد البسيط قد يكون من المحتمل نجاته ووصوله إلى الخلاص . أما جماع الفيض الذى يتمتع به المسيحى فلا يكون إلا لذلك الذى تم تعميده ؛ والتعميد وحده هو الذى يعقد بين « السيد » وبين المؤمن تلك الأواصر الخفية التى تجعل الأخير من أمة الأول الخاصة . وليس من العسير علينا أن نكشف عن روح « الأسرار » الهيلينية فى هذا التعليم التدريجى وفى هذه الطقوس الفعالة ثم فى المعانى التى حملت بها مراحلها . فقد رأى الناس أن إجراءات التعميد أصبحت مشحونة بمجموعة هائلة من الارتباطات الوثيقة ، وأن عدم الوفاء بما يأخذه منها المرء على نفسه من مواثيق قد يؤدى إلى التهلكة ؛ مما حدا ببعض الذين يؤمنون بالمسيحية فى أعماق قلوبهم إلى الامتناع عن التعميد حتى تأتيهم سكرات الموت فيطلبونه ، وذلك حرصاً منهم وحذراً . وتلك عادة يبدو أنها انتشرت انتشاراً واسعاً — برغم معارضة الإكليروس — فى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع ، وعلى الأخص بين الطبقات الرفيعة من مجتمعات المسيحيين .

(حـ)

أما العقيدة فقد وجدت غذاءها فى الإيمان الذى طورها ونماها ، وازدهرت فى ذلك الوسط الذى عرفناه مشرباً بالمذاهب والنظريات الدينية ، فوقعت تحت لونين من التأثيرات : الأول منهما تأثير عامة الناس البسطاء الذين لا يستطيعون التسامى عما اعتادوه من تركيبات وإضافات لا عمق فيها ولا عبقرية ، ويحلمون بالثبات على الحق ولكنهم لا يقدرون على الحفاظ عليه . وإنهم هم أنفسهم

الذين قبلوا ثم فرضوا منذ البداية كل النظريات التى تؤرق المسيحيين وتعتبر خطراً على دينهم ، قبلوها وفرضوها لأنها تعلى وتضخم من صورة « السيد » . والواقع أن الاتباع أتوا من العالم الهيليني بعد أن عمرت أذهانهم بفروض الأورفية أو الأسرار ، لم يكونوا ليتخلوا بسهولة عن هذه الفروض عند دخولهم المسيحية ؛ بل كانوا على العكس يبحثون عنها فى دينهم الجديد ويريدون أن يستعيدوها بين عقائده ، فيتدرجوا – فى غير إدراك منهم ولكن بدفعة عاطفية لا تقهر – إلى إدخالها عليه . ثم علينا بعد ذلك أن نحسب حساب تأثير الفلاسفة ، ونعنى بهم هؤلاء الرجال المثقفين والذين هم ، بفضل ثقافتهم ، على استعداد لأن يعملوا فكرهم فى مسائل الإيمان ولأن يصبحوا من الباحثين فى علوم اللاهوت . ولا جدال فى أن المسيحية زعمت منذ البداية أنها تنطوى على الحقيقة كلها ؛ وبذلك لا يكون هناك أى سبب تستند إليه الفلسفة التى تبحث عن الحقيقة فى تعليل وجودها ؛ ولم يغفل بعض العلماء ، من أمثال « ترتوليان » أو « أرنوب » أو « لاكتانس » عن إعلان هذا وتأكيده . غير أن إغراء الفكر اليونانى ظل يؤثر على هؤلاء الذين كانوا قد عرفوه قبل خضوعهم للنزعة الجارفة التى جاءت بهم إلى الإيمان المسيحى . وهم أيضاً رجال لم يجدوا الإرادة الكافية أو لم يستطيعوا ، وإن أخلصوا النية ، أن يتناسوا القوانين الأساسية وأساليب التفكير التى علموها فى المدارس ، فراحوا يطبقونها على مبادئ الإيمان وعلى النظريات التى أوحت بها العاطفة الدينية للسذج البسطاء . ونشأت عقائد معقدة مثل : التثليث ؛ وأخرى تريد أن تكون ذكية بل غاية فى الذكاء مثل : تحول الخبز والخمر بطقوس القربان إلى لحم ودم المسيح ؛ نشأت وانتظمت بفضل الإضافات والبراهين التى أتى بها « الفلاسفة » فى سعيهم إلى تحليل

الفروض التى يتقدم بها العامة من الناس والتى قد تكون متعارضة[1] .

وفى كلتا الحالتين ، ننتهى إلى أن الإيمان هو الذى يتسامى دائماً بالعقيدة ويزودها بالإضافات ، وأنه هو الذى يستعير فى كل الأحوال من بيئته الدينية السابقة العناصر التى يصوغها فى دينه الجديد .

وكان من الطبيعى ، عند بلوغ المسيحية لنهاية هذه المرحلة الأولى من تاريخها التى كان الإيمان فيها يسير إجمالا وفق إيحاءات « الروح » ، كان من الطبيعى أن يشعر المسيحيون بالمخاطر التى يمكن أن تؤدى « الذاتية » بهم إليها ؛ ونعنى بالذاتية : أهواء الأفراد كل حسب روحه الخاصة . ومن ناحية أخرى ، نراهم قد تأثروا بذلك الوهم الأزلى الذى نجده فى كل الأديان الموحى بها والذى يزعم : أن الحقيقة « واحدة » وأنها ، بالتالى ، « ثابتة » ؛ ثم ما لبثوا أن أيقنوا بأن دعوة الحواريين تنطوى على هذه الحقيقة جميعها ؛ واتجهوا من أجل تأمينها ، وأيضاً من أجل منع تشتت العقائد و « المزايدة » الساذجة فيها ، إلى إنشاء « شريعة للإيمان (ريجولا فيدى) » يفترضون فيها الثبات . ويعبر « ترتوليان » عن هذا الاتجاه تمام التعبير فى قوله : « الإيمان كائن فى شريعة واحدة . ولن يجد حولا له ولا نجاة إلا فى التمسك بأهداب شريعة واحدة » .

وتشير بعض الدلائل إلى أن تعاليم معينة مختصرة قد وضعت منذ القرن الأول ليستذكرها ويحفظها المريدون عند طلبهم للتعميد . وإن ما يسمى حتى يومنا هذا

---

(١) كان لعلماء الإسكندرية المسيحيين على الأخص فضل كبير فى تدعيم هذا الأثر « الخصب » للفلسفة اليونانية على معطيات الإيمان . وأبرز هؤلاء العلماء هو أوريجين الذى عاش فى القرن الثالث ، والذى انتهى إلى التعبير عن « الحقائق الحوارية » بلغة أفلاطون ، أى : أنه كرر بالنسبة إلى المسيحية ما قام به أفلوطين قديما من تفسير لليهودية على أساس من الأفلاطونية والرواقية .

بـ« رمزية الحواريين » ، ليس سوى شريعة إيمان يرجع تاريخها إلى عهد سحيق ، إذ يبدو أنها ، فى صورتها الأولى ، أنشئت فى روما حوالى عام ١٥٠ ، ونسبت إلى الحواريين حتى يسهل على جميع الكنائس قبولها . ولم تكن هى الوحيدة من نوعها على أى حال ، فنصوص القرنين الثانى والثالث تذكر لنا بعض الوثائق التى تتفاوت فى درجة مشابهة لها . وتبرهن لنا هذه النصوص على أن بعض الاختلافات ظلت قائمة بين الرموز التى قبلتها الكنائس المختلفة ، بل تبرهن على أن كل رمز من هذه الرموز ظل مرناً بعض المرونة لفترة طويلة[1] . وهى تدل إلى جانب ذلك على أن كل كنيسة من الكنائس كان لها منذ ذلك العصر « شريعة إيمان » و « رمز تعميد » . وهذا أمر بالغ الأهمية لأن العبارات المتضمنة للرموز المذكورة كانت تستخدم كموضوعات لتأمل الإيمان المسيحى ، وكان يكفى أن يتعمق فيها التفكير اللاهوتى لتتفجر منها العقائد .

وكان محور هذه التآليف جميعاً ، بطبيعة الحال ، مفهوم المسيحية الذى يتطور كل شىء وفقاً لتطوره . ولا نريد هنا أن نتدرج فى تفاصيل لا جدوى منها ، لذلك نكتفى بذكر المسائل الأساسية الثلاث التالية :

١ – لم يكن الإيمان ، من حيث المبدأ ، يقبل أى جدل فى عقيدته الأساسية الخاصة بالتوحيد .

٢ – كانت النهاية المنطقية لكل الإضافات الإيمانية الخاصة بشخصية ودور عيسى المسيح ، هى تقريبه من الله إلى درجة الوحدة .

٣ – كانت هناك نزعة عكسية تسعى إلى إبراز الألفاظ من رمز الآب والابن

---

(١) حورت بعض جوانب « رمزية الرسل » هذه فى مناسبات متعددة من أجل معارضة فتن مختلفة . ولا أدل على « المرونة » التى نتحدث عنها من مقارنة النصوص المختلفة لترتوليان .

والروح فى شخصيات ثلاث تتحدد معالمها – أى تتميز – يوماً بعد يوم . وهذا يعنى فى النهاية القول بأن الإيمان كان يتعلق فى قوة متزايدة بأهداب فروض متعارضة .

ولم يكن للعقول الراجحة إن أرادت الخروج من المأزق سوى الاختيار بين حلين : إما التخلى صراحة عن التوحيد والتسليم بالتثليث ؛ وإما التخلى عن التمييز بين الشخصيات الثلاث فى الله والقول إن كلا من هذه الشخصيات ليس سوى جانب جوهرى من جوانب الذات الإلهية الواحدة . ولكن غالبية المسيحيين رفضت الاختيار بين الأمرين ، وأرادت أن تبقى ، فى نفس الوقت ، على وحدة الله التى لا تتجزأ ، وعلى وجود شخصيات ثلاثة متميزة فيه . وعن هذا الفرض الذى يتعارض طرفاه نشأت مناقشات لا تحصى كان من شأنها إثارة مشاكل تراكمت على مشاكل وصعوبات ترتبت عليها صعوبات متجددة ، فسببت للكنيسة فتناً هائلة لم يهدأ أوارها تقريباً إلا فى القرن الخامس حيث توغلت فى دروب من التعبيرات والنظريات اللاهوتية لم يعد المنطق يستطيع إدراك معالمها .

ومنذ القرن الثانى أصبح من المبادئ المعتمدة : أن عيسى هو ابن الله ، ينتسب إليه نسبة مباشرة وإن كانت من نوع خاص ؛ ثم إنه أيضاً هو الله ، وهو منظم العالم بإرادة الآب وبمعونة الروح القدس . وبدأ المذهب الخاص بالصلة بين الابن والأب يتألف برفضه فى آن واحد لمفاهيم ثلاثة مختلفة تتعلق بهذه الصلة :

١ – نظرية التبنى التى عبر عنها تيودوز بوضوح فى روما ، عند نهاية القرن الثانى ، والتى تقول بأن عيسى الإنسان « تبناه » الله ، فى نوع من التقمص لـ

« اللوغوس » اكتسبه المسيح بفضائله الخاصة .

٢ – نظرية الأشكال ، وهي التي تفترض أن الله جوهر واحد ، يظهر في وظائف مختلفة ، منها : وظيفة الخالق أو المنقذ أو الملهم ؛ ولا يكف في ذلك عن كونه ذاته . وعليه نستطيع الزعم أن الأب قد صلب عندما صلب الابن ، وكذلك الروح القدس . وقد راح أحد المفكرين ، ويدعى براكسياس ، يشرح ذلك في روما حوالى عام ١٩٠ .

٣ – النظرية الغنوصية ، وهي ذات صور تبلغ من التعدد مبلغًا يستحيل معه تلخيصها في عبارة واحدة ، ولكن يمكن القول مع ذلك إنها كانت ترسم المسيح كشخصية إلهية ، بل كنوع من القوة الأزلية غير المحدودة هي وسط الكمال الإلهي وبين الطبيعة البشرية الناقصة . وكانت الفرق الغنوصية عامة تأخذ بـ « الظاهرية » في تصورها للمسيح ، أي : تقول إن حياته الدنيوية وتقمصه الجسد البشري لم يكونا إلا ظاهريًّا .

وإن الجدل الذي أثارته هذه الخلافات حول التصورات الخاصة بذات المسيح ليبدو على درجة من الإبهام ومن البعد عما تعودنا اعتباره جدلا منطقيًّا معقولا ، يتهيأ معها أحياناً للقارئ أنه مجرد تبادل خزعبلات لا جد فيها . ولكن علينا ان نقف عند هذا الحد من تأملنا ؛ فقد كان للجدل المذكور أهمية كبرى ، إذ فرض على الإيمان العام أن يحدد معالمه وأن يكشف عن قواه الحية . وعلينا ألا ننسى أيضًا كيف نشأت أغلب العقائد من الفروض الهادمة لغيرها ومن المزاعم القاطعة ببطلان كل ما عداها : فالرأي الذي يغلب ويثبت ، هو ذلك الذي لا تقضي عليه آراء أخرى ، أو هو الرأي المضاد للذي يرفضه الناس . وكانت أساليب الجدل المستخدمة في العصر الذي نتحدث عنه هي أساليب

السفسطائيين وأهل المنطق من الإغريق . كما أن المفاهيم التى تراكمت شيئاً فشيئاً على عناصر الإيمان الأولى فحولتها إلى عقائد ، كانت نابعة من الميتافيزيقا الهلينية وتستخدم مصطلحاتها فى التعبير عن قضاياها .

ولاقى هذا التطور ، بطبيعة الحال ، ألواناً من المعارضة . فبعض الناس تعلقوا بالصور القديمة لإيمان الحواريين وبسنن اليهودية – المسيحية الأولى . وكان هؤلاء ، فى غالب الظن ، الخلفاء المباشرين للأتباع الأول من أهل فلسطين ، حيث نجدهم يعيشون على الأخص ولفترة طويلة شمالى نهر الأردن فى المنطقة التى لجأ إليها مسيحيو القدس عندما هربوا من تلك المدينة على أثر الثورة اليهودية الكبرى عام ٦٦ . ولم تلبث الكنائس الهلينية أن اتهمتهم بـ « فقر » تفكيرهم فيما يتعلق بـ « السيد » ، وأطلقت عليهم اسم « الفقراء » تحقيرًا لهم . وقد شرحنا فيما سبق كيف بدأ الشك ، منذ عهد جوستين ، فى أمر نجاتهم ، وكيف جاءت الساعة التى كان لابد فيها للناس من أن يعدوهم بدعة فى كنيسة الله الكبرى . والحق يقال إنهم كانوا فئة من المتأخرين ، أرادوا فى عناد بالغ ان يحتفظوا بمعتقدات عفا عليها الزمن وأصبحت لا تتفق مع البيئة اليونانية . وإننا لنلمح أيضاً ألواناً أخرى عنيفة من المقاومة لمذهب « اللوغوس » الذى مهد لعقيدة الثالوث ومكنها من الثبات . ولكن الذين ثاروا على هذا المذهب لم يكن لهم من النجاح حظ أكبر من حظ « الفقراء » فى إيقاف التيار الذى دفع بالإيمان المسيحى إلى إنشاء ميتافيزيقا عقائدية تنمو وتتعقد يوماً بعد يوم ، وتبتعد بذلك عن دعوة الحواريين .

ولم يكن هذا العمل الخاص بإنشاء العقائد ، عند نهاية القرن الثانى ، سوى محاولات بدائية ، إلا أن اتجاهاته كانت واضحة كل الوضوح ، وهى لن تتغير

بعد ذلك تغيرًا جوهريًا ، فـ « الأمل المسيحى » أصبح منذ ذلك الحين « دين المسيحية » ، أى : الدين الذى جعل من عيسى المسيح إلهه الحقيق ، وانفصل تمام الانفصال عن اليهودية ، بل تنكر لها ولعنها باعتبارها ألد أعداء الحق ، بدلا من أن يظهر نحوها عاطفة البنوة الواجبة .

(د)

وهناك ظاهرة أخرى تبرز هذا الاستقرار للمسيحية فى صورة الدين المستقل المتعصب لمبادئه ، ذلك هو النمو الرأسى والأفقى المضطرد فى الحياة الكنسية . ونعنى بهذا : نزعة الفرد المتزايدة يوماً بعد يوم ، من وجهة النظر الدينية ، إلى التلاشى فى الجماعة وإلى إخضاع سائر الأعمال الجوهرية من الحياة لإشراف ، أو على الأقل لتأثير ، أشخاص هم السلطة المنظمة فى الكنيسة ، ثم إخضاعها للشعائر والطقوس التى تعبر عن فعل وجود « السيد » وسط أتباعه وتوحد بينهم حقيقة فى ذاته . ويجب علينا ألا نسبق الزمن بالحديث عن « الشعائر القدسية » بمعناها المتعارف عليه ، ولا أن نطبق هذا التعبير فى غير تدبر على سائر التقاليد العملية فى الكنيسة القديمة ، مثل تلك التى كانت تفرض بواسطة الأسقف فى مناسبة زواج أو موت أحد الأتباع . ولكن الواقع أن هذه التقاليد ، بدخول الطقوس المحددة فيها ، أصبحت تتجه إلى أن تكون « شعائر قدسية » ، أى عمليات سرية ينبع منها فيض من الفضل الخاص .

ولقد أوضحنا فيما سبق كيف تعقد التعميد فى طقوسه ، وكيف تحدد ووضح فى شعائره القدسية . وإنا لنرى تقليدين قديمين من تقاليد الحياة الكنسية يتطوران نفس التطور فى كثير من النشاط ، وإن لم يبلغا الهدف بمثل ما بلغه به

التعميد من سرعة ؛ هذين التقليدين هما : القربان والتوبة .

فاجتماع القربان – الذى عرفته الجماعة الأولى – أصبح ، منذ القرن الثانى ، « قداسًا » ، أى سلسلة منتظمة من القراءات والصلوات الجماعية والدروس والتراتيل ، تجد قمتها العليا فى تقديس الأصناف الإلهية وفى تناول القربان . ولم تتفق الآراء تمام الاتفاق على تحديد المعانى العميقة والخصائص الحقيقية التى كانت لهذه الطقوس فى ذلك العهد البعيد من الحياة المسيحية ؛ وثارت قديمًا مناقشات مطولة حول القطعة من أثاث الكنيسة التى كانت تستخدم لتقديس الأصناف ، هل كانت مائدة كالعهد بها أول الأمر أو اتخذت شكل المذبح . . . والظاهرة المؤكدة لدينا على أى حال هى أن القربان كان يعتبر منذ ذلك الحين « سرًّا » ويمكن الأتباع من المشاركة فى « السيد » وفقاً للمفهوم الذى سبقت له الغلبة فى عقيدة بولس : فأصناف القربان ، من خبز وخمر ، ينظر إليها على أنها طعام معجز ، يجب إعداد النفس قبل تناوله إعدادًا دينيًّا خاصًّا ، وإلا كان المآل إلى التهلكة .

وفى هذه الطقوس نرى ذكرى موت الإله والإيقان بفاعلية الموت فى إنقاذ المؤمن ، ملازمان للفكرة الأساسية القديمة التى تقول بالمشاركة فى الذات الإلهية بتشرب الإله ؛ لذلك كان لابد لفكرة التضحية بدورها من أن ترتبط بها وأن تتداخل فى مراسمها . كان لابد لها من هذا لأن جميع ديانات البيئة التى تكونت فيها المسيحية تأخذ بمبدأ التضحية ، ومن العسير القضاء على مفهوم بلغ مثل هذا المبلغ من الانتشار بين الناس ؛ وكان لابد لها من هذا أيضاً لأن فكرة التجدد الصوفى لموت الإله فكرة قد تغلغلت – بأشكالها العديدة – فى عبادات الغالبية من آلهة الخلاص . وكان من المتعارف عليه أن الأمر لم يعد يتعلق فى الحقيقة

بـ « ذكرى » التضحية الأولى من أجل إنقاذ البشر ، تلك التى تمت على طريق الآلام وعلى الصليب بالقدس ؛ فلو لم يكن القربان إلا ذلك لما تعدى فى معناه أن يكون رمزاً من الرموز بل إنها لتضحية حقيقية ، يعود فيها الإله إلى ما كان عليه ، أى : ضحية بإرادته ، برغم ما يتلقاه من فروض التمجيد والتقرب . ونتيجة هذه التضحية : إفاضة قوة سحرية تتولد عنها مزايا صوفية لا تحد بالنسبة إلى جميع المشاركين . ولقد قيل إن هذا التصوير للقربان إنما يعنى إدخال « قطعة من الوثنية » فى الدين المسيحى ، وعلينا أن نفهم من ذلك بطبيعة الحال : أنها قطعة من « وثنية الأسرار » .

وأدى الأمر إلى نتائج عملية وعقائدية تبلغ الدرجة الأولى من الأهمية . ففى العبادات الشرقية الخاصة بالآلهة الذين يموتون ثم يبعثون ، نجد أن التركيز فى الطقوس يتجه حينًا إلى الاحتفال بموت المنقذ ، ويذهب حيناً آخر إلى تمجيد بعثه ؛ ولكن الاهتمام – على حد علمنا – قلما كان يوزع بالتساوى بين المرحلتين من تاريخ الإله . وفى المسيحية الأولى ، مسيحية الاثنا عشر ، كان البعث يحتل المكانة الأولى ، لأنه بدا ضمانًا للأمل الأكبر ، الأمل فى عودة المسيح وفى إنشاء مملكة الله . فلما تأخر « الظهور » وأصبح تحقيق الأمل غير وشيك فى تفكير الأتباع ، تطورت فكرة « بعث السيد » فى الإيمان من ضمان لقرب حلول المملكة الموعودة إلى ضمان لبعث المؤمنين يوم القيامة . وكان بولس السابق إلى ذلك فى عقيدته[1] . ومقابل هذا نرى القربان يسمو فى معناه بازدياد التأمل وبإنشاء النظريات فى التجسيد وفى الخلاص عن طريق محنة صلب المسيح . وهكذا يأتى بولس – وهو الذى يعبر عن مجمل دعوته بأنها « حديث

(١) انظر « الرسالة إلى أهل كورينثيا » (١٥ / ١٢ وما يلى) .

للصليب » — بالإضافات الأساسية على السنن الأصلية الخاصة بآخر مأدبة لعيسى ، فيجعل منها تحقيقاً مسبقاً لذلك السر الذى أفصح عنه الأستاذ من خلال تعذيبه والذى فرض فى القربان أن يصوره بدوره إلى ما لا نهاية . وبهذا يكون القربان : العمل الشعائرى المركزى فى العبادات المسيحية ، والمنبع الجوهرى الذى يفيض منه فضل السيد على الجماعة التى « تهتف باسمه » .

ولم يتطور القربان نحو هذه المعانى كلها إلا لأن عقيدتين من العقائد أخذتا بلب المسيحيين وتغلغلتا فى ضميرهم : الأولى تقول إن السيد « موجود حقيقة » فى وسط الاجتماع القربانى ، وعلى اتصال مباشر ومشاركة فعلية بعباده . والثانية هى ذلك المفهوم الذى نسميه بـ « التحول »[1] والذى يعنى : تحول الخبز والخمر — بفضل طقوس التقديس — إلى لحم ودم عيسى ، بحيث يصبح تناول الأصناف المقدسة « تجسيدًا » ماديًّا وروحيًّا معاً للسيد فى المسيحى ، بالصورة التى أشار إليها هو نفسه باعتبارها الصورة الصالحة لإتمام السر.

ولا شك أن هذه الأحكام العقائدية لم تجد إطارها التعبيرى النهائى إلا بعد لأى . وأن النصوص الأولى[2] التى نلمحها فيها لا تخلو من التردد والغموض ؛ ولو حدث عكس ذلك ، لكان أمرًا مستغرباً . إلا أن نظرية التحول ، فى نهاية

(١) انظر فى ذلك « الرسالة الأولى إلى أهل كورنثيا » (١١ / ٢٣ وما يلى) . ولا نقول إن بولس نفسه هو مخترع العبارة التى تنطوى فى آن واحد على كل الأحكام التالية : إن الخبز المقدس هو الجسد « الذى أسلم من أجلكم » ، وإن الكأس « هى العهد الجديد فى دمى » ، وإنه يجب « إقامة ذلك » أى تكرار نفس الحركات والكلمات على الأصناف من خبز وخمر « تذكرة بى » . وإنما نعتقد أن الإضافة الأساسية فى نظرية التحول ، التى تحملها هذه العبارة ، كانت من عمل المجتمع الهيلينى حيث نشأ الحوارى ، وإنه تلقاها باعتبارها « كلمة السيد » .

(٢) جمع العلامة راوشن هذه النصوص فى كتابه « التحول والتوبة » ، المطبوع بباريس عام ١٩١٠ .

القرن الثانى ، كانت قد وجدت الحدود الأساسية لاتجاهاتها العامة ، وإن لم تكتمل فيها بعد صور الإعجاز التى سوف تستخلص عناصرها من هذه الاتجاهات العامة .

أما التوبة ، فمفهومها لم يتقدم ، بطبيعة الحال ، مثل هذا التقدم السريع فى تلك الفترة ، وإن برزت أيضاً واتضحت معانى ومعالم تطورها .

والأمر هنا لا يتعلق بالتوبة التى قد يقيمها الآثم فى خاصة نفسه عند الندم على خطاياه ، ولا بالتأدب الأخلاقى الذى يترتب لديه على ذلك ، فهذا واجب على كل المسيحيين ، بل هو الأساس الأول لأخلاقهم العملية منذ قيام عيسى بدعوته . ولكن خروجهم عن جادة الفضيلة ما لم يفتضح ويصبح أمره معلوماً للمجتمع فهو من خاصة الضمائر ولا يعنى إلا أصحابه . والأمر يختلف كل الاختلاف عندما يظهر المؤمن على الملأ من إخوانه خطايا تنم عن ضعف النفس وتثير الشك فى أمر نجاته كما تعد قدوة سيئة لهؤلاء الذين لم يستقر الإيمان فى نفوسهم كل الاستقرار . لذلك شعرت الجماعة فى زمن مبكر بأنها ملزمة بواجب مزدوج تجاه الآثم الذى يظهر إثمه : واجب الإرشاد بالنصيحة الأخوية ، ثم واجب اتخاذ الحيطة حتى لا يظلم هذا الآثم سوى نفسه . وترتب على ذلك : الالتزام بإنشاء تنظيم كنسى يضمن إصلاح الأمر فى حالة الآثم الظاهر ، وفصل الآثم المفضوح عن المجتمع ثم استعادته عندما يأتى بالدليل المرضى على صلاحه من جديد . وما لبث هذا التنظيم أن اتخذ صورة سلسلة من الطقوس ، سائراً فى ذلك وفق النزعة العامة التى نزعتها جميع أعمال الكنيسة . وكان من المحتم أن تتطور إجراءاته نحو الاشتمال على معانى وقيم الشعائر القدسية ، بسبب الأهمية التى أضيفت عليه شيئًا فشيئًا فى الحياة المسيحية بالنسبة إلى المذنب والمجتمع على

حد سواء ؛ فأصبح فرضاً محتمًا على التائب من الذنب يتيح له استعادة قدرته على أن يتلقى من جديد ذلك الفيض المنجى الذى هو دعامة مجتمع « القديسين » .

وفى نهاية القرن الثانى بلغ تنظيم طقوس التوبة من النمو والتحديد مبلغًا كبيرًا . إلا أنه يبدو أن مفاهيمها اللاهوتية القدسية لم تكن قد أخذت بعد فى البروز حقيقة . ولكنه من المؤكد لدينا أنها أصبحت منذ ذلك الحين أمرًا لازماً فى نظر المسيحيين ، وأنها كانت موجودة ضمنًا فى الطقوس التى اتخذتها السلطات الكنسية لـ « الحل » أو « العقد » على الأرض وفى السماء على حد سواء .

وإن النصوص التى ترجع إلى بداية القرن الثالث ، والتى درسناها فى غير تحيز ، لا تشير البتة إلى أثر للشعائر القدسية الأربعة الأخرى التى سوف تتحدد فى الكنيسة بمرور الزمن ، وهى : التثبيت (فى الدين) والتنصيب (فى الوظيفة الكنسية) ، والزواج ، والمسحة الأخيرة بالزيت المقدس (للموتى) . ولا نعنى أنه يستحيل علينا ، نحن ، أن نلمح بذور هذه الشعائر بين مختلف التقاليد التى اتخذت منذ ذلك العصر فى طقوس الكنيسة ؛ ولكن المسيحيين لم يكونوا ليدركوا بعد مفاهيمها .

ومنذ ذلك العصر والمسيحية دين أصيل : له عقائده ومراسمه وتنظيماته ، التى تحددت أسسها الجوهرية واتجاهاتها العامة المستقبلة ، وإن لم تكن قد خرجت بعد من طورها البدائى . وتلك العقائد والمراسم والتنظيمات لم تنشأ بفعل قوة ذاتية مفطورة فيها ، بل هى على العكس تكونت بفضل نوع من التأليف تعاونت عبادات الشرق – من يهودية وأديان ذات أسرار – مع الفكر اليونانى فى تزويده بجميع عناصره . وإنها أيضاً لعقائد ومراسم وتنظيمات سوف تتطور –

حسب ما يفرضه عليها المستقبل ، بنفس الأسلوب التأليفى . وسوف تستق وتتغذى يومًا بعد يوم ودون انقطاع من كل ما يحويه العالم اليونانى – الرومانى من اتجاهات دينية حية باقية ، وإن تم ذلك فى كثير من التردد عند الاختيار ومن الجدل عند التطويع . وكانت هذه العملية عملية « لا شعورية » بالتأكيد ، ولكنها استمرت فى صبر ومثابرة ، حتى أتى يوم اتضح فيه للعيان تهافت سائر الجماعات الدينية التى امتص منها الإيمان المسيحى والشعائر المسيحية جوهر ما كانت تعتمد عليه من قيم ومفاهيم .

الفصل العاشر

النزاع بين المسيحية وبين الحكام والمجتمع

(ا) كيف عرقل هذا النزاع من انتشار المسيحية - المسئوليات - ما رفضه المسيحيون وما فرضه عليهم الحكام - التعارض بين المسيحية وبين المجتمع - المسيحيون أمام الرأى العام - أهمية الرأى العام بالنسبة إلى المسيحية من الناحية العملية .

(ب) وجهة نظر الحكام تتضح وتثبت خلال القرن الثالث : المسيحية تعد ضرباً من ضروب الفوضوية - الأباطرة الذين اضطهدوا المسيحية - لماذا فشل الاضطهاد - كيف مهد هذا الاضطهاد السبيل للتحول الحاسم فى الدولة وفى المجتمع - الحل الوسط الذى جاء به قسطنطين ومرسوم ميلانو - الأسباب - الشروط المفروضة وما تميزت به من عدم استقرار .

(حـ) تنازلات الكنيسة - حدودها - موقف قسطنطين لم يكن بالموقف الذى يمكن التمسك به والثبات عليه - أسباب ذلك - كنيسة الدولة فى نهاية القرن الرابع - تهافت الوثنية - مقاومة الطبقات الأرستقراطية أهل الريف وكيف كانت مسيحيتهم ظاهرية فحسب .

(١)

تأخر انتشار المسيحية فترة ما ، وبدت الديانة الجديدة وكأنها آخذة فى سبيل التدهور بسبب العداوة العنيفة التى أظهرها تجاهها المجتمع الوثنى وحكومة روما ، تلك العداوة التى اتخذت لها ثوباً مما نسميه بـ « الاضطهادات[1] » .

وكان لكل من الطرفين فى النزاع بين الكنيسة والدولة قسطه من المسئولية . فمسيحيو العهد الأول آمنوا بأن نهاية العالم وشيكة الوقوع ، وتطلعوا بآمالهم إلى يوم القيامة ؛ فقل بطبيعة الحال اهتمامهم بواجبات وهموم الحياة الدنيوية ، وأصبح حب مملكة القدس السماوية فى قلوبهم يضر بمصالح الوطن الرومانى بصورة واضحة : كانت الخدمة العسكرية مثلا بغيضة إليهم لأنها تنطوى على فروض وثنية ، ثم لأنهم كرهوا الحرب وما يعانى الناس منها ؛ وبدت لهم مشاركتهم فى الخدمة المدنية وكأنها شىء لا جدوى فيه . ثم أصبحوا يرفضون فى عناد – على الأخص – الإسهام فى كل مظاهر التأييد التى كانت تطلبها حكومة الإمبراطورية احتجاجاً على طابعها الدينى الوثنى العام . وكان ضميرهم الدينى حساساً بالغ الحساسية يضطرهم إلى الرد بـ « عدم الاستطاعة » على الكثير من المتطلبات العادية للحياة المدنية العامة . ولم تكن الدولة الوثنية لتستطيع التسامح إزاء موقف هؤلاء القوم الذين ازداد عددهم يوماً بعد يوم ، والذين أصبحوا

(١) كانت الاضطهادات التى لاقاها المسيحيون موضوع دراسات عديدة . وعلينا أن نشير فى هذا الصدد إلى أن كتاب « تاريخ الاضطهادات » ، لمؤلفه بول الازار ، يفتقد إلى روح النقد العلمى ، وإن كان ذائع الصيت بين الأوساط المسيحية الكاثوليكية .

وكأنهم يتخذون شعاراً لهم من عبارة ترتوليان المشهورة : « إنى قد اعتزلت المجتمع » .

ولا ندعى هنا أن المؤمنين جميعًا وقفوا من واجبات الحياة العامة ذلك الموقف المتعصب الشديد التعصب الذى وقفه أناس من أمثال ترتوليان ؛ فهذا الداعية العنيف من دعاة المسيحية يعترف فى كتاباته بوجود مسيحيين بين الجند وفى وظائف الدولة ؛ غير أن إخلاص هؤلاء الصامت لم يكن ، فى نظر الحاكمين ، ليغفر لذنوب المسيحيين المتحمسين ولتصريحاتهم التى لم تتصف بالتعقل ، ثم لمظاهراتهم السافرة ولإعلانهم موقفهم الذى اتخذوه فى غير ما ترو أو مهاودة ؛ فكانوا العنوان السيىء للجماعة كلها ، لأن الحكام لم يروا غيرهم ولم يواجهوا فى المحاكم إلا أنماطاً منهم .

ومن ناحية أخرى ، كانت الدولة متسامحة حقيقة وبصورة واسعة تجاه الديانات غير الرسمية ؛ إلا أنها كانت تضع لهذا التسامح حدوداً تراها ضرورية من أجل الحفاظ على مقومات الحكم . مثال ذلك ما فرضته على سائر تلك الديانات من الاحترام لدين الدولة ؛ بحيث تستطيع أن تطلب من كل مواطن ، فى أى مناسبة ، الإبانة عن وطنيته فى يمين علنى باسم الإمبراطور المؤله ، وبالمشاركة فى القرابين المقدسة إلى « مقامه الأعلى » . ثم كانت على حذر شديد من الخرافات التى « تضلل نفوس البشر الضعيفة » . وقد رأت فى المسيحية خرافة من هذه الخرافات ، وصفها يلين بأنها « لا صورة لها ولا حدود » ؛ إذ جاءت إلى العالم الرومانى من الشرق ، حماسية وصوفية غريبة كل الغرابة عن سائر ما تعود الرومان أن يسموه بالديانات ، لا معابد لها ولا أصنام . وكانت الدولة ، أخيراً ، تتوجس خيفة من الجماعات السرية ؛ وكان القائمون بأمور

الأمن فيها يعلمون تمام العلم أن المسيحيين يجتمعون ليلا دون طلب الإذن اللازم لذلك .

أما المسيحيون ، فكانوا لا يقبلون أن يعتبر الناس جرماً ما يقومون به من التحايل على كيد الشيطان الذى يتخذ مظاهر الأصنام ، أو مقاومة ما يوحى به ، ومن التضحية بكل شىء فى سبيل الله والاجتماع من أجل تمجيده والصلاة له . وكان ضميرهم يعارض بقوة قاهرة ما تطلبه الدولة من التزامات وما يفرضه القانون من واجبات . وعبر « ترتوليان » أيضاً عن شعوّر صفوتهم فى قوله : « ليس الإنسان ملزماً باحترام شريعة ظالمة » . وكان الضمير المسيحى ، بطبيعة الحال ، هو الحكم فى صلاحية كل قانون . ولم تكن الدولة لتقبل مثل هذا التحرر .

وظهر التعارض بين وجهات النظر فى علاقات المسيحيين بالمجتمع مثلما ظهر فى علاقاتهم بالدولة : فهم لم يحترموا لهذا المجتمع ما كان يتمسك به من آراء ثابتة ومن تقاليد ، بل ومن مبادئ . وكان رجل مثل ترتوليان (الذى عاش فى نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث) يصور الزواج والتكاثر على أنهما ضعف يرثى له أمام الغرائز الجسدية ، ولم يكن يجد خيرًا إلا فى القيم الروحية ، مهاجماً للملذات الدنيوية ، محطماً للفروق الاجتماعية ، جامعًا بين السيد والعبد فى إيمان واحد ، ملقيًا على سائر أوجه هذه الحياة الدنيا بجماع احتقاره .

ولم تخل جماعة المسيحيين بطبيعة الحال من قوم مسالمين ، يبدون الاستعداد الكافى للتوفيق بين عقيدتهم وبين الحياة الاجتماعية العامة .

ولا تنطوى ضلوعهم على حب التضحية والاستشهاد . غير أن عامة الشعب كانت ، على عادتها ، لا ترى من الكنيسة إلا هؤلاء الأشخاص الذين يفرضون

نفسهم على الجمهور بالضجيج والمعاندة . وكان الوثنيون من الطبقات الممتازة يرون فى تصريحاتهم الثورية خطرًا على أنفسهم وعلى ما يتمتعون به من امتيازات .

ولهذا نرى الدولة والمجتمع على حد سواء لا يستطيعان إدراكا لما انطوى عليه التعصب المسيحى من سمو ، فيشعران تجاهه بالغضب الشديد ؛ ويذهب الشعب إلى إظهار كراهيته العنيفة فيلقى على طائفة المسيحيين بكل ما اعتاد أن يلقيه على اليهود من مسبة ، على حين يعمل أصحاب السلطان على اضطهادها . وفى نهاية القرن الثانى أصبحت المشكلة فى وضع لا يمكن فيه الوصول إلى حل لها إلا بالقضاء على أحد طرفيها . وبدت المسيحية حقيقة وكأنها لا تستطيع دفاعاً أمام هجمات السلطات الحاكمة بكل ما يدفعها ويدعمها من رأى عام يكاد يكون ممثلا لجميع فئات الشعب : فالمثقفون كانوا يحتقرون المسحيين ، سواء رأوا فيهم يهودًا منحرفين أنكرتهم معابدهم ، أو أصحاب عقيدة لا تستحق تحمل مشقة دراستها . وعامة الناس كانوا يكرهونهم لغرابة أسلوب حياتهم ولبشاعة ما أشيع عن اجتماعاتهم من أخبار[1] .

وكانت هذه الكراهية التى اتخذت صورًا عنيفة السبب الأول الأساسى للاضطهادات .. وكانت السلطات تتدخل لتهدئة الشعب ولإرضاء عواطف الجماهير العمياء ، فتقدم للمحاكمة أناس لم تكن لتهتم بأمرهم لولا ذلك حيث كانت تعلم تمام العلم أن خطرهم ليس بذى بال ، وأن تعصبهم الدينى لا تصحبه طقوس دموية ولا فضائح خلقية كالتى تنسبها إليهم الإشاعات المهولة ، وإن

---

(١) كان أصحاب النيات السيئة يلقون عليهم بالتهم التى وجهت من قبل إلى اليهودية : من التضحية بالأطفال ومن اجتماعات سرية تهدف إلى التحلل الخليع وتصاحبها أعمال مشينة مقززة .

كانوا يستحقون اللوم والتأنيب على هذا التعصب . غير أن رفض المسيحيين إقامة الشعائر « باسم ألوهية الإمبراطور » وامتناعهم عن تمجيد صورته بإحراق البخور أمامها أديا إلى اتهامهم بالتآمر عليه ، وهو اتهام كان الحكم فيه ، إذا ثبت : القتل . لذلك نقرأ عن بعض الشهداء خلال القرن الثانى ، وخاصة فى آسيا الصغرى فى عهد تراجان ، وفى مدينة ليون تحت حكم مارك أوربل عام ١٧٦ [1] .

(ب)

ولم تتنبه الدولة كل التنبه إلى الخطر الاجتماعى الذى تشكله المسيحية إلا خلال القرن الثالث . ولكنها صارت تنظر إليها عندئذ على أنها نوع من الفوضوية . ولقد ظهرت أعنف أنواع العداوة للكنائس المسيحية لدى أحكم الأباطرة وأكثرهم إخلاصًا لواجبات منصبهم ، أى – حسب التعبير الحديث – أكثرهم وطنية . فنجد رجالا من أمثال : ديس ، وفاليريان ، وجالير ، وديو كليسيان ، يعقدون النية الصريحة ، فى النصف الثانى من ذلك القرن ، على القضاء قضاء مبرماً على الكنيسة والإكليروس وكل أثر للدين الجديد ، فيحملون الناس على الارتداد عنه ، مستخدمين التعذيب أو التهديد به . ولم يتورعوا فى سبيل تحقيق أهدافهم عن أقسى وسائل العنف ، بل عن القتل فى كثير من الأحيان . وكانت هناك تهم مدنية عديدة توجه فى آن واحد إلى المؤمنين لتهويل الأمر عليهم نذكر منها : الانتساب إلى دين غير مشروع ، والانتماء لجماعات

(١) وإنا لنترك جانبا ما سمى بـ « اضطهادات نيرون » ، إذ يبدو أنها لم تكن سوى نوع استثنائى من استخدام عواطف الجماهير لتحويل شبهة إحراق روما ، عام ٦٤ ، عن الإمبراطور.

سرية ، والتآمر على الحاكم ، ورفض إطاعة الأوامر – إن كانوا جنداً – ، والتهرب من واجبات الحياة العامة والخاصة ، بل ممارسة السحر . وعلى أي حال ، فإن سائر التهم كانت تتميز بقابليتها للتلاشي التام عندما يعلن المتهم المسيحي تخليه عن عقيدته . وهذا يدل دلالة صريحة على أن الغرض من كل الإجراءات القضائية لم يكن فى الواقع سوى القضاء على الديانة المسيحية ذاتها ولا شيء غيرها . وقد ظن البعض أن هذه الديانة حرمت بقانـون خاص منذ عهد نيرون تحريماً قطعيًّا لا لبس فيه ؛ وثار جدل حول ذلك . ولكن الأمر لا يزال فى حاجة إلى الدليل الشافى ، وإن كنا لا نستبعد إمكان وقوعه . وفى الحقيقة ، كانت الإجراءات تسير وكأن الاعتراف باعتناق المسيحية يفترض فى حد ذاته جرائم يعاقب عليها بالقتل . وكانت الأساليب القضائية لدى الرومان تتصف على وجه عام بالقسوة . وبلغت فى ذلك أبعد حد بالنسبة إلى قضايا المسيحية ، لأن القضاة كانت لهم اليد المطلقة فى تقدير العقاب على من تثبت عليه تهمة التآمر ضد الحاكم . وقد استخدمت أكثر وسائل التعذيب وحشية لحث المسيحيين على الارتداد . وكان لمزاج القضاة الشخصى بطبيعة الحال أثره فى تخفيف ألوان التعذيب أو على العكس ، فى الزيادة من عنفها .

ولحسن حظ المسيحيين ، اتصفت مجهودات الحكام ضدهم دائماً بعدم التناسق وبالتردد فى بعض الأحيان ؛ ولم تكن شاملة لكل أنحاء الإمبراطورية ، حتى فى أحلك أيام عهد ديوكليسيان ؛ وكذلك لم تطل الفترات التى اشتدت فيها ؛ بحيث استطاعت الكنيسة دائماً أن تلم شعثاً على أعقاب كل محنة من المحن التى مرت بها . وكان للاضطهاد ولا شك آثاره التى تجلت فى كثرة الشهداء ، بين صفوف الجماهير المسيحية المؤمنة لم يحقق إلا ضروباً من الردة المؤقتة ، وكان

ينتهى أحياناً إلى حماس دينى ينتشر بين الناس . وكثيرًا ما ترددت كلمة « ترتوليان » المشهورة التى رمى بها تحديًا فى وجه المضطهدين : « بذور المسيحية فى دم الشهداء المراق » وقد تحققت هذه النبوءة فى الواقع ، وإن سير الشهداء التى حفظت حتى عصرنا هذا لتصور لنا حالات كثيره غريبة من التحمس الدينى الجماعى . وكانت الكنيسة وعلى الأخص فى الفترات التى تتخلل أزماتها ، تستغل فى نشر دعوتها مفهوم استشهاد الشهداء من بينها .

وفى بداية القرن الرابع ، عقب فشل الاضطهادات التى قام بها ديوكليسيان ، استطاعت الدولة أن تدرك أن المسيحيين أصبحوا كثرة لا جدوى للعنف فى القضاء عليها . ومن ناحية أخرى كانت المشكلة – أن بحثت بحثاً صحيحًا – قد اتخذت وضعاً يختلف فى نظر هذه الدولة عن وضعها خلال القرن الثانى . ذلك أن المسيحية لم تعد فى هذا العصر دين صغار الناس والطبقات الدنيا من المجتمع : فلقد انضم إليها أشخاص من مختلف الطوائف والمستويات الاجتماعية . وبازدياد جماهير المؤمنين نشأ نوع من التوازن المطمئن فى رحاب الكنيسة ؛ إذ كف أعضاؤها عن ترقب نهاية العالم بين نهارهم وليلهم ؛ وأصبحوا يطوعون أنفسهم على قبول العادات بل الآراء الشائعة ؛ ودخلوا أفواجًا فى الجيش وفى الوظائف العامة ، دون أن يعارض الإكليروس فى ذلك . ورأى الناس أن الخلق والصبر المسيحيان يدعمان من سائر المبادئ الاجتماعية . وقبل كل هذا ، كانت جماعة المسيحيين تظهر للدولة فى صورة تسر الناظرين ، صورة الهيئة الموحدة المنتظمة ، التى يقودها رؤساء ذوو نفوذ مطلق ، ويتمثل فيها النظام المؤسس على حكومة معتمدة منسقة ، كما تظهر لديها الروح السياسية . وأخيرًا ، فقد تلاشت شيئًا فشيئًا الآراء المسبقة التى شاعت بين العامة خلال

القرنين الأول والثانى ضد الحياة المسيحية ، بعد أن اتسعت الكنيسة – بفضل عهود التسامح – فأصبحت مضطرة أكثرمن ذى قبل إلى أن تحيا جوانبه من حياتها فى وضح النهار .

وأصبح من المحتمل بعد ذلك أن يفكر الناس فى سبل التوفيق بين أطراف النزاع .

وهيأت الظروف الحل الوسط ، كما ساعدت على الإسراع به : فقد انتهى الأمر بالإمبراطور جالير – وكان أشد المضطهدين للمسيحية حماسًا – عام ٣١١ ، أن تكشف له عقم جهوده ، فاضطر إلى التراجع أمام العقبات التى أثارها لحكمه عناد الكنيسة الهائل ، واستسلم لفكرة التسامح مع المسحيين ، ثم مات بعد ذلك بفترة قصيرة . ورأى المسيحيون – وكانوا على حق فيما رأوا – أن تصريحه بالتسامح معهم كان إعلاناً لانتصار جماعتهم . ثم أصبح موته مجالا لتنافس عدد كبير من طالبى الحكم الذين حاول كل منهم استرضاء الأنصار وكسب أكبر قدر من التأييد بين طوائف الشعب المختلفة . وكانت تلك فرصة ذهبية للكنيسة تستطيع أن تبيع تأييدها ، معتمدة على ما تملكه من قوى وعلى عالميتها التى تجعل منها حليفاً يعتز به كل طالب للحكم . وكان أحد المتنافسين على العرش ، وهو قسطنطين ، رجلا موثوقاً به لديها ، بل رجلا سبق له تقديم الدلائل على نيته الحسنة تجاه المسيحية . ولم يكن قسطنطين قد تحول بعد إلى المسيحية . غير أنه كان ذا فكر تأليفى واسع الآفاق ؛ وكان – مثله فى ذلك مثل أبيه قسطنطين كلوروس الذى يروى أنه تجاهل ، خلال ولايته بلاد الجول ، آخر قوانين الاضطهاد – كان يوفق فى رحاب ضميره بين احترامه لدين الأجداد العتيق وبين خوفه من إله المسيحيين . ثم كان ، بالإضافة إلى ذلك ، يصل

الكثير من القسس الذين اعتادوا التردد على أبيه ، ويدرك مدى استعدادهم لمؤازرة الحكام ، ويعرف تمام المعرفة أنهم ليسوا بالذين يرفضون – فى الواقع العملى – التنازل للدولة عن أهم ما تطلب منهم التنازل عنه فى سبيل الحفاظ على مقومات الحكم ، وإن تمسكوا فى قوة بعد ذلك بالمبادئ التى أنشئت عليها المسيحية القديمة . ولاحظ أن الاضطهادات لم تفشل فحسب ، وإنما أدت إلى اضطراب خطير فى الحياة العامة : فالعداوة التى أظهرها الشعب فى سابق العهود تجاه المسيحيين لم تعد بذات موضوع بعد أن تكاثروا وتعارفوا بالمجتمع وأصبحوا يعيشون عيشة الناس جميعاً . وعلم بثاقب فكره أن الكنيسة تشكل قوة نشطة غاية فى النشاط ، وأن سائر الحكام الذين قاوموها قد وقعوا فى شر أعمالهم . وأخيرًا ، فقد نمى إليه أن منافسه « ماكسانس » كان يدعم قوى جنده الوافر العدد الشديد البأس بتأييد سائر الآلهة الوثنية الذين أقام لهم الصلوات وذبح لهم الأضاحى ؛ بل نمى إليه أيضاً أن هذا الأمير نفسه كان يستعين بالسحر والسحرة .

فلم يبق لقسطنطين إلا أن يستعين بالمسيح .

ولعل الرغبات التى صبت إليها نفسه والآمال التى عقدتها قد تجسمت له جميعًا فى صورة رؤى أو تهيؤات ، تحددت معالمها بعد ذلك عندما أراد روايتها للناس . وعلى أى حال ، فقد انتصر على منافسيه ، وظن أن فى انتصاره فضلاً للمسيح . واجتمع له من عرفان الجميل والإيمان وحسن التدبير السياسى ما أوحى إليه عام ٣١٣ بمرسوم ميلانو ، ذلك المرسوم الذى أفسح مكاناً لإله المسيحيين بين آلهة الدولة المعترف بهم ، والذى أراد أن يجعل جميع الأديان متساوية فى الدولة ، على أساس حرية الضمير . غير أن الكنيسة ، فى الواقع ،

لم تكن لترضى بمثل هذا الحل ، ولم تكن الدولة لتستطيع الصمود على موقفها الذى أراده لها قسطنطين بمرسوم ميلانو .

(حـ)

وكانت الكنيسة المسيحية قد اضطرت ، بحكم تطور الظروف وبحكم شعورها العملى بواقع الحياة ، إلى التنازل عن شيء من تعصبها وحزمها . أمام متطلبات المجتمع . غير أنها لم تتنكر فى سبيل ذلك لمبادئها : فقد كانت تظن نفسها مودعاً للحقيقة الإلهية وتنظر إلى كل وثنى وكأنه عميل للشيطان . لذلك بدت لها فكرة المساواة مع الوثنية مسبة ليس بعدها مسبة ، ولم تخضع لها إلا مضطرة كارهة . وعلى أى حال ، فلم يكن هناك داع يدعوها إلى أن تكف عما دأبت عليه من امتصاص لباب العقائد الوثنية وإفراغها منه ، مادامت تجد فى ذلك صلاح أمرها . وكانت الدولة من ناحيتها لا تستطيع التخلص من التقليد القديم الذى يفرض الارتباط بين الوطن وبين الدين . وكذلك كان الصالح العام يبدو وكأنه يستلزم سيطرة الحكومة التامة على الخلافات التى لابد لها من أن تنشأ عن تنازع الأديان ، وأن يكون عدم تحيزها مرتبطاً بحياد مطلق . غير أن الحكام لم يكونوا محايدين ، بل لم تلبث قوى المسيحية ، التى ضاعفها الانتصار ، أن جرفتهم فى تيارها وملكت عليهم أمورها ؛ وأغراهم رجال الاكليروس بالتدخل فى شئون الكنيسة الخاصة رغم معارضتهم بعض المعارضة ، وحصلوا منهم على امتيازات عديدة ، وأشركوهم فى الاهتمام بنجاح دعوتهم .

ومنذ نهاية عهد قسطنطين أصبح من المحتمل وقوع الاتحاد بين الكنيسة

والدولة ، وتغلب المسيحية التام على الوثنية ، والقضاء على الثانية برضاء الدولة ، بل بمساعدتها إن اقتضته الظروف ذلك . إلا أن هذا الأمر الذى تم تحقيقه خلال القرن الرابع ، تأخرت بعض مراحله : ولم يكن السبب فى ذلك راجعًا إلى الكنيسة التى لم تلبث أن تعودت وجوب معاونة الدولة لها فى معركتها ضد البدع والوثنية ، غير مدركة أنها كانت تدفع بنفسها إلى طريق الخضوع هى الأخرى لسلطان الحاكمين المطلق ؛ ولكن التأخر أتى من تولى بعض الأباطرة — أمثال جوليان الذى كره المسيحية ، أو فالنتينيان الذى أراد فى إخلاص حفظ التوازن بين المسيحية وبين الأديان الأخرى — فقاوموا تيارها المندفع . وفى عهد تيودوز وصلت المسيحية إلى نهاية الشوط من أغراضها ، إذ أصبحت دين الدولة الوحيد ، وذلك بفضل جهود القديس أمبرواز أسقف ميلانو وهو أول رجل عرفته الكنيسة [1] .

ولا شك أن الوثنية لم تتلاش دفعة واحدة ، ولكنها لم تظهر سوى مقاومة هزيلة غير منسقة أمام هجمات الكنيسة المتوالية فى انتظام ، وأمام الحماس الصاخب لدى بعض الأساقفة والقسس الذين خصصوا كل حياتهم لمطاردتها أنى وجدت . وضعف أمر الوثنية لأنها فقدت تأييد الحاكمين فافتقرت إلى القيادة الموحدة وتشتت أنصارها فرقاً اختصت كل واحدة منها بعبادة معينة ؛ ثم صنعت أيضاً ، وعلى الأخص ، لأن أكثر أنصارها عنادًا كانوا يختلفون فى نظرتهم إليها اختلافاً كبيرًا فى غالب الأحيان ، فلا يشعرون بروح التضامن فيما بينهم عند محاولة الدفاع عنها .

وكانت الطبقات الأرستقراطية فى المدن الرومانية القديمة ، وعلى الأخص

(١) انظر كتاب بواسيه : « نهاية الوثنية » ، المطبوع بباريس عام ١٨٩٤ فى جزأين .

روما نفسها ، تتعلق بالشعائر العملية من أديانها أكثر من تعلقها بالمعتقدات ذاتها ، معتبرة أن تلك الشعائر عنصر من عناصر التقاليد العائلية الموروثة لا يمكن فصله عنها . ولم يكن الإعجاب بماضى الوطن واحترامه ليقعا حقيقة إلا فى الإطار نفسه الذى شاهد وقائع هذا الماضى المجيد . وكانت هاتان العاطفتان تشكلان نوعاً من الديانات القوية ، إذ كانتا مرتبطتين بشرف النسب وشرف سلالة أبطال العهود الماضية ؛ ثم كانتا ، فى حد ذاتهما عاطفتين جديرتين بالتقدير ، ولا يمكن النيل منهما مباشرة . هكذا مثلا كنا نرى أميرًا مثل توكسوسيوس ، الذى تزوج من باولا ، يؤمن بأنه يجب عليه التمسك بوثنيته لزعمه الانتساب إلى إينيوس جد الرومان .

وكانت جوانح الكثير من هؤلاء الأرستقراطيين تنطوى على عقيدة تبلغ من العمق والإخلاص مبلغاً بعيداً . وقد عبر عنها أحدهم ، وهو المحافظ سماك ، فى تقرير له يطلب به ، عام ٣٨٤ ، إعادة إقامة تمثال قديم لآلهة النصر كان الإمبراطور جراسان رفعه فى العام السابق من قاعة اجتماعات مجلس الشورى الرومانى . وتلك العقيدة هى القائلة بأنه من الخير للناس عدم التنكر لتقاليد دينية أثبت الزمن فاعليتها . وكان سماك يشرح فى تقريره المذكور كيف عاشت الجمهورية حياة خصب وازدهار فى ظل آلهة الأجداد ؛ ثم كيف طرأت عليها الفتن والمحن وتهددتها المخاطر عندما ضعف إيمان الناس بآلهة وطنهم . وهذا برهان ضعيف المنطق ولا شك ، إلا أنه كان برهانا عاطفيًا لا يحتاج إلى قوة المنطق ليقنع الناس . فلما استولى ألاريك على روما عام ٤١٠ ، ارتفعت من صفوف الوثنيين الذين حافظوا على قوميتهم صرخة قوية ضد المسيحية ؛ وحاول القديس أغوسطين بكل جهده أن يهدئ من آثار تلك الثورة ، وكتب فى سبيل ذلك

مؤلفه المعروف « مدينة الله » .

ولنضف هنا أن المبدأ الأصيل فى المسيحية ، مبدأ المساواة ، لم يكن ، مهما اتخذ من حيلة فى مراحل تطبيقه ، لم يكن ليغرى فى قليل أو كثير رجالاً حافظوا على شىء من الاعتداد القديم بـ « العائلات » المؤصلة الكبيرة ؛ وكانت إطاعة الأسقف « الذى قد يأتى من أدنى طبقات الناس » ، بالنسبة إليهم ، أمرًا عجبًا .

غير أن هذه المقاومة انهارت شيئًا فشيئًا لأسباب عدة ، منها : أن طوائف الأرستقراطية . وأعنى بذلك أنها كانت تظهر إعجاباً ، تتغلب فيه أمام تنكر الحاكمين المتزايد لأصحابها ؛ وأن الإيمان بالتقاليد الموروثة أيسر انهزاماً فى النهاية من العقيدة الدينية الحقيقية – ولم تعد مثل هذه العقيدة الدينية الوثنية توجد لدى هؤلاء الأرستقراطيين إلا بصفة استثنائية[1] ؛ ثم إن محن الدهر ، وخاصة خلال القرن الخامس ، دعت بالكثير منهم إلى حياة الزهد ، تلك الحياة التى تتفق كل الاتفاق مع المسيحية وإن لم تختص بها ، والتى ازدهرت ونمت خلال ذلك العصر بالذات فى صورة الترهب ؛ وأخيرًا : فإن السيدات من طبقة النبلاء لم يلبثن أن جذبتهن إليها روح التصوف والزهد التى شرحها لهن رهبان امتازوا بالحماس وحسن الحديث . وإنا لنجد أسمى الأمثلة من المسيحيين بروما ، حوالى نهاية القرن الرابع ، فى شخصيات : ميلانى ، وياولا وبناتها ؛ وكن من صفوة سيدات المجتمع الرفيع ، دفعهن إيمانهن الملتهب إلى الابتعاد عن

(١) وإنا لنرى أن أجدر هذه الاستثناءات بالاهتمام هو المثل الذى تعرضه علينا شخصية برتيكستاتوس ، وكان موظفا من كبار الموظفين خلال النصف الثانى من القرن الذى نتحدث عنه ، وعالماً مقتنعاً بعلم اللاهوت ، وقسا مخلصاً لعبادات متعددة .

هذه الحياة الدنيا ليعشن حياة الزهد ثم ليرحلن فى النهاية إلى فلسطين ، الأولى برفقة الراهب روفين ، والأخريات يصحبهن الراهب جيروم .

وبالإضافة إلى أرستقراطية الدم ، كانت هناك أرستقراطية الفكر التى رفضت رفضاً طال أمده أن تنضم إلى المسيحية ، بل تظاهرت بتجاهلها لهذا الدين فى كثير من الأحيان . وكان الإيمان بالتراث الهيلينى يحل لديها محل التقاليد العائلية التى اعتمدت عليها الطائفة الأولى من الطوائف الأرستقراطية ، إن لم تنتظم فى حزب سياسى ، فلا قوة لها العاطفية على الروح الجمالية ، بالأدب والفكر اليونانى . ولما كانت الثقافة الهيلينية فى الواقع مشربة تماماً بالوثنية ، فلا غرو أن بدت لهم مرتبطة ارتباطاً لا انفصام له بالاحترام التقليدى للأساطير القديمة وآلهة الأجداد . وعلى أى حال فإن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة كانت قد تطورت – تحت تأثير بورفير وجامبليك على الأخص – إلى نوع من التأليف الواسع النطاق ، تتجاوز فيه الميتافيزيقا مع علم اللاهوت وتعاليم « الأسرار » ، فييسر للفكر جميع الأساليب اللازمة لتفسير الأساطير أو الإعلاء من مفهوم الآلهة . وإن « الأسرار » نفسها ، التى لم تنقرض العبادات الخاصة بها ، قد أضفت على هذا التأليف المتسع الأبعاد عاطفيتها الحسية وآمالها وسلواها . غير أن وفرة العناصر الخصبة تؤدى فى بعض الأحيان إلى الخسران عندما ينوء كاهل الإنسان بكل تلك المفاهيم فلا يستطيع التمتع بها إن لم يسيطر عليها . وفى حالتنا هذه : اختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يميزون بين العدد العديد من التصورات ، والعقائد والنظريات ، والرموز ، والعبادات العملية ، والتقاليد ، ولم يقدروا على جمعها فى دين واحد صحيح . وقد حاول البعض ذلك ، مثل الإمبراطور جوليان ، فلم يصلوا إلا إلى ضرب من ضروب التقوى الشاملة ، لا

نشك فى إخلاصهم لها ، ولكن لا مناص لنا من وصفها بالغموض والإبهام وبأنها كانت تقوى شخصية فحسب لا يمكن القيام بنشرها بين الناس ، حيث كان كل فرد يختار من المادة الدينية المتراكمة أمامه ما يناسب مزاجه ، ليصنع منه الدين الذى يراه . وأقصى ما وصل إليه الأمر كان إنشاء « مدارس » فلسفية . ولكن تلك المدارس لم يكن لها من الانسجام ولا من التهاب الإيمان المنتشر ما كان للكنائس المسيحية . لذلك لم يلق الإمبراطور جوليان أى قسط من النجاح عندما حاول خلال عهده القصير (من عام ٣٦٠ الى عام ٣٦٣) ، أن يحيى العبادات القديمة .

وكان « المرتد » (أى جوليان) ، تقيًّا مخلصًا لتقواه ، وهيلينيًّا متعصبًا للتراث اليونانى ، ولكنه كان بعد ذلك فيلسوفاً غامض الفكر ، لا تستطيع نظرياته التأليفية أن تفرض نفسها كعقيدة قوية ، وهى التى جمعت من أشتات لا انسجام بينها حول عقيدة تأليه الشمس باعتبارها مركز الكون . وقد عبر بنفسه فى حماس دافق وفى شىء كثير من البراعة الفكرية عن كراهيته العنيفة لـ « الناصريين » . إلا أن روحه السفسطائية كانت قاصرة عن لم شعث معتقداته فى صورة يستطيع بها القضاء على التفكير المسيحى ؛ وكذلك كان تدبيره السياسى قاصرًا ، برغم جهوده المتعددة ، عن استخلاص كنيسة كبرى وهيئة إكليروس قوية من بين أشتات رجال الدين والعبادات المتباينة فى كل تلك الديانات التى أراد توحيدها ؛ بل اضطرته الظروف إلى محاولة تأسى خطى المسيحية ، ولكنه لم يبلغ فى ذلك شوطاً بعيدًا ؛ إذ كانت ديانة المسيح فى ذلك الحين قد انتهت من تأليف جميع العواطف الدينية الحية والتقاليد التى تفترضها ، وأصبحت هى المعبرة الكبرى عنها . لذلك يمكننا القول بأن محاولة

جوليان قامت فى زمن غير مناسب لها ، وأنها لم تتصف بالذكاء ، وإن صاحبها الإخلاص فجعلها جديرة بالتقدير . وقد تظاهر موظفو الإمبراطورية باحترام اقتراحات الحاكم الذى كان يشكو قلة إخلاصهم . أما المسيحيون فقد صمدوا له وتمسكوا بدينهم . ولكن الوقت لم يسمح لجوليان بالرجوع إلى وسائل القسر والقمع التى استخدمها ديوكليسيان ، ولا نشك أيضًا فى أنه كان عازفاً عن تلك الوسائل . لذلك لم يصب الكنيسة منه سوى بعض مضايقات غير ذات شأن ، وإن لم يقتصد رجالها فى إظهار كراهيتهم له والحمل عليه فى عنف عنيف .

وإنا لنرى الثقافة الهيلينية تضعف يوماً بعد يوم ، إذ لم تعد تنتج للناس إنتاجها السابق القوى ، وأصبحت تعيش على الماضى ؛ ثم لأن العقيدة المسيحية راحت تمتص فى صبر كل جوهر ظل حيًّا للفكر اليونانى . وكلما ازدادت هذه الثقافة ضعفاً ، كلما تلاشت مقاومة المفكرين فأقبلوا على اعتناق المسيحية . وكان جدلهم فيها من قبل ، ذلك الجدل الذى لم يهتم بأمره سوى أصحاب الثقافات الرفيعة ، يلجأ مضطرًّا إلى الأساليب الهادئة حتى لا يثير غضب السلطات الحاكمة ؛ وكان لا جدوى فيه أمام « وباء » الإيمان المنتشر ومدافعة المسيحيين المتعددة الجوانب فى توثبها الدائم . وظهرت ، خلال القرن الرابع والقرن الخامس ، مؤلفات جدلية لتدعيم المسيحية لا حصر لها تهدف إلى هدم كل ما يأتيه أصحاب الوثنية من برهان . وإننا لا نجد بين طياتها براهين أقوى أو أضعف من تلك التى قدمها المشركون ، إلا أنها امتازت بتجنب الوقوع فى مواقف التخلف ، وبمسايرة ظروف العصر ومقتضياته : فقد زعم المسيحيون المحافظة على كل ما يجدر المحافظة عليه من تراث الماضى فى سائر المجالات ، ولكنهم بعد ذلك وضعوا هذا التراث فى إطار التيار الدينى الأكبر والعاطفة

الإيمانية العامة ، وهما التيار والعاطفة اللذان لم يكن لهما بد من أن يجرفا رجال هذا العصر بين ثناياهما .

وجاءت أكثر ألوان المقاومة عنادًا من أهل الريف[1] المتعلقين بآلهتهم المحلية الصغيرة الخاصة بهم ، وبتقاليدهم العتيقة التى يدعمها إيمانهم بالسحر . وكان جفاء طبعهم الفطرى عاملا خطراً فى محاولات تبشيرهم ، بل كان من العسير إقناعهم إلا إذا استثيرت عقولهم بأعمال عنف جريئة ضد معابدهم وأصنامهم أو أشجارهم المقدسة وينابيعهم السحرية . وبعد أن انتشر الإيمان فى المدن ، وجد أن عونه الأكبر فى المناطق الريفية يكمن فى تلك الأديرة التى أنشئت فى مراكز تيسر لها العمل المباشر النشط ، وفى الكثير من الأحوال فرضت المسيحية نفسها عن طريق التسرب اليومى البطئ المترتب على الصلات بين المدينة والقرى ، وفى بعض الحالات الأخرى ، اتسم انتشارها بأعمال مفاجئة مثل تبشير قرية بأكملها أو مجموعة قرى فى يوم واحد ، وكانت فى غالب الأمر تسير على أسلوب « الأبدال » ، أى تحول لصالحها من الأساطير والخرافات السائدة ، معتمدة على عبادة القديسين لديها ، تلك العبادة التى يسرت كثيرًا من مهمتها التبشيرية : فتقيم تماثيل قديسيها محل الشخصيات الإلهية الصغيرة التى اعتادها الفلاحون وأحبوها حبًّا جمًّا لاعتقادهم بأنها تؤدى لهم العديد من الخدمات اليومية التى يطلبونها منها ، وهكذا بدت القرى وكأنها آخذة بأهداب المسيحية ؛ وتقدم العمل التبشيرى فيها كثيرًا فى نهاية القرن الخامس .

---

(١) كلمة « باجانوس » اللاتينية تعنى أصلا : « رجل الريف » . وقد أثبتت الأدلة أن عداء أهل الريف للمسيحية كان السبب فى تحول معنى كلمة « باجانوس » هذه من « رجل الريف » إلى « الوثنى » . ويبدو أن المعنى الأخير للكلمة نشأ فى النصف الأول من القرن الرابع وانتشر خلال النصف الثانى منه .

وعلى أى حال ، فقد كان من الممكن ، منذ البداية ، التنبؤ بما آلت إليه معركة العقائد التى ثارت فى الربع الأخير من القرن الرابع .

والنجاح الدائب للإيمان المسيحى فى المدن الكبرى والأوساط الرسمية ، وتنظيم الكنيسة فى مواجهة الأشتات المتفرقة من أعدائها ، ثم – وعلى الأخص – ذلك الحماس الحى الذى حملته المسيحية بين طياتها والديانات الوثنية القديمة تسير مندفعة فى طريق الفناء ، كل ذلك لم يكن سوى مجموعة من الظواهر تعلن انتصار الدين المسيحى وتمهد له .

الفصل الحادى عشر

معنى الانتصار

(ا) ثمن انتصار المسيحية – الكنيسة هى المنتصرة – الانتهاء من تنظيم الأكليروس – نمو الكهنوتية وعلم اللاهوت – الأرثوذكسية والخلافات العقائدية – التيارات التأليفية فى المسائل الأساسية والتأثيرات الشكلية – أثر البسطاء من الناس – الرهبنة ودورها – المراحل الأولى فى التطور المسيحى : المفارقات وعناصر الدوام .

(ب) كيف انتقل أمل المسيحية الأول إلى مستوى جديد – نتائج ذلك – كيف زاد الانتصار من خطر هذه النتائج – كيف يمكن القول إن الانتصار ليس إلا ظاهريًّا – مسئولية الكنيسة – الكنيسة تصبح عنصرا من عناصر الدولة الرومانية – وراثتها لهذه الدولة فى القرن الخامس – المزايا المادية التى جنتها والعقبات الفكرية – كيف تغلغلت فى الكنيسة فكرة التمييز بين « المؤمن » وبين « الكامل » ، وكيف أصبحت واقعاً ملموساً – أهمية ذلك من الناحية العملية .

(حـ) انتصار المسيحية من وجهة نظر تاريخ الأديان – الغرب أمام المسيحية الأولى – كيف تمثل هذه المسيحية نوعاً من التأليف الذى نشأ من تطلعات الشرق الدينية – منافسو المسيحية : مبشراً ، الأفلاطونية الجديدة ، المانوية .

(د) الأديان الثلاث التى تقابلت فى القرن الرابع – أوجه التشابه بينها – ضعف الأفلاطونية الجديدة من الناحية العملية – مركز المانوية وثباتها النسبى – لماذا حرت الدولة الرومانية المانوية – كيف استطاعت الكنيسة أن تواجهها وتنتصر عليها – استمرار وجود الأفلاطونية الجديدة والمانوية بعد انتصار المسيحية – أثرهما فى المستقبل .

(١)

كان هذا الانتصار ، الذى يشهد به على الأخص تحول الدولة الرومانية إلى الدين الجديد فى القرن الرابع ، مرحلة هامة من مراحل تطور المسيحية . والواقع أن المسيحيين كانوا قد دفعوا ثمن الانتصار ، دفعوه غالياً ، بحيث نستطيع القول فى شىء كثير من الجزم ، بأن مؤمنى عصر الحواريين لم يكونوا لينظروا إلى هذا الانتصار ، لو قدر لهم ذلك ، إلا على أنه نكبة كبرى . وعذر مسيحيى عهد قسطنطين أنه لم يكن بيدهم اختيار الظروف والشروط .

والنظرة الأولى إلى أحوال المسيحية تكفى لأن تبين لنا أن الانتصار على عداء الدولة ودفعها إلى اتجاه جديد ، لم يكونا من نصيب أتباع المسيح حقيقة وإنما كان من نصيب حكامهم ، أى الكنيسة . وأن تلك الامتيازات التى تمتع بها المؤمنون عامة على أعقاب الحل الوسط الذى اتخذه قسطنطين ، لم تأتهم سوى نتيجة لاتفاق بين قوتين ، بل بين حكومتين ، تبحث كل منهما أولا وقبل كل شىء عن مصلحتها الخاصة .

وانتهى الأكليروس ، وقد اطمأن للمستقبل ، من إنشاء تنظيماته خلال القرن الرابع . وكان لإقامة الأساقفة المركزيين والبطاركة أثراً ملموساً فى تنسيق التدرج الوظيفى بالكنيسة التى اتجهت بذلك شيئاً فشيئاً نحو الملكية البابوية . كما كان لعقد المجالس والمؤتمرات الكنسية المتعددة أثره فى تدعيم وتوضيح مفهوم « الكاثوليكية » [1] للإيمان لدى هذا الأكليروس ، وسمح له فى نفس الوقت

---

(١) بمعنى « العالمية »

بتوحيد نظمه وتوسيع أبعاد عقائده أكثر فأكثر . وسارت تلك الهيئة المسيحية الكبرى بدفعة هائلة من النشاط ، فبدت وكأنها تجذب إليها لتستوعب كل ما احتفظ به العالم الوثنى من جوهر حى ؛ وحتى الطقوس والمراسم ، التى اتشح بها الأكليروس وازدان ، نراها تتضخم وتزداد بريقاً ، فهى قد تبنت كل زخارف العبادات القديمة التى لا تتنافى تمام المنافاة مع مبادئ الإيمان الأساسية .

ومن زاوية أخرى ، نلحظ أن الكنيسة المسيحية - وهى الممثلة للشعب المسيحى كله بالنسبة إلى الدولة - تميل إلى تشكيل تنظيماتها الإدارية على غرار تنظيمات الدولة نفسها ، وإلى اتخاذ الإطارات الرسمية حدوداً لها ، بل نلحظ أنها توشك أن تكون واحداً من الفرعين الأساسيين للإدارة العامة ، مع حفظ حرياتها وامتيازاتها المكتسبة التى تستطيع الدفاع عنها عندما تقتضى الضرورة ذلك . وتنمو روح الحكم فيها كما تنمو الأجهزة الإدارية ، تحت تأثير الطمع ، الذى لم يكن منه بد ، فى الوظائف من كل جنس ، وكرد فعل لما حققته من مكاسب فى صفوف الأرستقراطية ؛ وبذلك نزعت إلى الانفصال يوماً بعد يوم عن جمهور المؤمنين البسطاء ، وإلى التدخل المتزايد فى التدبيرات السياسية . إلا أنها باتخاذها هذه الوجهة ، لم تفقد استقلالها فحسب ، بل تشربت شيئاً فشيئاً بمشاغل الحياة الدنيا ، حتى أبهمت عليها فى بعض الأحيان مفاهيم رسالتها وأسباب وجودها .

وإن الشيء الذى يثير بادئ ذى بدء انتباه أى باحث فى مجال انتصار المسيحية ، هو أولا : قوة الوظائف القدسية وسيطرتها ، إذ يتبين له أن حياة كنيسة المسيح جميعها قد انطوت عليها ضمائر الأساقفة ، ثم هو ، ثانياً : نمو علم اللاهوت نمواً هائلا . ولقد ظل الفكر اليونانى خميرة لكل نظريات هذا العلم ،

يؤثر تأثيراً قويًّا على الإيمان ، كما أثرت روح العصر على العادات والتقاليد وكما أثرت الدولة على الكنيسة . فالمسيحيون ينهلون من ذلك النبع الدافق للأفكار الميتافيزيقية سواء بطريقة مباشرة : فى كتيب فلاسفة الأفلاطونية الجديدة الذين يتتبعون خطاهم وإن أظهروا لهم الاحتقار ؛ أو غير مباشرة : فى كتيب أوريجين الذى أعجب به البعض على حين لعنه الآخرون والذى استغله أعداؤه المثقفون مثلما استغله أنصاره . فالقرنين الرابع والخامس حافلين إذن بوقائع أعجب نزاع بين العقائد التصاعدية التى راحت تتقاطع أو تهدم بعضها البعض أو تلتقى فى تآلف ، بينما ذهب تفكير مجموعة من كبار العلماء ، وسط هذه المعمعة الحامية الوطيس ، إلى محاولة إرشاد المترددين والجهال . نجد الصراع مثلا يدور حول مشكلة تحديد العلاقة الطبيعية بين الابن والاب فى نطاق الثالوث ، أو مشكلة الصورة التى بها تنسجم الخصائص الإلهية مع الخصائص البشرية فى شخصية المسيح التى انطوت على كلتيهما ، أو مشكلة أحقية مريم العذراء فى لقب « أم الله » . وكانت الأرثوذوكسية ، فى الواقع ، هى ذلك الرأى الذى تجمع عليه الأغلبية من أعضاء المؤتمرات الكنسية . غير أن هذه الأغلبية لم يكن لها فى أكثر الأحيان من القوة ما تستطيع به أن تفرض حلا سريعاً حاسماً على سائر الكنائس ؛ ولم تكن قراراتها عادة لتثبت إلا بعد ألوان مختلفة من القلق ، يجد لها بسطاء الناس أصداء خبيثة فى أنفسهم وهم الذين يؤمنون – كما نعلم – بأن الحقيقة واحدة وخالدة ، أى ، بالتالى : ثابتة لا تتغير .

والجديد فى هذه الخلافات العقائدية ، التى ثارت القرنين الخامس والسادس ، لم يكن الاختلاف فى حد ذاته ولا أصالة الموضوعات التى طرحت للبحث . فالاختلاف كان ، خلال القرون الثلاث الأولى ، شرط تقدم الإيمان

وغذائه ، كما كانت الكثير من المسائل التى أشرنا إليها مادة للبحث منذ زمن بعيد . إن الجديد فى الأمر ليس هذا ، وإنما هو : اتساع أبعاد الصراع وعنفه ودوامه . فالمنطق كان يعرض المشاكل المتوالية التى تنبع كل واحدة منها عن الأخرى . والواقع أن تلك المرحلة التى نعرض لها كانت مرحلة حتمية فى تطور العقيدة المسيحية التى لم يوفهاالقرن الثالث حقها من البحث ، فلم تكتف بها حياة الإيمان السائرة بطبعها إلى الأمام قدماً . وكان لابد من الاختبار فى مجالات متعددة بين نزاعات متباينة لم تتحدد بعد كل التحديد ، بل هى مختلفة كل الاختلاف . وكلما حاول القوم فحص معالمها وتحديدها ، ثارت النزاعات . وكلما ازدات أهمية الموضوع ، حمى وطيس الخلاف وبلغ من العنف مبلغه . وعلى أى حال فقد كان الأمل فى الوصول إلى الوفاق يبعد يوماً بعد يوم بتراكم التعقيدات فى مجال النظريات العقائدية . ولم يكن شيئاً غريباً على الناس أن يفقد المتنافسون كل اتزان فى العمل والحديث : وإنها لصورة غريبة حقًّا تلك التى نلمحها من خلال دراستنا لتطورات الخلافات الخاصة بـ « الأريانية » أو بـ « المونوفيزية » . وإن رجالا من أمثال أوزيبيوس النيكوميدى ، أو الإمبراطور قنسطانس المسيحى ، أو أساقفة الإسكندرية الثلاث الذين امتازوا بالعنف الشديد : تيوفيل وكيريللوس وديوسكور ؛ هؤلاء الرجال لا تبعث سيرهم على الإيمان بأنهم ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بوصية الإنجيل الكبرى التى رأى فيها عيسى – على حد ما يروى – كل « شريعة المسيحية » ، وبالتالى – على ما نعتقد – كل لاهوتها ؛ وتلك الوصية هى : أن يحب المرء قبل كل شىء إلهه وأخيه .

ولكأن الكنيسة فى هذا العصر راحت تستخدم فى النيل من نفسها بنفسها كل القوى التى لم تعد الاضطهادات تجبرها على استخدامها لتأمين حياتها . . .

ولكنها كانت فى الواقع تمر بأزمة نمو ، سوف تنبثق منها الأرثوذكسية فى النهاية ، تلك الأرثوذكسية التى دعمت انتصار الجماعة على الفرد وشرعت باسم الله التعصب اللازم لذلك . وإن علم اللاهوت ، وهو الذى اختص بالمعانى البالغة الغموض وبأساليب التوفيق ، ليتغذى من كل هذا الجدل فيتخذ فى رحاب الكنيسة مكانة هادئة ، ويدفع الدين إلى أن يصبح اختصاص علمائه ويفرض ذلك بقوة ، فتضعف العاطفة الدينية ؛ وتصبح الإنشاءات الفردية بالبدعة والضلال . ومنذ ذلك الحين هيمنت النظريات المدرسية على الإيمان . وإن هذا لأمر أساسى فى تاريخ الحياة المسيحية .

وعلينا بعد ذلك أن نذكر مسألة هامة ، وهى : أن المناقشات العقائدية الكبرى التى ثارت خلال هذين القرنين وعكرت صفوهما ، قد نمت جميعاً فى الشرق . أما الغرب فلم يفهم لها مغزى ؛ ولم يهتم بها أو يأخذ نصيبه منها إلا عندما بدت وكأنها تهدد الوحدة الكاثوليكية أو تضرب « سنة الحواريين » . ولم يلتفت الناس فى غرب الإمبراطورية إلا لمشاكل عملية ، مثل : ماهية تكوين الطبيعة الأخلاقية للإنسان والنتاج المأمول منها ؛ وماهية الإثم ووسيلة الخلاص منه ؛ وماهية العون المأمول من الفضل الإلهى ومدى ضرورته لنجاة الإنسان ؟ وهل الإنسان حر فى إرادته أو هو خلق ليريد ما أراده الله ؟ . . . وقد نبعت البدعتان اللتان أطلق عليهما « البريسيليانية » (فى القرن الرابع) ، و « البلاجيانية » (فى القرن الخامس) ، من هذه التساؤلات التى اختصت بالجانب الأخلاقى أكثر منها بالجانب اللاهوتى .

ومع ذلك فقد راحت فكرة الكاثوليكية تفرض نفسها فى وضوح يزداد يوما بعد يوم ؛ وذهبت إلى تدعيم القول إنه لا يوجد هناك سوى « إيمان واحد » ،

تماماً كما لا توجد سوى كنسية واحدة . وبالتوازى مع ذلك تأكدت أكثر فأكثر الفكرة القائلة إنه لا نجاة للإنسان خارج هذه الكنيسة ، وأن عليه أن يأتيها لا مستسلماً خاضعاً خضوع الابن المختار ، ومؤتمراً بتوجيهات سلطاتها الرشيدة فحسب ، بل أيضاً وهو مقتنع بعقيدتها اقتناعاً داخليًا كاملا . ومن الواضح أن تلك العقيدة التى سارت فى طريق التقنين والتحديد شيئاً فشيئاً فى تردد وقلق وبين الخلافات العنيفة ، من الواضح أنها لم تزل فى طور عملية التأليف اللاهوتى ، أى : تطعيم معطيات إيمان الحواريين بمفاهيم دينية وفلسفية مختلفة الأسس استعيرت من البيئات المتباينة التى عاشت فيها المسيحية ؛ ثم : محاولة التوفيق بين أطراف النظريات بواسطة مجموعة من البراهين قريبة من براهين السفسطائية الإغريقية ، تكسى بعبارات تتفاوت درجة البراعة فيها وإن كان غالبها ، فى حقيقة الأمر ، لا يغنى ولا يشفى غليلا . وإن تلك لهى الظاهرة التى يتمثل فيها بوضوح تأثير طبقات أرستقراطية الفكر من مثقفين وفلاسفة ، التى دخلت المسيحية ، فلم تتخل إذ دخلتها – كما سبق أن أوضحنا ذلك – عن جوهر بل وعن أساليب وأشكال التفكير الذى درج عليه أصحابها حتى تحولهم هذا . ولقد حاول الدارسون فى السنين الأخيرة من عصرنا ، ووفقوا كل التوفيق فى محاولتهم ، أن يبينوا كيف كان كبار المؤلفين المسيحيين من اليونانيين ، خلال القرن الرابع ، يفكرون ويبرهنون ويتحدثون ويكتبون حسب قواعد وطرق وعادات البلاغة الوثنية ، التى كانت تلقن فى مدارس العالم اليونانى . بل إنه لمن العجب العجاب أن نتبين من خلال الدراسات الحديثة كيف كان هؤلاء المؤلفون يخضعون خضوعاً مطلقاً لنفس القشور الزائفة التى صرحوا فى كل مناسبة باحتقارهم وإنكارهم لها : فالمادة التى استغلوها فى سبيل تطويع المسيحية

لمتطلباتهم الفكرية لا تختلف فى أصلها عن الشكل الذى عبروا عنها والذى لم يستطيعوا التخلص منه ؛ فكلاهما ، أى الشكل والمادة ، يرجع أساساً إلى المدارس الفلسفية التى تعودوها من قبل .

غير أن تحقيق الأمر إلى أن جمهور المؤمنين البسطاء وإن خضعوا ظاهريًّا لرجال الإكليروس لديهم وأبدوا استعداهم ليتلقوا عنهم قواعد الإيمان . لم يكونوا فى الواقع على تلك الدرجة من السلبية التى طفت بهم . بل إن الأمر أخطر من ذلك : ففى الحياة الدينية لهؤلاء المؤمنين البسطاء يجب البحث عن أغلب التطورات التى مرت بها المسيحية . لقد كانوا رجالا لا يميلون إلى اعمال الفكر والمنطق ؛ ولا يبالون بألوان التعارض بل بالخرافات التى تقابلهم ؛ رجالا أخذت الإحساسات والعواطف منهم كل مأخذ ، فنزع إيمانهم الفطرى الدافق فى قوة لا تقهر ، إلى طلب الإضافات والإعلاء ، وإلى التهويل فى تصوير الموضوعات وتنميتها من حيث الكم . ولم يكونوا يقدرون على الخلاص من إيحاءات الوسط الذى يعيشون فيه ، ولا على التخلى فى حياتهم عن تراثهم العتيق . ولما كانت سائر أوجه معيشتهم لا تزال مشبعة بالوثنية ، فقد طلبوا الإضافات والإعلاء من الوثنية ، ومن تقاليد الأجداد ، ومن الطقوس القديمة البالغة القدم حتى لكأنها جزء لا يتجزأ من مجتمعهم ، ومن المعتقدات والخرافات التى لازمتهم فى كل زمان فلم يعودوا يميزون بينها وبين تفكيرهم الدينى الخاص ، وإرادات مذاهبهم التأليفية فى آن واحد : أن يكون عيسى هو الله وأن يظل الله واحداً ؛ ونشأت عنها الأساطير التى جعلت من مولد المسيح وحياته أكثر المعجزات إعجازاً ؛ ثم هى قد أقامت بعبادتها لمريم العذراء حقيقة جديدة مكنتها من الإيمان إلى جانب عبادات القديسين ، فأصبح الأمر أشبه شىء

بالدين المتعدد الآلهة ، تغذيه أساطير الوثنية فى كثير من الأحوال . ولم يكتفوا بذلك فى تأليفهم ، بل آمنوا فى سذاجتهم بأنه لا يجب البخل بشىء فى سبيل تجميل صورة الله ، فرغبوا فى أن يستعيدوا روعة الاحتفالات .

أما إن وجد علماء اللاهوت أنفسهم فى مأزق من جراء ذلك الحماس الوثنية بين رحاب « بيت السيد » ؛ رجعوا إلى كل سَحر « الأسرار » ، بل إلى سحر « الأورفيه » ، مطمئنين ، كدأبهم لفاعلية الحركات والعبارات السرية التقليدية .

الإيمانى لدى الشعب ، فهذا من شأنهم ؛ ومهمتهم هى الخروج من أمثال تلك المآزق ، وبالكشف ضرورة عن الحلول الوسط أو سبل الوفاق اللازمة لتطويع المعتقدات وتطويرها فى الاتجاه المناسب .

وعلى أى حال ، فإن إيمان العامة قد وجد منذ القرن الخامس وسائل للتعبير بلغت الغاية من الفعالية ؛ ذلك أن الرهبان تكاثروا خلال هذا القرن وانتشروا بالبلاد ، ولم يكونوا جميعاً بطبيعة الحال من أبناء الشعب ، بل نرى الأديرة تجذب إليها عدداً وفيراً من النفوس الرقيقة التى راعت الحياة الدنيا أو مزقت عواطفها ، وتغرى الكثير من طلائع المسيحيين المثقفين الذين أدركوا – فى وضوح تتفاوت درجاته – أن الأخلاق الإنجيلية التى يحملونها بين جوانحهم لا تتفق تماما مع مقتضيات الحياة على هذه الأرض ، وأن المسيحية التى اكتفى بها الناس عامة ليست هى مسيحية عيسى . غير أن أولئك وهؤلاء لم يكونوا سوى أقلية قليلة بين صفوف جيش الرهبان العرمرم ؛ وكانت تقواهم الملتهبة ، من ناحية أخرى ، ترحب ترحيباً تلقائيًّا – وهى الباحثة دائماً عن وسائل تجنب الخطيئة – بالإضافات المترتبة على إيمان البسطاء ، تلك الإضافات التى يجدون فيها السلوى والنشاط المتجدد ، بل أحياناً : التأييد والتشجيع

والعاطفة المكملة لتطلعاتهم . فكان القديس جيروم مثلا ، وقد أضنته ثورات جسده فراح يبحث عن وسيلة للانتصار عليها بتعذيب نفسه وبالتقشف ثم بالتأمل فى سر عذرية مريم ، كان هذا القديس لا يكتفى بقبول فكرة العذرية على الصورة المطلقة التى لقنها إياه إيمان العامة فى تأكيده بأنها صفة ملازمة على الدوام لأم عيسى ، لم يكتف بهذا ، بل فرض بالتوازى عذرية يوسف المطلقة .

كانت جمهرة الرهبان الغالبة تأتى من أبناء الشعب . وكانوا ، بين جدران أديرتهم ، يجمعون فى رصيد واحد عواطفهم الدينية المشتركة ، ويستثمرونها فى نشاط بالغ . وكانوا يتمتعون بنفوذ قوى بفضل تجنبهم لكل ملذات الحياة ، ويمتازون بحيوية عنيدة بل عنيفة ، فى المواقف العقائدية التى يتخذونها . واتصف أغلب ذوى الشهرة منهم بسمو أخلاقى حقيقى فاض فضله على الجميع لأن قانونهم كان يسوى بين الجميع . وقد أدى كل ذلك إلى تدعيم سلطتهم لدى عامة المؤمنين ، واضطر حكام الكنيسة – برغم ما وجدوا – إلى أن يحسبوا لهم أكبر حساب : فإليهم كانت تنتهى رغبات وإيحاءات الإيمان الشعبى ، وبهم كانت هذه الرغبات والإيحاءات تتخذ سبيل الوضوح والتحدد والانتظام ، لتفرض نفسها أخيراً على علماء اللاهوت ، الذين لم يكن لهم بد من تقبلها ومن التوفيق قدر الاستطاعة ، بينها وبين المسيحية .

وهكذا ، وبفضل التعاون اللاشعورى بين تأثيرات تختلف فى أصلها ولكنها تنشط لتلتقى فى بؤرة واحدة ، نشأ فى القرن الرابع دين لا يشبه فى الكثير من نواحيه ذلك الذى لمحناه على أعتاب القرن الثالث . وسيطر هذا الدين الجديد ، فى الواقع ، على العالم الرومانى عند بدء القرن الخامس .

(ولنتأمل قليلا فى أمر مسيحية القرون الوسطى :

كانت ديناً يبغى العالمية ويتخذ الحرب وسيلة لها ؛ ديناً متعصباً ، شديد التعصب ، لا يقبل – بالنسبة إلى العالم الخارجى – أنصاف الحلول ، ويخشاه اليهود خاصة .

وكانت ملتقى لعدد عديد من العقائد التى لا يستسيغها المنطق ، ومن الطقوس الدقيقة المتشعبة التى حملت قدراً وافراً من رموز السرية والفعالية) .

كما تداخلت فيها طوائف لا تحصى من « العبادات » الخاصة التى اتجهت إلى صور من « السيدة العذراء » متعددة ومتميزة الألوان ، وإلى قديسين محليين متخصصين لا يكاد المرء يلم بقوائم أسمائهم .

كل ذلك فى إطار إكليروس يهيمن على إيمان وضمائر الناس ، ويعتمد على تدرج وظيفى متصل اتصالا وثيقاً فى سلسلته ، وينزع إلى تلقى أوامره كلها من مركز موحد ، يدفعه من القاعدة جيش هائل من الرهبان ، وينسق بين صفوفه بعد ذلك جيش آخر من علماء اللاهوت الذين لا ينتهى لهم حديث ولا يصل إنسان إلى سبر أغوار فكرهم .

إننا ، عندما نتأمل مسيحية القرون الوسطى هذه ، فى الكنائس الفاخرة التى اتخذتها مقرًّا والتى تعددت وتكاثرت بصورة هائلة ، وفى الاحتفالات الفخمة التى تقام لها والتى نمت وتضخمت بطقوسها ورموزها المحركة . . .

المسيحية فى القرون الوسطى ؛ عندما نتأملها ، ثم نقارن حالها بدين نبى إقليم الجليل ، ذلك النبى المتواضع ، الرقيق الخلق ، الذى زعم أن رسالته هى فقط تبشير إخوته فى الله بالنبأ الطيب ، نبأ حلول مملكة الله ، وحثهم على إعداد العدة لها بمكارم الأخلاق ، دين عيسى الذى تسامت تقواه إلى إله أجداده فى تطلع بنوى مطمئن . . .

. . . لا نجد رابطة تذكر بين هذا وذاك ! . . .

فباسم المسيح ، يبدو أن حياة الوثنية كلها ، سواء فى ميدان الفلسفة أو الذين ، وبكل ما انطوت عليه من تناقضات وفوضى ، قد دبت فيها الحياة من جديد فنشطت وانتصرت على دين الروح والحق الذى بشر به وعاشه الأستاذ اليهودى) .

ولكنه ، مهما بدا من فروق بين مسيحية رجال من أمثال القديس توماس الإكوينى وبطرس الراهب وبين مسيحية عيسى وبطرس الحوارى ، فإننا نجد النمطين من المسيحية يرتبطان على مر العصور برابطة قد تكون خافية أحياناً على العيان ، إلا إنها قائمة متينة على الدوام ؛ وتلك هى : مقتضيات الحياة والبقاء التى حددت وفرضت التطور ، ذلك التطور الذى كان قيام عيسى بالدعوة نقطة البدء فيه . وليست عقيدة توماس الإكوينى أو أفكار الصليبيين ، أو نظريات القديس أغوسطين فى علم اللاهوت ، أو غنوصية أو ريجين ، أو إنجيل القديس بولس ، سوى مراحل معينة .

(مع ذلك فالحقيقة الثابتة التى لا جدال فيها ، هى : أن الكنيسة لم تتمكن من « الانتصار » خلال القرن الرابع إلا بفضل انهزام الإيمان الأول الذى يمكن أن نسميه بـ « إيمان الاثنى عشر ») .

(ب)

كان من سوء حظ المسيحية أنها اعتمدت أساساً فى البدء على الأمل الكبير المتعلق بـ « ظهور » المسيح . فمن اليسير على الإنسان أن يرسم لنفسه مخطط حياة بديع لا يرقى إليه الشك ولا الخطيئة ، أن أيقن بزوال كل حياة بشرية بين لحظة

وأخرى ، وبقرب جنيه ثمار جهده الذى لن يطل ، تلك الثمار التى سوف يتمتع بها فى عالم الخلود . غير أن الأمل الكبير لم يتحقق ، وأدى التأجيل فيه يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام إلى استسلام عامة المسيحيين – مثلهم فى ذلك مثل سائر الناس – لكل إغراءات غرائزهم ولدفعة العادات المتأصلة فيهم . إنهم لم يتنكروا لمثل الحياة التى لولاها لما كان لدينهم مغزى ولكنهم لم يعودوا يحاولون تحقيق هذه المثل عملا ؛ وحل لديهم « الاعتقاد » فى بعض الفروض والإيمان بالفعالية السحرية للطقوس محل الاجتهاد الشخصى الذى طالب به الإنجيل . وقد بدأ هذا الانحراف قبل القرن الرابع ، إذ نلمح بعض ظواهره خلال الفترات السابقة لانتصار المسيحية ، ولكنه تأكد بتأكد هذا الانتصار . والسبب فى ذلك بسيط ، وهو : تزايد عدد الأتباع الجدد الذين دخلوا الكنيسة دون أن يعدوا لذلك الإعداد الكافى ، فلم تكن لهم المناعة اللازمة أمام قوى الحياة ، تلك القوى التى تؤثر تأثيراً هداماً فى سائر الأديان .

وتلاشى بعد ذلك الخوف من الاضطهادات ، وأصبح المسيحيون يستطيعون أن يعيشوا حياة طبيعية ، فاكتمل فى نفوسهم الانفصال بين واجباتهم كمؤمنين وبين احتياجاتهم كبشر عاديين . وانحصرت الواجبات فى مجموعة من الفروض تنزع إلى الانكماش عدداً وأعباء[1] ، على حين أخذت متطلبات الحياة فى الازدياد ، دون ما قيد حقيقى ، فى الصور التى اعتادها الإنسان ضمن المجتمع . وبعبارة أخرى : (انهزمت المسيحية الأولى فى الصراع الروحى الذى خاضته مع الحياة ؛ وقبلت الكنيسة ، فى الواقع ، هذا الانهزام واعتمدته ،

(١) هكذا مثلا نرى أن الصلوات التى تقيمها الكنيسة أصبحت تختصر شيئاً فشيئاً ، كما اعتاد المؤمنون ألا يشاركوا فيها إلا أيام الأحد .

مكتفية بأن تحول إلى موضوع للتأمل الدينى لدى المؤمنين تلك المثل التى كانت تنطوى فى البداية على جوهر الإيمان ، والتى كانت هى علة الإيمان الأولى) .

واتخذت الحياة اليونانية – الرومانية كلها ثوباً من المسيحية ، ولازمت هذا الدين ، الذى يتعارض معها ، دون أن يضيرها ذلك فى شىء . والنتيجة الكبرى الواضحة لكل ما تقدم ، والتى نلحظها على أعتاب القرن الخامس ، هى إذن : أن انتصار المسيحية ، فى سائر وجوهه ، لم يكن إلا انتصاراً ظاهريًّا ؛ حيث إن الدين الجديد لم يطوع العالم اليونانى – الرومانى لعقيدته وروحه ، بل على العكس من ذلك نرى هذا العالم قد تشربه وطوعه لتطلعاته الأصيلة ولتقاليده فى جميع المجالات الفكرية والمادية ، والكنيسة هى المسئولة عن تلك النتيجة ، لأنها هى التى كانت القوة المتحكمة فى أمور المسيحية والممثلة الوحيدة للمسيحيين ، وهى التى وافقت ، بوصفها هذا ، على الحلول الوسط على ألوان مختلفة من التنازلات ، ثم هى التى « انتصرت » فى تلك الظروف ، لا المسيحية .

وأصبحت الكنيسة جانباً من جوانب الدولة الرومانية ، فقد أخذت عنها الإطارات والمفاهيم الإدارية ، وحب التنظيم والتنسيق ، ثم الخوف من الفردية الابتكارية التى تخرج عن الحدود المتعارف عليها والتى تثير وتقلق عقول السذج البسطاء وتناقض فى حيويتها الدافقة ما دأب عليه المجتمع من تقاليد معتمدة . أما مثل الحياة الأولى فلم تحظ من التقدير إلا بقسط إذ اتخذت موضوعاً مختاراً لأحاديث الوعظ الكنيسة ، ولم يعد لها تأثير حقيقى عميق فى تسيير هذه « المسيحية الخارجية الاسمية » (على حد تعبير تولستوى) التى ارتضتها الكنيسة شيئاً فشيئاً بالنسبة إلى عامة الأتباع .

وانهار النفوذ الإمبراطورى الرومانى فى الغرب خلال القرن الخامس ، وبدا أول الأمر أن الكنيسة قد قويت بذلك ونما سلطانها ، ولكأنها أصبحت وريثة الإمبراطورية فى الميدان السياسى بعد أن ورثتها فيما مضى فى الميدان الأخلاقى والدينى . فلقد ظلت – بين ربوع العالم الرومانى الذى اكتسحته جحافل « البربر » – المعقل الوحيد لمبدأ الوحدة والمركزية الرومانى ؛ بل لم تلبث أن أرادت لنفسها إدارة ملكية حقيقية . وكانت قوة الضمانات التى تمنحها لرعاياها من أمن وحماية فى هذا العصر المضطرب وسيلة ممتازة للدعاية لها ساعدت كثيراً على نمو «كاثوليكيتها» . إلا أن هذا النفوذ الجديد الذى اكتسبته فى المجال السياسى سوف يؤدى إلى تعلقها أكثر فأكثر بأمور « الحياة الدنيا » وإلى ابتعادها عن « المثل » الأولى . ولن تفيد عقيدتها ولا أخلاقها الاجتماعية – على الأخص – من ذلك شيئاً ؛ بل سوف تنشأ فيها فكرة « الإصلاح » المحتوم ، تلك الفكرة التى عكرت صفو عيشها خلال القرون المتوالية .

إلا أن ظرفاً خاصًّا قد يسر كثيراً من انهزام الكنيسة الفعلى أمام متطلبات حياة العصر . وقد أوضحنا أهمية هذا الظرف فيما سبق من زاوية معينة ؛ ونعود إليه هنا لنبحثه من جانب آخر . ذلك هو : أن رجالا قاموا فى سائر العصور ، داخل الكنيسة أو بمعزل عنها ، ينادون بأن المسيحية ليست فقط مثلا أعلى لا يستطيع الإنسان أن يرقى إليه ، ويحاولون بروح وثابة أن يحققوا هذا المثل لأنفسهم ، ويعارضون فى عنف عنيف كل لون من ألوان التنكر للشريعة السماوية ؛ ويهاجمون كل تراجع أمام قوى الحياة الدنيا . كان ذلك مثلا موقف ترتوليان وكومودیان ؛ وكذلك موقف فرقة « المونتانيين » ، وفرقة « النوفاسيين » ، وإن لم تبلغ هذه الأخيرة نهاية الشوط فى هذا الاتجاه ولم

تتلاش تلك الروح فى القرن الرابع ، بل كان من منطق ازدياد الداء أن يزداد الحماس فى البحث عن علاجه . وذلك ما حدث بالفعل .

فقد مرت كل الحياة المسيحية ، بل كل الحياة الدينية ، خلال القرن الرابع ، بتيارات عميقة من الزهد المتشدد . وإنا لا نملك ، لأول وهلة ، إلا التعجب لضعف تأثير هذه التيارات على اتجاه الكنيسة الذى عرضناه . والسبب فى ذلك يرجع إلى نشأة الرهبنة المنظمة ، وفتح أبواب الأديرة واسعة لترحب بكل مسيحى يرفض التراجع عن مثله أمام متطلبات الدنيا ، ويبحث عن الوسيلة التى تمكنه من تسيير حياته - عملاً وفكراً - حسب الأخلاق المسيحية الأصيلة .

وكانت هناك طوائف من الزهاد يعيشون بين رحاب المجتمع ويشتهرون فيه بتقشفهم . وكانوا محل إعجاب البسطاء من الناس ولكنهم لم يؤثروا عليهم تأثيراً ذا بال ، ذلك أن سلطات الكنيسة ، بالأخص ، كانت تسهر على نشاطهم وتراقبه خشية أن يخرج بهم عن حدودهم ، وكانت بذلك تحول بينهم وبين هدم مقومات الحياة التى تعارف عليها الناس ، وتنهاهم خاصة عن الدعوة إلى عدم الزواج أو مهاجمة ألوان الطعام المعتادة . فقد كانوا يثورون عامة أكثر ما يثورون على الملذات الحسية ، سواء منها معاشرة النساء أم تناول اللحوم والخمور . وقام فى القرن الرابع أسقف أسبانى يدعى برسيليان ، يريد أن يصلح من أحوال المؤمنين متجهاً إلى الأخلاق المسيحية القديمة ، فاعتبره أغلب أساقفة من بنى وطنه شخصاً خطراً على المجتمع ؛ وشكوا فى أمره واتهموه بالمانوية ، حيث كانت تلك الديانة ذات الأصل الفارسى تدعو إلى الزهد المتشدد ؛ واستطاعوا أن يدفعوا بالسلطات الحاكمة إلى القضاء عليه . وفى بلاد الجول ، قام أسقف

آخر بمدينة تور ، هو القديس مارتين ، يدعو إلى الزهد ويعمل به فى عنف شديد على نفسه ، فرأى فيه إخوانه من الأساقفة « قدوة ضارة بالناس » وعزلوه عنهم سنين طويلة من حياته ، وإن لم يستطيعوا ، بعد موته ، أن يقضوا على التقدير الذى احتفظ به المسيحيون له والذى تحول إلى تقديس وعبادة .

وكانت الكنيسة ، كلما ازدادت وفود النفوس القلقة الحائرة التى تشكل خطراً عليها ، تفتح أمامها « صمام أمان » تمثل فى الأديرة . ونعنى بذلك : أنها كانت تشير على المؤمنين الذين يعارضونها بسعيهم الدائم إلى المثل الأعلى ، كانت تشير عليهم بتلك الوسيلة لتحقيقه ، أى بالخروج من الحياة الحقيقية دون عناء . ولا نقول هُنا بأنها كانت تعمل مع سبق الإصرار على القضاء عليهم وتطهير المجتمع منهم حتى لا يضروا بمصالحها الدنيوية ؛ حيث لم يكن عليها فى أكثر الأحوال إلا أن تتركهم وشأنهم ، فيسيرون فى الطريق الذى يرضيها ، بل نراها منذ القرن الرابع ، تذهب أحياناً إلى حد معارضة مثل تلك الاتجاهات عندما تشك فى حقيقة ميول أصحابها .

وهكذا انقسم المسيحيون طائفتين ، بواسطة نوع من التمييز بين « المؤمن » وبين « المؤمن الكامل » ذلك التمييز الذى نلحظ أثره فى البوذية وفى المانوية . والعقيدة واحدة بالنسبة إلى الجميع ؛ إلا أنه أصبح أمراً معتمداً أن التطبيق المحدود لأحكامها العملية يكفل « نجاة » المسيحى ، ويتناسب مع قدرة الجمهرة الغالبة من الناس . أما التطبيق الكامل لها ، فهو يقتصر على طائفة من الخاصة تنوب فضائلها العميقة – حسب الرأى السائد – عن ضعف الأخوة من العامة . وعلى أى حال ، فقد هيئت لهؤلاء العامة وسيلة فعالة يستطيعون بها « تعويض » نقصهم الخاص ؛ وتلك هى : التراحم فى صورة الصدقة أو الوقف الخيرى ،

وعمل الخير على أى وجه من وجوهه . وقيل بحق : « المسيحى بمعنى الكلمة هو الراهب » . وبفضل الراهب أيضاً استطاعت المسيحية أن تجد سبيلا إلى التعايش مع الحياة الدنيا ، دون أن تنهار قواها انهياراً سريعاً ودون أن يغمرها رد الفعل المحتوم للتقاليد الدينية الوثنية القديمة ، تلك التقاليد التى ظلت قائمة لفترة طويلة برغم تلاشى المعتقدات المفسرة لها .

(جـ)

هذا هو إذن المظهر المسيحى للانتصار . أما إن نظرنا إليه من زاوية تاريخ الأديان فإننا نجد له مظهرًا آخر مختلفًا .

وعلينا ألا ننسى ، قبل كل شىء أن المسيحية الأولى كانت فى جوهرها ديانة شرقية ؛ كانت تركيباً ساهمت فيه اليهودية بالأسس ، ثم جاءت عناصر البناء الأخرى من العالم الهيلينستى الذى تآلفت فيه التأثيرات اليونانية مع التأثيرات الشرقية الخاصة – من آسيا الصغرى ، وسوريا وما بين النهرين وإيران ، ومصر – منذ عهد انتصارات الإسكندر . ووجد الغرب نفسه أرضاً ممهدة للفتح المسيحى بفضل ما كان منتشراً فيه من عبادات شرقية كثيرة متعلقة بآلهة « الخلاص » : مثل عبادة إيزيس أو عبادة الأم الكبرى الفريجية أو عبادة ميثرا ، وغير ذلك من الآلهة الذين صاحبوا قوافل التجارة وسفنها أو تنقلوا مع فرق الجند فى البلاد المختلفة . غير أن الغرب لم يكن له شأن فى تطور واكتمال الديانة الجديدة ؛ بل هو تناولها من محيطها الخارجى ، ولم يؤثر فيها عند أخذه بها إلا بأن زاد من صلابتها ومن تعصبها .

فقد كان قاصراً عن أن يدرك معارج التفكير اليونانى – منبع علم اللاهوت

الأول – فى سيولته وانسيابه الفائقين ، ولا أن يعبر عنها بلغته اللاتينية الجامدة التى لا تقبل التطويع إلا فى عسر عسير . وكان قاصراً أيضاً تمام القصور عن الوصول إلى تفهم التيارات البالغة التعقيد التى تتداخل فى تكوين العاطفة الدينية الشرقية والتى تفسر كل ذلك القلق والاضطراب اللذين مر بهما الإيمان خلال القرون الأولى من حياته .

وكان متشبعاً بالثقافة القانونية التى امتاز بها الفكر اللاتينى ، فنزع نزوعاً يكاد يكون غريزيًّا إلى تحديد الميتافيزيقا المسيحية فى إطار من القواعد الجامعة المانعة الثابتة ، وإلى تقنين المثل الأخلاقية الدينية تقنيناً حازماً متشدداً .

وتلك هى المرحلة التى طبعت المسيحية فى النهاية بذلك الطابع الذى أقامت عليه وعرفت به فى الغرب . ولكنه لم يكن هو الطابع الذى اتسمت به فى عهد الانتصار والذى بدأت تفقده حقيقة خلال القرن الخامس ، بتأثير الكنيسة الرومانية . لذلك نجد أنفسنا ، خلال القرن الرابع ، أمام دين لم يزل شرقيا بحتاً[1] .

ولعل القارئ يذكر أننا ، عندما حاولنا فى الفصول السابقة أن نتعرف على أحوال الشرق الدينية فى عهد عيسى والقديس بولس ، لاحظنا وجود مادة دينية ضخمة ، تكونت من عبادات عفا عليها الزمن أو ألغيت . ولاحظنا أن هذه المادة الدينية ، رغم خمولها الظاهرى ، كانت تعتمل فيها مبادئ حياة حول نواة للتبلور ، وأنها كانت تقع تحت تأثير نزعات مختلفة اجتمع لها فى مكان واحد

---

(١) ونحن لا نعنى بذلك أن تطور المسيحية ، تقنينا وشعائر ، لم يبدأ منذ ذلك الحين فى كنائس إيطاليا وأفريقيا وبلاد الجول ، ولكننا نقرر فقط أن هذه الكنائس – باستثناء كنيسة روما – لم يكن لها أثر كبير حتى عهد الانتصار ، وكانت جميع تيارات الحياة العقائدية تأتى إليها من الشرق .

الوضوح والشمول . وبعبارة أخرى : كانت هناك تطلعات دينية ، حية بالغة الحياة ، منتشرة فى الشرق ، يهيمن عليها التطلع إلى النجاة ، والإيمان بأن الإنسان لا يمكنه الوصول إلى هذه النجاة بمفرده بل يحتاج إلى وسيط إلهى ، ثم الاعتقاد بأن عليه بعد ذلك كسب الرعاية الإلهية بأسلوب حياة مناسب وبطقوس فعالة . وحاولت هذه التطلعات أن تجد وسيلة للتعبير عن نفسها باستخدام العبادات القديمة وبتوسيع أبعاد الأساطير المتوارثة .

وكانت تلك العبادات والأساطير إطارات ضيقة ، لا تقبل فى يسر كل ما أريد إدخاله فيها من حاجات روحية متزايدة لم يكن لها حساب من قبل . ثم اتضح بعد ذلك التشابه بين مختلف المشاغل الدينية والنظريات المتعلقة بها فى الكثير من العبادات ، مما حتم التفكير فى إنشاء نمط جديد منها يسعها جميعاً أو يفوقها ويغنى عنها . وكان البحث والتأمل كفيلين للمرء بأن يدرك فى سهولة أن « أسرار » إيزيس – أن تركنا جانباً ما يحيط بها من قصص دينية – تنطوى على عين الرصيد الدينى الذى نجده فى عبادات أدونيس أو أتيس . ولم يكن فى استطاعة كل إنسان أن يصل إلى ما وصل إليه الكاتب أبوليه من حلول : فقد كان ينتسب إلى ديانة بعد أخرى ويتعرف على جميع الأسرار دون تفرقة .

ووضعت التيارات التأليفية اللاشعورية هذه المسألة موضع البحث . ثم عادت إليها فى إدراك تام لجوانبها المختلفة ، خلال القرنين الثانى والثالث ، وحاولت أن تجد لها الحلول : فارتفعت كل ديانة من ديانات « الخلاص » بمعبودها إلى مصف « الإله الأعظم » الذى لا تعتبر الآلهة الأخرى إلى جانبه سوى مظاهر منه أو وظائف له ؛ إذ هو يطويها جميعاً فى ذاته الكبرى ، ولكن ذلك كان حلا ناقصاً غير كاف ، حيث ظل على قيد الوجود فى الواقع عدد وفير

من العبادات المنفصلة ، ثم لأن عملية التأليف هذه كانت تترك مجالا واسعاً للخيال الفردى ، وتبقى بعد ذلك بعيدة كل البعد عن إدراك عامة الناس .

لهذا كله اتضحت ، خلال النصف الأخير من القرن الثالث ، الحاجة إلى تنسيق أوسع أبعاداً وأقوى دعامة .

والمسيحية ، فى الحقيقة ، تمثل أول المحاولات فى هذا السبيل ، وأسبقها إلى تحقيق النجاح : ذلك أن أصولها اليهودية أتاحت لها الاعتماد على فكرة التوحيد ، وصبغتها بصبغة التعصب العقائدى التى أفادتها كثيراً فى تلك العصور ، إذ أمنت لها شخصيتها المستقلة ؛ ولم تمنعها من تطويع العبادات الأخرى لصالحها ، ولكنها دفعتها إلى الاستيعاب السريع لها وصهرها فى وحدة منسجمة ، دون التلاشى بينها . ولا شك فى أنه قد ظهرت داخل جمهور المسيحيين ألوان من الخلاف فى الرأى وصلت أحياناً إلى درجة كبيرة من الخطورة حول مسائل جوهرية ، بل انتهت بعضها إلى التشيع وتكوين الفرق . ولكننا نرى فى سائر الحالات اتجاها عامًّا تتحد حوله أغلبية من المؤمنين ، وتنتهى إلى عزل الآراء المخالفة ويصمها بالبدعة ، بل يفيد منها إذ تتحدد معالمه ويجد حياة ونشاطاً فى مقاومته لها .

وقد ظن لفترة طويلة أن العالم تردد كثيراً بين الإيمان بالمسيح والإيمان بميثرا خلال تلك العصور التى ضربت فيها المسيحية بجذورها بين ربوع الإمبراطورية وتوصلت حقيقة إلى مفهوم – بل إلى مذهب مبدئى – للعقيدة الأرثوذكسية . ونعتقد أن ذلك نوع من المبالغة الطائشة فى بيان تأثير عبادة ميثرا التى ظلت آفاق التبشير بها أكثر ضيقاً وتخصصاً من آفاق المسيحية والتى لم تنتشر قط إلا بين مدارس صغيرة مشتتة مقصورة على الخاصة . ولم تكن تعتمد كالمسيحية على

روح المرأة ذات العاطفة الوثابة إذ اقتصرت فى مريديها على الرجال ؛ وكانت تفتقر – على الأخص – إلى كل العوامل التى يمكن أن تجعلُ منها ديناً عامًّا بمعنى الكلمة .

أما أعداء المسيحية الحقيقيون ، فيجب البحث عنهم فى غير ذلك من الأديان .

يجب البحث عنهم فى ديانتين ، شرقيتين مثل المسيحية ، نبعتا من نفس المشاغل الدينية العامة التى نبعت منها ، واستخدمتا عين المادة الدينية التى عرضنا لها فيا سبق ؛ ألاوهما : « الأفلاطونية الجديدة » ، و « المانوية » .

لقد نبعتا ، كما نبعت المسيحية ، عن الأزمة الدينية التى وصفناها ، وتكونتا فى الفترة بذاتها التى تكونت فيها المسيحية ، أى : خلال النصف الثانى من القرن الثالث . وبدت كل من الديانات الثلاث أول الأمر فى صورة مختلفة فى الشكل والمبدأ والطقوس ثم فى طرق اختيار وتنسيق العناصر المختلفة التى استخدمتها ولكنها تشابهت بعد ذلك فى صفاتها العامة .

فالأفلاطونية الجديدة قد احتفظت بمظهر الفلسفة التى تعتمد فى المجال العقلى – إذا سمح لنا بهذا التعبير – على تفكير أفلاطون بعد أن طوعته للنظريات السائدة فى هذا العصر ؛ كما كانت تعتمد فى مجال ما وراء الطبيعة على مذهب تعدد الآلهة الأولمبيين . ولكننا نلحظ لأول وهلة أن النظريات الفلسفية لديها لم تعد سوى وسيلة للتطويع ، تستخدمها فى ترجمة مذهب تعدد الآلهة هذا ، إلى رموز ، وفى إخضاعه لفكرة «التوحيد الوثنى» الشرقية ، أى لعبادة الشمس – التى نجدها بين أسس جميع ديانات الشرق الخاصة بالنجاة[1] – وتنتهى بذلك

(1) كان أفلوطين وبورفير أول أستاذين كبيرين من أساتذة هذه المدرسة وكانا يخشيان كل الخشية من =

إلى تحويل تعدد الآلهة إلى نوع من وحدة الوجود .

أما المانوية ، فكانت – على العكس من ذلك – تستند إلى « الثنائية » الكلدانية ، أى : إلى الأسطورة الأساسية التى تقول بالصراع بين النوروالظلام ، بين الخير والشر ، بين الروح والمادة . وعقيدتها وحى من إلهام نبى ، هو مانى ، وليست نابعة من تأملات مدرسة فكرية معينة . وهى قد استعارت عناصرها من آفاق أوسع من تلك التى تطرقت إليها الأفلاطونية الجديدة ، بل المسيحية نفسها ؛ فإننا نلحظ فيها تأثيرات مختلفة من بلاد ما بين النهرين وفارس والشرق الأقصى ، إلى جانب تأثيرات « الغنوصية » التى تشكل دعامتها الكبرى .

(د)

وظهرت بين الديانات الثلاثة عداوة مستحكمة ، كما اتخذت كل منها بطبيعة الحال اتجاهات وروحاً تختلف عما نجده فى الأخريين .

ولكن ما أكثر أوجه التشابه بينها ! . .

فهى ديانات خرجت ، على حد سواء ، عن المفهوم القديم – القومى الضيق الأفق – للعبادات .

وهى تريد العالمية ؛ وتفسر الوجود والحياة بعلل متماثلة تقريباً ، أو – على الأقل – حسب منهج واحد .

= تعلق العامة بالخرافات والشياطين والجن والسحر . وكان ذلك سببا من أسباب عداء بورفير للمسيحية .

أما خلفاؤهما – ونخص بالذكر منهم جامبليك الذى توفى حوالى عام ٣٣٠ – فقد خصوا بالاهتمام فى تأملاتهم الفكرية : المسائل الدينية والدفاع عن الوثنية ، واعتبروا البحث الفلسفى بمعنى الكلمة مجالا ثانويا ، وأقاموا من أنفسهم انصارا للهيلينيستية ضد تعصب المسيحيين « البربرى » .

وهى تزعم انتزاع الإنسان من ظروف حياته الوضيعة لترشده إلى الخلاص الخالد فى الله .

ثم هى ، أساساً ، ديانات توحيد ، تريد من الإنسان أن يكتسب الخلود والسعادة بالخضوع لشعائر عبادية معينة ولقوانين أخلاقية صارمة .

وقد ظهر فى « الأفلاطونية الجديدة » – منذ البداية – نقص خطير بالنسبة إلى الدينين الآخرين : فهى لم تجد لها « مؤسساً » ، ولم تستطع أن ترجع عقيدتها إلى إرادة ظاهرة لله ، تجعل منها عقيدة أصيلة ، تنطلق بمفاهيمها إلى حيز الواقع الملموس – إن سمح لنا باستخدام التعبير – ولذلك بدت دائماً فى ثوب الدين المصطنع ، واحتفظت بمظاهر النظرية المجردة التى يصبغها كل شخص بصبغته الفكرية الخاصة .

ويختلف موقف المانوية تمام الاختلاف . فهى تعتمد على مانى [1] ، اعتماد المسيحية على عيسى .

لقد صور الفقهاء المسيحيون عامة « المانوية » على أنها بدعة مسيحية . وهذا القول بالغ الخطأ : فالمانوية ، فى عقيدتها وأسطورتها لم تتخذ ثوباً من المسيحية إلا لأسباب « ثانوية » عند اتصالها بأتباع هذا الدين وبأوساطه المختلفة ، فى سعيها إلى التبشير . ولم تكن الطاقة التأليفية للمانوية قد وصلت إلى غايتها عندما مات مؤسسها ؛ بيد أنها ظهرت منذ أول أمرها بمظهر الديانة المؤصلة . وإذا كان مانى قد اعتبر نفسه فى المجال الروحى من خلفاء عيسى وأدخل اسمه فى عداد رسل الله مع الكثيريين من الأنبياء السابقين ، فإنما كان يقصد عيسى المعروف

(١) ولد مانى – ويقال أيضا مانسن ومانيكيا – فى بابل عام ٢١٥ أو عام ٢١٦ ، ومات ببلاد الفرس فيما بين عام ٢٧٥ وعام ٢٧٧

لأصحاب الغنوصية . ومانى فى الواقع لا يدين بشىء يذكر لانجيل الجليل : لقد بشر بدين للخلاص يعتمد على الزهد كما اعتمدت عليه المسيحية فى أول أمرها . ولكنه اتخذ فى مجال ما وراء الطبيعة طريقاً أبسط وأوضح وأكثر منطقاً من ذلك الذى سلكته المسيحية ، كما سار فى الميدان الأخلاق على قوانين أكثر تشدداً وصرامة . ولقد وجه إليه المسيحيون المتعصبون تهماً كثيرة ، ولكنها لم تكن سوى تكرار – لا يستند إلى دعائم صحيحة – لنفس التهم المتهافتة التى وجهت من قبل إلى الجماعات المسيحية الصغيرة الأولى . وعلى أى حال ، فإن المانوية – بعد عهد من النجاح الخاطف السريع – دخلت فجأة فى طور من الانحدار ، بسبب المقاومة العنيفة التى لاقتها من الدولة الرومانية ، إذ رأت فيها تلك الدولة ضرباً من ضروب الفوضوية يفوق فى خطره خطر المسيحية ولوناً من ألوان « المونتانية » المبالغ فيها لا يناسب الرومان ولابد له أن يؤدى بأتباعه إلى التخلى عن واجباتهم كمواطنين وكأفراد مجتمع إنسانى بعد أن تسرب إليهم من بلاد فارس وهى العدوة اللدود للإمبراطورية الرومانية وكان ذلك موقف الإمبراطور ديوكليسيان عندما أصدر أحكامه الرهيبة (حوالى عام ٣٠٠) التى قررت ضد أصحاب المانوية أقسى العقوبات وأبانت عن الرغبة فى القضاء عليهم قضاء مبرماً . وشاركت الكنيسة مشاركة صريحة فى هذا العداء الذى لاقته المانوية ، إذ اعتبرتها ديناً منافساً يريد تجديد الغنوصية ، ويشكل بالنسبة إليها خطرا داهماً يزيد كثيراً عما عرفته من مخاطر خلال القرن الثانى .

وفى ذلك نجد السبب الحقيقى لفشل المانوية ، تلك الحركة الدينية المثيرة القوية فى حد ذاتها والتى أظهرت حيوية عجيبة برغم الاضطهادات العنيفة لها خلال قرون عديدة . ولا نشك فى أن عقيدتها – من وجهة نظر العقل المجرد –

لم تكن أقوى من الميتافيزيقا اللاهوتية المسيحية ؛ ولكنها كانت أقرب منها إلى البساطة . أما منهجها الأخلاق ، فكان يسمو عن قدرة البشر ولا يستطيع أن يغرى جماهير الناس ، إلا أن التوفيق الذى أصابته فى التمييز بين « الصفوة » وبين « المريدين » سمح لها فى هذا المجال بالكثير من الحلول الوسط . ويكفى للتدليل على ذلك بذكر نجاح فرق « الألبيجية » فى جنوب فرنسا خلال العصور الوسطى ؛ إذ يبدو أن « الألبيجية » لم تكن أصلا سوى تطويع مسيحى للمانوية . أما حظ المانوية من النجاح بين أوساط المفكرين ، فلا علينا لبيان خطره إلا أن نشير إلى اقتناع القديس أغوسطين بها وإعلانه رضاءه عنها لسنوات عديدة . بل إننا لنأسف أسفًا شديداً أن نرى هذا العالم الجليل – وهو الذى لم يلحظ شيئاً يؤاخذ عليه فى الاجتماعات المانوية خلال فترة انتمائه إلى الفرقة – نأسف أن نراه يتخاذل بعد ذلك ويضعف ، فيسمح بأن تجمع تحت اسمه وتنشر كل الادعاءات السقيمة المتهافتة المنفرة التى أشيعت بشأنها فى الأوساط المسيحية .

وفى العهد الذى بدأت المانوية فيه تقلق بال الكنيسة ، كانت هذه الأخيرة تمتاز عن الأولى بتنظيمها القوى وبوحدتها واتساقها فى إطار هيئة الأكليروس التى كانت تتمسك فى شدة بأهداب النظام الكنسى وتحافظ عليه ؛ فاستطاعت بفضل ذلك أن تتغلب فى سهولة على الجماعات المنافسة الصغيرة المشتتة التى اضطرت إلى العمل فى الخفاء . وكانت الكنيسة فى صراعها ضد زهد أتباع المانوية وتنكرهم للأمور الدنيوية ، تعتمد على نفس السلاح الفعال الذى تستخدمه فى وضع حد لكل نشاط صاخب يقوم أمامها ؛ ونعنى بذلك : حياة الأديرة . لذلك كانت للمانوية على تطور الرهبنة المسيحية آثار عميقة بكل

تأكيد ، وإن كان يصعب علينا اليوم تحديد مداها . وعلى أى حال ، فسوف تبق النزعات المانوية موضوع نفور شديد بالنسبة إلى السلطات الكنسية ، وسوف تتخذ فى مناسبات عديدة سبباً أو سبيلا إلى اضطهادات رهيبة . وقد قتل الأسقف الأسبانى بريسيليان وراح ضحية لبعض هذه الاضطهادات عام ٣٨٥ .

ولم يكن هناك أى احتمال لأن يتحول العالم إلى الأفلاطونية الجديدة . ولكن – على النقيض من ذلك – كانت احتمالات قوية أمام اعتناقه للمانوية ، خلال القرن الرابع .

وإذا كان قد تحول إلى المسيحية فى النهاية ، فالسبب فى ذلك يجب البحث عنه فى تقدم الكنيسة : تقدمها من حيث التنظيم ؛ ثم تقدمها فى مجال التبشير حيث طوعت مفاهيمه للحاجات الفعلية ، أى لحاجات العامة من الناس ؛ كما تفتحت آفاق لاهوتها لنظريات المفكرين . ويجب البحث عنه أيضاً فى المساندة التى لقيتها من سلطات الدولة التى اضطهدت المانوية ، وفى المعونة التى وجدتها من حياة الرهبنة ، تلك الحياة التى سمحت للمسيحيين النازعين إلى المانوية باتخاذ أسباب الزهد مع بقائهم فى رحابها بل تدعيمهم لكيانها .

وبعبارة أخرى : إذا كانت المسيحية قد تغلبت على الأفلاطونية الجديدة والمانوية ، وحلت محلها فى ذلك العصر ، فلأنها استطاعت أن « تعبر » فى صورة أبلغ مما قدر لها ، عن نفس ما نزعتا إليه من اتجاهات . ولم تلغ فى تعبيرها أى نزعة من النزعات ، بل شملتها جميعاً ، مع تنسيقها ، ومع تحديدها أيضاً – وعلى الأخص – بالدرجة التى تتجاوب فيها وحاجات مختلف طبقات الناس الباحثة عن غذائها الدينى . فقد خبرت العقبات والمحن خلال قرون ثلاث توالت

عليها ، فخرجت منها بقدرة تلقائية على تجنب القضايا المبالغ فيها والنظم التى تتجاوز مقدرة البشر بسبب صرامتها . . . لقد خرجت منها بتعقل الحياة . وكانت الحياة تفيض بين جوانبها وتدفعها فى تياراتها ، وكانت هى نفسها تتمثل الحياة فى المجال الروحى بمرونة بالغة يسهل علينا ملاحظاتها عندما نتأمل واقع الأحداث فى شىء من العناية .

وعلينا أن نشير هنا – من ناحية أخرى – إلى أن المسيحية لم تقض على الأفلاطونية الجديدة وعلى المانوية تمام القضاء ، بعد أن حلت محلها خلال القرن الرابع وتشربت بهما جزئيًّا فى عقيدتها – بالنسبة إلى الأولى – وفى مفهومها الجمالى وتنظيمها – بالنسبة إلى الثانية .

وسوف تظل الديانتان على قيد الوجود إلى جانبها : فقد عاشت الأولى فى ثنايا المؤلفات الفلسفية ، التى بقيت زمناً طويلا معيناً لنظريات الميتافيزيقا الشرقية ، والتى أثرت تأثيراً بالغاً على الأفكار اللاهوتية فى الغرب خلال القرون الوسطى .

أما الثانية ، فقد تفرعت فى فرق مختلفة . انتشرت انتشاراً واسعاً ، وخرجت منها الكثير من البدع العنيفة التى أقلقت بال الكنيسة الكاثوليكية وأرقتها ، وكان لها – من جراء الاضطهادات التى نالتها – تأثير عميق على روح تلك الكنيسة وعلى إنشاءاتها .

خلاصة

الملامح العامة التى يمكن أن يخرج بها الباحث من هذه الدراسة – المسيحية ديانة شرقية فى جوهرها – العناصر المتباينة التى شيدت عليها فى الشرق – الاتجاه التأليفى المسيحى الأول : عقيدة الخلاص – العوامل التى ضمنت للمسيحية التفوق على الديانات المماثلة – انتشارها فى ربوع اليونان – نتائج ذلك : تسرب الميتافيزيقا الأغريقية إلى العقيدة – الاتجاه التأليفى المسيحى الثانى : إنشاء النظريات العقائدية – عمل مفكرى الإسكندرية – واقعية العقائد بالنسبة إلى الشرقيين – لماذا لايستطيع الغربيون أن يفهموا هذه العقائد .

* * *

سوف نحاول هنا أن نجمع ونلخص – من وجهة النظر التاريخية – ما ارتسم لدينا من ملامح عامة لتلك القرون الأربعة من الحياة الدينية التى صاحبنا تطوراتها وأمعنا النظر فى بعض جوانبها ، خلال فصول بحثنا هذا .

وأول ملاحظة نقدمها ونؤكدها ، هى : أن المسيحية ديانة شرقية فى أصولها وفى خصائصها الأساسية . . .

ولو بقيت على ماكانت عليه فى البدء ، لما قدر لها من النجاح ، فى غزو العالم الغربى ، حظ أكبر من حظ ديانة إيزيس المصرية ، أو الأم الكبرى سيبيل الفريجية ، أو أدونيس السورى ، أو ميترا الفارسى ولعلها كانت تستطيع – فى أقصى درجات انتشارها – أن تغرى ، على غرار الديانات المذكورة ، بعض

الأفراد الذين تحملهم استعداداتهم الطبيعية إلى الاستجابة لنزعاتها الخاصة ، أو تدفعهم مقدرات الصدف المحضة إلى اعتناقها . لعلها كانت تستطيع – مثلها فى ذلك مثل التنظيمات الدينية التى أشرنا إليها – أن تسعى إلى إقامة أشتات من الكنائس الصغيرة ، وأن تبشر بدعوتها فى نطاق بعض الجماعات المحدودة من السالكين . ولم تكن لتطمح حتى إلى هذا القسط الضئيل من النجاح ، إلا بعد مرورها – فى الأوساط التأليفية لجماعات يهود المهجر – بتلك المرحلة الانتقالية التى اعتاد الناس أن يرجعوا الفضل فيها إلى بولس والتى هى فى الحقيقة – كما فصلنا فى ذلك القول – من عمل كنيسة أنطاكيا الأولى السابقة على قيام الحوارى بدعوته . وهى – على الصورة التى رسمها لها عيسى والحواريون الاثنا عشر – لم تكن لتجد سبيلا إلى الحياة خارج الأوساط اليهودية الخالصة ، لأنها لم تكن لتعنى شيئاً إلا بالنسبة إليهم كاتجاه عقائدى ، بل لم تكن تشكل سوى تعبير خاص عن الفكرة اليهودية المتعلقة بالانتصار وحول مملكة الله . أما من ناحية تشكيلها لمجتمع دينى ، فلم تكن لتتعدى صورة الفرقة اليهودية التى تعيش على هامش السنن الأصيلة المتمثلة فى مجتمع معبد القدس الأكبر والمعابد الفلسطينية عامة .

فالمسيحية إذن ديانة أنشئت – على أساس يهودى – من عناصر متباينة كثيراً ، وإن جمع بين أشتاتها على حد سواء الأصل الشرقى: عناصر يونانية فى جوانب كثيرة منها ، ولكنها أيضاً عناصر من آسيا الصغرى وسوريا ومابين النهرين ومصر .

وبدت لنا المسيحية ، فى نهاية القرن الأول من تاريخها ، مشابهة لتلك « الأسرار » التأليفية التى أخرج لنا العالم الشرقى ألواناً عديدة منها تتجاوب مع

تطلعه الصوفى الملحّ إلى « الخلاص » وحياة الخلود بديار السعادة فيما وراء الحياة الدنيا بآلامها وهمومها الحقيرة .

واستند تفوقها على مثيلاتها من الديانات إلى عاملين أساسيين أصلها اليهودى الذى حفظها من اتخاذ الحلول الوسط السقيمة مع خرافات الأساطير الميثولوجية المنفرة للنفوس الرقيقة ؛ ثم الواقع الإنسانى لـ « السيد » فيها وتمجيده المحقق بشهادة الشهود ، مما ألبس ادعاءاتها ثوباً من اليقين العميق ومن الوضوح والدقة . وكانت ، بالإضافة إلى ذلك ، أغنى وأبسط من ديانات الخلاص الأخرى . وقد جنبها تعصبها الشديد — وتلك ميزة أخرى ترجع إلى أصولها اليهودية — جنبها التداخلات وألوان الامتزاج المختلفة التى تؤدى إلى الانحراف عن الجوهر الأول ، ولكنه لم يمنعها من اقتراض العناصر التى يمكنها تطويعها وهضمها فى يسر وبساطة ؛ فكان فى إمكانها أن تأخذ — وقد أخذت فعلا — ما بدا لها من الأفكار فى سائر المجالات دون أن تعطى من نفسها مقابل ذلك شيئاً يذكر .

ولكن المسيحية ، برغم كل ذلك ، ومهما بدا فيها من ابتكار وأصالة أو من طبع المذاهب الأخرى التى طوعتها بطابعها الخاص ، لم تكن بالديانة الفريدة من نوعها ، بل لم تكن سوى صدى لتطلعات عصر وبيئة حققا آمالها أيضاً فى غيرها من الديانات .

ونراها تستقر فى ربوع العالم الهيلينستى بفضل « أمة المهجر » اليهودية ، فستفيد كل الاستفادة من إمكانيات المعابد التبشيرية وتحول هذه الإمكانيات لصالحها . ولكنها بذلك أيضاً وجدت نفسها فجأة أمام الفكر الإغريقى فى مواجهة انعقدت عليها كل الآمال الخاصة بتطورها ومستقبل انتشارها :

كان لها مثلا ، دون ما ضرر عليها ، أن تبادر فى البدء إلى معارضة « الحكمة الدنيوية » – تلك الحكمة التى ليست سوى « حماقة أمام الله » – فتواجهها بـ « غنوصيتها » ، أى : بمعرفتها الإلهية المنزلة . بل كان من واجبها أن تصرح باحتقارها للفلسفة ، وألا تحيد قط عن هذا الموقف الحتمى لكل مذهب يدعو إلى التقوى ، حتى تؤكد أنها تسمو عن الحياة الدنيا بحيث لايلحق بها أو يضيرها أى تفكير إنسانى ، مهما بالغ أصحابه فى الاجتهاد . ولكننا نؤكد هنا القول بأنها ، لو كانت قد تمسكت بأهداب هذا الموقف تمام التمسك ، ولو لم تكن قد سمحت لحكماء العصر – الذين وفدوا إليها فى حماس صوفى – بأن يجلبوا معهم تقاليدهم الفكرية وأساليبهم الجدلية وتطلعاتهم العقائدية الجوهرية وحبهم الجم للنظريات الميتافيزيقية ، لما قدر لها أن تخرج عن نطاق الأوساط التى تقبلتها فى بداية الأمر ، ولعاشت عيشة دين للبائسين والبؤساء والمتحمسين الذين يبلغون فى تحمسهم حد الهوس ، ولتلاشت منذ عهد بعيد ولطواها النسيان ولم يعد لها ذكر إلا فى كتب العلماء الباحثين .

إلا أنه كان من حسن حظها أن نفس تشددها فى التعصب قد أدى إلى تجنبها عقد الخوف من مخاطر مهادنة الأديان الأخرى . فنراها مثلا منذ القرن الثانى ترحب بالفلاسفة الذين يئسوا من الفلسفة الوثنية والذين ظلوا برغم ذلك على فلسفتهم – دون إدراك منهم – وعلى صبوتهم العميقة المتأصلة إلى الميتافيزيقا ، فاعتبروا القضايا الأساسية من الغنوصية المسيحية موضوعات تأمل وتفكير نظرى ، واندفعوا فى هذا الاتجاه الذى لم يستطيعوا له مقاومة . وأرادوا لها أن تكون فلسفة ، فأصبحت فلسفة بفضلهم . . فلسفة للكمال تنطوى على خير ما جاء فى النظريات اللاهوتية والجمالية عند اليونان كما تضم الأفكار

الأساسية من نظرياتهم الخاصة بالكون . ولكن هذه العناصر المكتسبة الجديدة لم تؤد إلى إلغاء أى من العناصر الأخرى القديمة المستمدة من الديانات الشرقية ذات الأسرار ، تلك العناصر التى اندمجت فى المسيحية اندماجاً تامًّا بحيث بدت وكأنها جزء أصيل منها لايتجزأ ، بل ، على العكس من ذلك ، نرى فقهاً ذكيًّا مرناً – تلعب فيه الرموز والصور البيانية دور البراهين المنطقية – يحاول أن ينسق بين كل العناصر ، الجديد منها والقديم ؛ هذا على حين كان البسطاء من الناس يجدون غذاءهم فى النواحى العملية من العقيدة ، والحكماء تشرق فى نفوسهم الجوانب الروحية منها إشراقاً يزداد يوماً بعد يوم .

وهكذا نشأ حلم عيسى الخاص بحلول مملكة الله بين رحاب أمة بنى إسرائيل ، ثم مد فى آفاقه ، فأصبح « سرًّا » من أسرار الخلاص الإنسانى ، وتطور بعد ذلك إلى دين عظيم تتفاعل فيه كل تيارات الحياة الدينية الصوفية النابعة من الشرق وكل النظريات العقلية الوافدة من العالم اليونانى .

ولم يكن هذا العمل – الذى ساهم فيه مفكرو الإسكندرية بأكبر قسط وكان للفيلسوف أوريجين النصيب الأعظم فى إرساء قواعده – لم يكن بالأمر الهين السهل ، بل قامت فى سبيله عقبات عديدة وتردد أصحابه كثيراً بين حلول متعارضة ومشاكل شائكة . ولكن الإيمان الوسط المعتدل استطاع فى جميع الأحوال – وهو المسيطر تماماً على رمزية دينه – أن يتجنب المبالغات شيئاً فشيئاً ، وأن يقلل من التعارض بين النظريات ، ثم أن يدعم ويقوى من القضايا الأساسية التى يجد فيها إشباعاً لتطلعاته اللاهوتية . وثارت أزمات قاسية ، وبانت اختلافات مقلقة بين الآراء ، وقامت ألوان من الصراع العنيف الفاضح ، ولكن شيئاً من ذلك لم يستطع أن يعوق من انتشار المسيحية ، لأنها

أصبحت النواة التى تتبلور حولها كل حياة وكل صبوة دينية تمتاز بشىء من الخصوبة ، ثم لأنها انتظمت فى الكنيسة ، أى فى هيئة منظمة ذات قانون وحكومة .

وفى نهاية القرن الرابع ، لم تكن المسيحية قد دخلت بعد فى عهد كمال واستقرار الأرثوذكسية ، غير أنها – منذ ذلك الحين – كانت متمكنة تمام التمكن من مجموع العقائد ذات الشأن فيها ؛ كما كانت تعتمد على إطارات كنسية قوية ، وتسيطر فى واقع الأمور على سائر العالم الرومانى . والحقيقة أنها كانت تجنى – فى كل ما يتعلق بالعقيدة ذاتها – ثمار قرون ثلاثة من الجدل فى مختلف بلاد الشرق .

وكانت معتقداتها الأساسية التى عبر عنها فقهاؤها فى نصوص أثارت مناقشات مطولة وظلت دائماً مرنة وقابلة للتطور – كانت هذه المعتقدات تأتى إلى أذهان الشرقيين بمعان تختلف فى الوضوح والعمق باختلاف درجات الثقافة لديهم : معان تتجاوب مع أفكار أو عواطف ، ولكنها – على أى حال – معان « واقعية » . وقد سارت الأمور على هذا المنوال فى جميع المراحل التى مر بها تطورها . بل إن هذه الرقابة الدائمة التى تولتها عواطف وأفكار المؤمنين على العقائد كانت هى العامل الأول فى تحديد اتجاهات هذا التطور نفسه وإثبات نتائجه .

بيد أن المجموعة العقائدية المسيحية كانت قد نبعت فى بيئة معينة ومن أجل هذه البيئة . ولهذا كان لابد لها من أن تظل غامضة ، بالغة الغموض ، بالنسبة إلى رجال لم يهيئهم لتفهم هذه البيئة ما أنشئوا عليه من تكوين منطقى وعاطفى وما أوتوه من استعدادات طبيعية ، وما درجوا عليه من تقاليد فكرية . وكان هذا

حال الغربيين بالنسبة إلى المسيحية ، وإن حظيت كنيستها لديهم بما نعرفه من نجاح لا مثيل له .

ولم يكن هؤلاء الغربيون بالذين خبروا كل مكتسبات الثقافة الشرقية ؛ كما لم يكونوا ليدركوا الفكر الهيليني إلا من خلال ترجمات تفتقر إلى الكمال والإنصاف . والأقلية القليلة منهم هم الذين استطاعوا باستيعاب اللغة اليونانية تماماً وبالإقامة سنين طويلة فى الشرق – أن يكتسبوا لوناً من العقلية الإغريقية . أما الأغلبية الغالبة فلم تكن – حتى بين أكثر الطوائف تدرجاً فى الثقافة – لتصل إلى أكثر من مفهوم مقارب بعض القرب لمفاهيم العقلية الشرقية ، بل يمكن الجزم بأن الأكثرية الساحقة من الناس لم تكن لتصل إلى شىء من هذا على الإطلاق ؛ فلغتهم نفسها – وكانت اللاتينية – لم تسعفها التعبيرات اللازمة لترجمة كل ما تنطوى عليه اليونانية من دقة وتدرج ورقة فى المعانى . ثم إن النصوص المترجمة – أو ، على الأصح المطوعة تطويعاً تقريبيًّا لمدركاتهم اللغوية – وصلت إليهم فى صورة قضايا جامدة خلعت عنها أثواب المناقشات التى أدت إلى تحديدها وإثباتها . فلم يكونوا ليفهموها إلا « جملة » ، ولم يكن لهم إلا أن يقبلوها « دفعة واحدة » دون ما محاولة لتفسيرها .

لكل هذا نستطيع القول – دون أن نتهم بالبحث عن المتناقضات أو السير وراء كل غريب من الآراء – بأن الغربيين لم يفهموا العقائد المسيحية فى العصور القديمة قط ، كما لم يصلوا إلى إدراكها فى العصور اللاحقة ، وأن الديانة التى أنشأوها على أساس منها ، باجتهادهم الخاص ، كانت ديانة مختلفة تمام الاختلاف فى روحها وجوهرها ، عن المسيحية الشرقية ؛ ديانة مختلفة نبعت قبل

كل شىء من رصيدهم الفكرى والروحى ، متمشية مع عواطفهم ونزعاتهم ، وإن صبت فى قوالب تعبيرية لا توافقها تمام الموافقة .

« وخلاصة : أن الغربيين لم يكونوا قط مسيحيين فى يوم من الأيام »[1] .

---

(١) سوف يدرس المؤلف فى كتب لاحقة « مسيحية القرون الوسطى » ثم « المسيحية الحديثة » شارحا فى تفصيل واف تطور المسيحية فى الغرب .

تعقيب

للإمام الأكبر عبد الحليم محمود

جلست السيدة حنة ، وعلى وجهها سمات الاهتمام والحزن ، ونظراتها معلقة بطائر يحنو على فرخه ويطعمه . وأخذ خيالها يسرح ، يسرح عبر هذه السنين التى تقضت من عمرها الذى لم تتخلله البهجة بالأولاد يسرحون ويمرحون ، ويملأون البيت حبًّا ، وضجيجاً حبيباً ، ومودة وفرحة .

إنها حياة جدباء ، تلك التى لم تملأ جنباتها البهجة بالأولاد : على هذا النسق كان يدور خيالها وعيناها ممتدتان إلى الطائر يطعم فرخه فى حنان ومداعبة .

استمر خيالها يسير مع هواها ، واستمر شعورها بالرغبة فى الولد يقوى ويتركز ، وإذا بها فجأة تسيل دموعها ، وتتجه إلى الله ضارعة فى حرارة داعية فى شوق ولهفة ، أن يهب لها ولداً ، وقالت :

« اللهم لك على إن رزقتنى ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس » .

يقول ابن اسحاق :

« كان السبب فى نذرها أنه أمسك عنها الولد حتى أسنت » واستجاب الله دعاءها ، فلما شعرت بالحمل ، اتجهت إلى الله فى شكر وفى عرفان ، تؤكد من جديد نذرها ، ويعبر القرآن عن ذلك بقوله :

(إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم) .

وعمران الذى ذكرته الآية الكريمة ، ليس بعمران أبى موسى ، وبين موسى وعيسى ، بون شاسع من الزمن .

أما قولها فى الآية الكريمة : « محرراً » فمعناه « معتقاً » ، وهى تقصد بذلك أنه معتق من أن يكون عبداً للدنيا ليعبدك وحدك .

يقول الزجاج :

كان على أولادهم فرضاً أن يطيعوهم فى نذرهم ، فكان الرجل ينذر فى ولده أن يكون خادماً فى متعبدهم[1] .

لقد سعدت السيدة حنة بهذا الحمل فهى تفكر فى هذا الجنين فى سعادة ، إنها تفكر فى صورته وتفكر فى تنشئته ، وتفكر فى تربيته وثقافته كما تفكر فى بسماته ، وفى مداعباته ، وماكان خيالها يسرح مطلقاً فى جو هذا الجنين على أنه أنثى ، وإنما كان يسرح باستمرار – فى جوه – على أنه ذكر ، هاهو ذا قد أصبح شاباً ذكياً ، فتياً يأخذ مكانته بين فقهاء المعبدوسدنته ، بين المسيرين لدفة الأمور الدينية والموجهين لها ، ثم ها هو ذا حبر من كبار الأحبار له الكلمة المسموعة . . . و . . . و . . .

وجاء أوان الوضع ، وفوجئت السيدة حنة ، مفاجأة لم تكن متوقعة . لقد كان المولود أنثى .

ارتبكت السيدة حنة لحظة من الزمن ، وفكرت فى نذرها ، وفكرت فى

---

(١) يقول القاضى أبو يعلى : والنذر فى مثل ما نذرت ، صحيح فى شريعتنا ، فإنه إذا نذر الإنسان أن ينشئ ولده الصغير على عبادة الله وطاعته ، وأن يعلمه القرآن ، والفقه وعلوم الدين : صح النذر .

المقادير وفى سرعة اتجهت إلى الله تعالى وكأنها تعتذر أو تستغفر قائلة .

(رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم[1]) .

أما مريم هذه التى يحرص المفسرون على بيان أنها ليست مريم أخت موسى ، فإن الله سبحانه أضفى عليها عنايته وشملها برعايته ، ويعبر سبحانه عن ذلك فيقول :

(فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً)[2] .

أما من ناحية كفالتها فقد تولى ذلك زكريا ، وكان لذلك قصة :

قال السدى :

انطلقت بها أمها فى خرقها ، وكانوا يقترعون على الذين يؤتون بهم ، فقال زكريا وهو نبيهم يومئذ :

« أنا أحقكم بها ، عندى أختها ، فأبوا ، وخرجوا إلى نهر الأردن ، فألقوا أقلامهم التى يكتبون بها ، فجرت الأقلام ، وثبت قلم زكريا ، فكفلها .

قال ابن عباس :

كانوا سبعة وعشرين رجلا ، فقالوا : نطرح أقلامنا ، فمن صعد قلمه مغالباً للجرية فهو أحق بها ، فصعد قلم زكريا ، فعلى هذا القول كانت غلبة زكريا بمصاعدة قلمه .

وعلى قول السدى : بوقوفه فى جريان الماء .

وقال مقاتل :

---

(١) آل عمران آية : ٣٦ .

(٢) آل عمران آية : ٣٧ .

كان يغلق عليها الباب ، ومعه المفتاح ، لا يأمن عليه أحداً ، وكانت إذا حاضت ، أخرجها إلى منزله تكون مع أختها أم يحيى ، فإذا طهرت ردها إلى بيت المقدس .

والأكثرون على أنه كفلها منذ كانت طفلة بالقرعة .ا هـ

وأخذت الطفلة تشب وتترعرع فى كفالة زكريا .

فلما بلغت السن التى تستطيع فيها الخدمة ، أخذت بتوجيه زكريا عليه السلام ، تعمل فى المعبد توفية لنذر أمها ، وتتعبد فيه ، إنها عاملة عابدة .

واتخذت مريم عليها السلام محراباً ، قال الأصمعى : والمحراب هاهنا الغرفة . والمحراب فى اللغة : الموقع العالى الشريف كما يقول الزجاج :

اتخذت مريم عليها السلام محراباً تعتكف فيه متعبدة متهجدة .

وكان زكريا عليه السلام ، يدخل عليها من آن لآخر محرابها ، رعاية لها ، وعناية بها وتفقداً لأحوالها ، فكان – على دهشة منه – يجد عندها رزقاً : ويعبر القرآن عن ذلك فيقول :

(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا .

قال يا مريم : أنى لك هذا ؟

قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)[1] .

---

(١) يقول صاحب محاسن التأويل : « فى الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى ، كما وجد ، عند خبيب بن عدى الانصارى رضى الله عنه ، استشهد بمكة ، قطف عنب . كما فى البخارى ، وفى الكتاب والسنة لهذا نظائر كثيرة .

ومن اللطائف هنا ما نقله الإمام الشعرانى فى (اليواقيت) عن العارف بالله أبى الحسن الشاذلى قدس سره أنه قال : إن مريم عليها السلام ، كان يتعرف إليها فى بدايتها بخرق العوائد بغير سبب تقوية لإيمانها وتكميلا ليقينها ، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . فلما قوى إيمانها ويقينها ردت إلى

....

السبب لعدم وقوفها معه ، فقيل لها : وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيًّا » اهـ .

أما عن قصة خبيب وقطف العنب فقد رواها الإمام البخارى فى حديث صحيح جليل ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عينا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى ، جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهو بين عسفان ومكة ، ذكروا لحى من هزيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريبا من مائتى رجل كلهم رام ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة فقالوا : هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم ، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم فقالوا لهم انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحدا ، فقال عاصم بن ثابت أمير السرية ، أما أنا فو الله لا أنزل اليوم فى ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما فى سبعة ، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصارى وابن دثنة ، ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث هذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم إن فى هؤلاء لأسوة يريد القتلى فجردوه وعالجوه على أن يصحبهم ، فأبى فقتلوه فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد موقعة بدر ، فابتاع خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرا فأخبرنى عبيد الله بن عياض ، أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته . فأخذ ابنا لى وأنا غافلة حين أتاه قالت فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب فى وجهى . فقال : تخشين أن أقتله ، ماكنت لأفعل ذلك ، والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب فى يده وإنه لموثق فى الحديد وما بمكة من ثمر ، وكانت تقول إنه لرزق من الله ، رزقه خبيبا فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه فى الحال ، قال لهم خبيب : ذرونى أركع ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين ، ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بى جزع لطولتها ، اللهم أحصهم عدداً :

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى شق كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث فكان خبيب هو أول من سن الركعتين لكل امرىء مسلم ، قتل صبرا ، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم اصيب ، فأخبر النبى ﷺ أصحابه خبرهم وما أصيبوا ، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشىء منه يعرف ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسولهم فلم يقدروا على أن يقطع من لحمه شيئا » فتح البارى بشرح صحيح الإمام البخارى ، جـ ٦ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

وتزكت مريم عليها السلام بالعبادة ، وصفت نفسها ، ورق شعورها ، فأصبحت من الصفاء بحيث ترى الملائكة .

ورؤية الملائكة ومخاطبتهم أمر أقره القرآن الكريم ، إن الله سبحانه وتعالى يقول :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم)[1]

ولقد كان رسول الله ﷺ ، يرى الملائكة ، ويتحدث معهم ، ولايراهم من بجواره .

والإمام الغزالى – عن تجربة – يقول :

« إن السالكين فى ابتداء الطريق حينما تصفو نفوسهم ، وتتزكى يرون الملائكة »[2] .

تزكت مريم ، وبدأت ترى الملائكة ، وبدأت الملائكة تتحدث إليها وتسدى إليها النصيحة وتوجهها إلى طريق الحق ، وطريق الطاعة ، بقوله سبحانه :

(وإذ قالت الملائكة يا مريم : إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين)[3] .

---

(١) فصلت : ٣٠ – ٣٢ .

(٢) انظر طبعتنا للمنقذ من الضلال .

(٣) آل عمران آية : ٤٢ .

قال ابن عباس والحسن وابن جريج :
اصطفاها على عالمي زمانها . قال ابن الأنباري :
وهذا قول الأكثرين :
وبعد أن أثنت عليها الملائكة : هذا الثناء الجميل ، قالت :
(يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين)[1] . ثم يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه وحبيبه وصفيه ومصطفاه :
(ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وماكنت لديهم إذ يختصمون)[2] .
وتعود الملائكة إلى مريم تتحدث إليها ، ولم تكن فى هذه المرة موجهة أو آمرة ، وإنما تزف إليها بشرى مذهلة :
(يا مريم ، إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) .
يقول صاحب زاد المسير :
« وفى المراد بالكلمة ها هنا ثلاثة أقوال ، أحدها :
أنه قول الله له : « كن » فكان ، قاله ابن عباس ، وقتادة .
والثانى ، إنها بشارة الملائكة مريم بعيسى ، حكاه أبو سليمان .
والثالث : أن الكلمة اسم لعيسى ، وسمى كلمة ، لأنه كان عن الكلمة .
وقال القاضى أبو يعلى :
لأنه يهتدى به ، كما يهتدى بالكلمة من الله تعالى » .

---

(١) آل عمران آية : ٤٣ .
(٢) آل عمران آية : ٤٤ .

ثم تحدثت الملائكة إلى مريم عن صفة هذا الذى بشرتها به فقالت عنه :
(وجيهاً فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين)[1] .

فوجئت مريم بذلك فقالت فى تعجب واستفهام :

(قالت أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) .

وكانت إجابة جبريل عليه السلام لها حاسمة ، واضحة :

(قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

واستمرت الملائكة فى ذكر بركات الله عليه فقالت :

(ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل : أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص ، وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين .

ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم)[2] .

وإذا تأملنا قليلا فى النص الإلهى وجدنا أن عيسى عليه السلام يقول : إنه يفعل ما يفعل بإذن الله ، ومعنى ذلك أنه ليس له من نفسه القدرة على

(١) آل عمران من الآية ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) آل عمران آية : ٤٨ - ٥١ .

الخلق ، أو الإبراء ، وإنما ذلك كله « بإذن الله » .

ويقول :

إنه رسول إلى بنى إسرائيل .

وإنه مصدق لما بين يديه من التوراة .

ويختتم بقوله :

(إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) .

ونعود إلى مريم عليها السلام من جديد .

لقد كنا مع مريم ، وعيسى ، عليهما السلام ، من خلال سورة آل عمران ، والآن نصاحبهما من خلال سورة مريم التى ذكرت بعض تفاصيل لم تكن فيما مضى .

يقول الله سبحانه وتعالى :

(واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيًّا . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويًّا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًّا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيًّا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيًّا . قال كذلك قال ربك هو علىّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيًّا . فحملته فانتبذت به مكاناً قصيًّا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت يا ليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسياً منسيًّا . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريًّا . وهزّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيًّا . فكلى واشربى وقرّى عيناً فإما ترينّ من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًّا . فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريًّا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ

سوء وماكانت أمك بغيًّا . فأشارت إليه قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيًّا . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيًّا . وجعلنى مباركاً أين ماكنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيًّا . وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيًّا . والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموتُ ويوم أبعث حيًّا . ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ماكان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كـن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) [1]

أرأيت إلى هذا التكريم الذى أحاط الإسلام به مريم عليها السلام ، وعيسى عليه السلام ؟

إنهما فى التكريم السامى الذى أنزل الله فيه المصطفين من عباده المقربين .

وبينما يفترى اليهود على مريم افتراء نزهها الله عنه ، وبينما يرميها قتلة الأنبياء بالفاحشة ، ويتهمونها بالزنى ، إذا بالقرآن ، وبالجو الإسلامى كله ، قديمه وحديثه ، يعتبرها قديسة صديقة .

وبينما ينكر اليهود على عيسى ، عليه السلام ، نبوته ، ويرمونه بالكذب . إذا بالإسلام يعترف بنبوته ، وبأنه عبد الله ورسوله ، وبأنه مبارك ، وبأنه وجيه فى الدنيا والآخرة .

وبينما ينكر بعض مؤرخى الأديان ، مجرد وجود المسيح عليه السلام إذ لم تثبت لديهم الأدلة التاريخية على وجوده ، وعللوا المسيح والمسيحية ، بأنهما من اختراع القديس بولس ، وأن المسيح ليس إلا أسطورة لم يقع لها وجود إلا فى

---

(١) سورة مريم آية : ١٦ – ٣٦ .

خيال القديس بولس ، إذا بالإسلام يوجب على أتباعه ، وجوباً حتميًّا الإيمان بعيسى عليه السلام ، نبيًّا ، ورسولا ، ومباركاً ووجيهاً فى الدنيا والآخرة .

عيسى ؟

إنه جزء من إيماننا نحن المسلمين : نبى ، معصوم ، مبرأ من المعصية وأمه صديقة ،اصطفاها الله وطهرها ، واصطفاها على نساء بنى إسرائيل .

عبد الحليم محمود

رقم الإيداع	١٩٩٨/١٧٥٣٠
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5722-2

١/٩٨/١٢٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)